الطبعة 2

رواية

البُشرَات

النبضة الأندلسية الأخيرة

إبراهيم أحمد عِيسَى



الكتـــــــاب: البُشرات
المـــؤلـــــف: إبراهيم أحمد عيسى
الغـــــــلاف: أ/ إيمان صلاح
المراجعة اللغوية: أ/ سلام عيدة
رقــم الإيـــداع: 2014 / 26330
الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 010 - 9
الإخـراج الفنـي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة
هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403
الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني:info@ibda3-tp.com

البُشرات

رواية

إبراهيم عيسى



الآهداء

إلى صاحب الأمل والبسمة ومن كان له الفضل فى تحقيق أحلامي ....

إلي والدي رحمة الله عليه

(١)

«غرناطة»

١١ جمادى الآخرة ٩٧٤ هـ- ١ يناير ١٥٦٧م

اكتظّت ساحة الرملة بالجنود القشتاليين المُدجّجين بالسلاح يتوسّطهم رجلٌ زادَتْه ألوان ملابسه الزاهية سمنةً مع تلك القبعة الحريرية التي تحتلُّ ريشةٌ حمراءُ جزءًا كبيرًا منها، حالتْ أجساد الجنود بينه وبين المارّة وعيونهم الزائغة التي ترى فيه غرابًا جاء لينعق بما يُمليه الملك فيليب الثاني.

رفع صوته بحشرجةٍ خطفت حواسّ المُتواجدين قبل أنْ يفتح لُفافةً ورقيةً ويبدأ حديثه بالقشتالية:

باسم الملك فيليب الثاني

منفِّذ كلمة الربّ يسوع

أنّه في يوم ١ يناير من العام السابع والستين، قد تقرّر الآتي على موريسكيين مملكة غرناطة وقشتالة:

حظرُ التحدُّث والقراءة والكتابة باللغة العربية خلال فترة ثلاث سنوات.

إلغاء كافّة العقود التي تحرُّر باللغة العربية.

أنْ تُقدُّم الكتب العربية التي بحوزة الموروسكيين في ظرف شهرٍ إلى رئيس محكمة غرناطة، وأنْ تُعاد الكتب إلى أصحابها بعد فحصها إذا لم يكُن هناك ما يمنعُ من حيازة الشخص المؤمن لها، ويتمّ الاحتفاظ بالكتب المُعادة إلى أصحابها لمدة ثلاث سنوات.

أنْ يرتدي الموروسكيون ملابسَ قشتالية، وألّا يرتدوا السراويل، والمَلاحِف، وأنْ تسير الموريسكيات في الشوارع ووجوههنّ مكشوفةٌ.

أنْ يتبع الموروسكيون - في زفافهم وسهراتهم واحتفالاتهم- عادات المسيحيين، وأنْ يفتحوا أبواب منازلهم ونوافذها، وألّا يرقصوا رقصةَ السمرة، وألّا يُقيموا الليالي بأغنياتٍ وآلاتٍ موروسكية، حتى لو كانت لا تتعارض مع المسيحية.

ألّا يوقّر الموروسكيون يوم الجمعة.

ألّا يستخدموا أسماءً وألقابًا عربيةً.

ألّا تتخضّب الموروسكيات بالحناء.

ألّا يستحمَّ الموروسكيون في الحمامات، وأنْ تُهدم الحمّامات الموجودة.

أنْ يُطرد الغزاة الأتراك والمغاربة وغيرهم من إسبانيا، وألّا يكون للموروسكيين عبيدٌ من الغزاة.

أنْ تُراجَع التصاريح الخاصّة بامتلاك عبيدٍ سودٍ.

هذا وتنفّذ تلك القرارات ابتداءً من تاريخه، ومَن يفعل غير ذلك سيتعرّض لعقوباتٍ مُغلّظة.

باسم الربّ.

كانت كلماتُه تقتلع القلوب من الصدور؛ فقد زاغتْ عيونٌ ودمعتْ أخرى حاول أصحابُها ألّا يراها الجنود الذين راحت عيونهم ترمُقهم بتحفُّزِ كنسرٍ ينتظر سقوط محتضرٍ ميتًا حتى ينهش لحمه، حركةٌ واحدةٌ مريبةٌ كانت كفيلةً بأنْ يُقبَض على فاعلها بتهمة التعاطُف مع الموريسكيين، يُسحَب بعدها إلى ديوان التفتيش لتبدأ رحلة المعاناة مع التعذيب حتى تَثبتَ براءتُه، الهمسات بين الموروسيكيين كانت صلواتٍ إسلاميةٍ في عيونهم، تكفي أنْ يُقتل مَن يُشكُّ في أمره أنّه مازال مسلمًا يتخفّى بالتُّقية عن عيون الديوان والكنيسة.

سُرعان ما أنفضّ الجَمْعُ حاملين بداخلهم مزيدًا من الألم والخزي، كلٌّ راح في طريقه يجرُّ عقله الذي يحاول جاهدًا أنْ يُطمْئِنَ قلبًا امتلأ بالخوف ممّا يحمله ذلك القرار الغاشم الذي يُكمّل ويُصادق على ما صدر من قراراتٍ منذ سقوط غرناطة، تُحمِّلُهم ما لا طاقة لهم به مِن تنكيلٍ لمجرّد أنّهم مسلمون أو كما

يسمّيهم المحتلّ القشتاليّ موريسكيون أيْ مسلمٌ متنصّرٌ أو نصرانيٌّ جديدٌ.

فُرِضَ عليهم التنصير كُرهًا وغصبًا؛ تحوّلت مساجدهم إلى كنائسَ تُدقُّ نواقيسها بدلاً من أذانٍ كان يُعلن أنّ الأندلس أرض الإسلام. أمّا الآن، فلم يبقَ من الإسلام سوى ما في الصدور وفي بعض الكتب التي أُخفيَتْ بعنايةٍ بعيدًا عن أيدي المُحتلّين.

كانت حياة الأندلسيين ما بعد سقوط غرناطة هي حياةُ ذُلٍّ ومهانة؛ صاروا كالعبيد يُساقون ويكفي أنْ ينطق أحدهم بلفظٍ عربيٍّ أو إسلاميٍّ ليُشوى في نيران ديوان التفتيش أمام أعين الناس، فقط قليلون هم مَن تنصّروا وحَسُن تنصيرهم، كان هؤلاء ممّن يتقرّبون للحكام من أجل دنيا زائلة ومُلكٍ زائفٍ من ضِيَعٍ وحدائقَ وبعض المنازل.

أمّا الأغلبية العظمى فكتمت إيمانها بربّها وحفظت إسلامها في الصدور والجبال والحقول البعيدة، يُصلّون بعيدًا عن أعين الناس؛ فالكلُّ جواسيسُ الآن وإنْ لمْ تُحسن تربية ابنك على لغةٍ ودين أجداده خطفَتْه القبّعاتُ الحريريةُ والملابسُ الضيّقةُ الملوّنةُ وغانياتٌ جِئْنَ من مختلف أوروبا ليستوطنوا أرضًا ليست بأرضهم، يتنازعون أزقّة وحارات البيازين مع العائلات الأندلسية المتبقّية التي فَضّلت أنْ تمكُث في أملاكها على أنْ تهاجر للعدوة المغربية، كان هناك دومًا أملٌ.

ربّما كان الحديث عن الأمل في تلك الأوقات ضربًا من الوقاحة، فمنذ اللحظة الأولى لدخول المَلكين فرناندو وإيزابيلا إلى غرناطة عام ١٤٩٢ وهما يطمسان أيّ

مَعْلَم إسلاميٍّ يحوّلان المساجد إلى كنائسَ فرُفِعت الصلبان فوق أبراج الحمراء، ليس هذا سوى جزءٍ بسيطٍ كما فعله أجدادهم من قبل مع كلّ مُدُنِ وحواضر الأندلس، أمّا ما فعلاه بعد ذلك فكان الأسوأ؛ فبمساعدة الكنيسة استطاعا خلال سنواتٍ فرض عقوباتٍ على الأندلسيين قامت على إثرها انتفاضة حيّ البيازين التي سرعان ما قُضيَ عليها بمزيدٍ من القرارات التعسفيّة، وتوالى الملوك في نهج السياسة نفسها تجاه الأندلسيين حتى جاء ذلك المتعجرف فيليب الثاني بجنونٍ مثل جنون جدّته إيزابيلا؛ أراد أنْ يمحو وجود المسلمين والعرب من الأندلس ليفرض ذلك القرار الأخير. لم تكن هذه المرة الأولى التي يُحظر فيها على الأندلسيين لغتهم وملابسهم، فقد كانوا يتمكّنون من خلال ثرواتهم من تأجيل اللحظة التي توضع فيها هذه الإجراءات موضع التنفيذ.

*****

عبر غارسيه بن الوليد ببطءٍ القنطرة الصغيرة فوق نهر حدرة، وما إنْ عبرها حتى وقف متأمّلاً مئذنة مسجد غرناطة التي تقف شامخةً تُطلُّ على المنازل البيضاء التي تبدو بجانبها ضئيلة الحجم. لم يكنْ يتأمّلها هي، بل يرمق ذلك الشيء الرابض فوقها وقد بدّل من ملامحها، ذلك الشيء الذي رأى الجنودَ القشتاليين يرفعونه يوم دخل المدينة المَلكان، راح يتذكّر كلّ تفاصيل ذلك اليوم برغم حداثة عمره آنذاك إلّا أنّ ذاكرته لم تخنه يومًا فمازال يذكر موكبهم الذي عبر بوابات غرناطة بخيلاء المنتصرين يرمقون الوجوه البائسة بتعالٍ وزهوٍ، كان عمره

وقتها أحد عشر ربيعًا، طفلاً حمله أبوه على كتفه ليرى مِن بين الجموع الملكة الكاثوليكية إيزابيلا، رآها تنحني لتقبِّل الصليب الحديديّ قبل أنْ يرفعه الجنود إلى أعلى مئذنة المسجد، سأل والده حينها:

- ماذا يفعلون يا أبتِ؟

لمْ يُجبْه والده الشارد وعيناه ترسل دموعًا حارّةً تُغرق وجهه، لمْ يفهمْ حينها ماذا يحدث، ومع الوقت بدأت المعالم تتضح أكثر فأكثر؛ فسرعان ما حُرِم من الخروج إلى الحارة خوفًا مِن خطف الجنود القشتاليين له، ذهب للقداس والصلاة مع أبيه، في الكنيسة يقفون صامتين يُجهّش بعضهم بالبكاء وحينما يعودون إلى المنزل كانوا يرتّلون القرآن بخفوتٍ ويُصَلّون ليلاً تحت جنح الظلام، كان يومًا غريبًا حينما ذهب مع شباب الحيّ إلى مقرّ الإرسالية لتعليمه اللغة القشتالية، يومها ضَرَبَ أحد أبناء فرسان دون ألفونسو لأنه نعته بالعربيّ الحقير.

كان على إثرها أنْ جاء الجنود للقبض عليه وعلى أبويْه، شهران قضاها عمر في الديوان، هكذا كان اسمه قبل أنْ يُفرَض عليه اسم غارسيه، شهران لم يرَ أصدقاءه ولم يسمع سوى صرخات أبيه من الحجرة المجاورة، أُفرِج بعدها عنه وعن والدته أمّا والده فلم يحتملْ وطأة التعذيب ليموت في ديوان التفتيش، لم يره عمر مرّةً أخرى سوى في أحلامه التي كان دومًا يزوره فيها طوال خمسٍ وسبعين عامًا يذكّره بأصله العربي ويرتل عليه ما تيسر من القرآن الذي صار محفوظًا في قلبه، علّمه لأبنائه كما فعل أبوه معه مِن قبل، درّسهم العلوم والفقه والتاريخ واللغة، مخالفًا لقرارات الإمبراطور كارلوس الخامس، ومِن بعده فيليب الثاني وقراراته المتلاحقة.

أفاق عمر مِن شروده على صوتٍ جاء مِن خلفه ليُفزعه، جعله يلتفتُ بسرعة رافعًا عصًا كان يتكئ عليها، وما إنْ رأى القادم مِن خلفه حتى تبسّم بخفوتٍ مع اقتراب ذلك الشابّ الذي قال بالعربية:

- ما الذي يجعلك تتأخر كلّ هذا الوقت خارج المنزل أيها العجوز؟

التفت عمر يمينًا ويسارًا وهو يرفع عصاه في وجه الشاب مُلوِّحًا بها قبل أنْ يقول:

- شش! اسكتْ لا تنطق بالعربية.

ضحك عبدالرحمن وهو يضع يده على كتف العجوز ليهدّئ من روْعه:

- لا تخفْ يا أبي، فالقرار سينفّذ خلال ثلاث سنواتٍ وليس الآن، فمازال هناك الكـ..

قاطعه عمر وهو يخطو بجانبه:

- يا ولدي، للجدران آذان وإذا كان هناك مَن يحبك فهناك الكثير ممّن يُضمِرون لنا الشر، ألمْ ترَ ما فعلته تلك المرأة ماريا مع خوان بن الخياط؟؟؟

أجاب الشابُّ بثقة:

- يا أبي، ليس تلك إلا حالةٌ فرديةٌ، ثم إنّ خوان كان يواعدُها وحينما هجرها قالت عنه إنه مازال مسلمًا.

أشاح عمر العجوز بوجهه قائلاً:

- وماذا فعلوا به؟! عُذِّبَ حتى الموت. يا بنيّ، توخَّ الحذر فقد أصبحنا غُرباء في أرضنا بُدِّلَ ديننا وأُنهِكَتْ عزيمتنا.

توقَّف عبدالرحمن عن السير ليواجه والده وقد حمل وجهه الاستغراب مِمّا يقوله أبوه:

- أنت تقول هذا يا أبي؟!

أحسّ عمر بالضيق الذي غمر صدر وليدِه، فقال وهو يربِّتُ على كتفه:

- يا بنيّ لقد سردتُ لك تاريخ أجدادك منذ فجر الإسلام وحتى سقوط آخر معقلٍ لنا في الأندلس، لمْ أعلِّمْكَ اليأس ولكنْ... حان الوقت لنعترف أننا أقلّ حيلةٍ وعتادٍ وأنّ الناس ركنوا للظلم، ومنهم مَن استهوته دنيا القشتاليين بما فيها من تنكيلٍ.

- لا يا أبي، لا تقلْ هذا! سنعيش ونموت هنا، فهذه أراضينا ثمّ إنني سمعتُ اليوم بالقيصرية أنهم سيرفعون احتجاجهم إلى الرئيس ديسا رئيس المجلس الملكيّ كورتس، وسيطلبون منه إلغاء ذلك القانون أو على الأقلّ تأجيل تنفيذه. أتعلم يا أبي مَن سيكون رئيس الوفد؟ مولاي فرانسيسكو نونيز.

امتعض وجه عمر مع ذكر ابنه لفرانسيسكو نونيز، الذي تابع:

- دعْكَ مِن تلك الأمور، لقد جاءت رسالةٌ مِن أخي عبد الله...

مع ذكر اسم عبد الله تقافزت الابتسامة على وجه العجوز وقد حملتْ عيناه لهفة حاجٍّ إلى بيت الله الحرام، فها هو سيعرف أخبار ابنه البارّ الذي اختار الجهاد في سبيل الله على أنْ يكون جزءًا مِن مجتمعٍ مُشوّهٍ، تدارك فرحته وهو يقول بخفوتٍ:

- هيا نذهب إلى المنزل، لنكمل حديثنا.

ابتسم عبدالرحمن وهو يسير بجانب أبيه الكهل الذي تخطّى الخمس والثمانين عامًا، تاركيْن خلفهما قمرًا حجب نوره سُحُبًا بدأت تزأر مُعلنةً عن سقوط أمطار الخير على غرناطة ومروجها.

*****

راحت الشمس تُخفي بعض آثار ليلةٍ مُمطرةٍ كانت هي الأسوأ بالنسبة للأندلسيين، وقد تجلّى الأسى في ملامحهم الجامدة وهم يتجوّلون في الأسواق يهمسون سرًا عن قرار فيليب الذي يضع مزيدًا مِن القيود حول حياتهم، خرج عبدالرحمن من منزله تاركًا والده الذي أعياه السهر فاستسلم أخيرًا للنوم بعدما قرأ خطاب ابنه الغائب عدّة مراتٍ حفظ فيها ما ورد فيه عن ظهر قلبٍ ثم أحرق الخطاب لتحترق معه عيناه اللتان راحتا تذرفان الدمع على فراق بِكْرِه فلذة كبده، كان عبدالرحمن يمضي في طريقه عابرًا أزقّةً تبدَّل حالها فهجر الديارَ معظمُ أهلها فما عادتْ ورود النرجس والريان تنبت على شرفاتها، مرّ ببيتٍ كان يومًا لمحبوبةٍ لطالما تذكّر وجهَها الذي كان بدرًا في ليلة كمالها، لم يتوقّف وهو يعبر أمام باب

الدار ولكنّ قلبه خفق بسرعة ليذكّره كيف كان رحيلها، يذكر ذبول وردته بعدما قرر أبوها أنْ يزوّجها من غيره فرحلوا إلى تطوان وعيناها لم تفارقه بعد، تذكّر جارتها التي كانت تأتي له بالمراسيل. كانت هي وعائلتها قد اتُّهموا بالهرطقة والمروق عن النصرانية فقد رفع والدها الأذان كمدًا وغيظًا إذ لمْ يُرِدِ العيش كالجبناء بعد مصادرة أمواله وأملاكه، أعتلى سطح منزله وأخذ يردّد الأذان الذي حُجِبَ منذ سنواتٍ عن فضاء غرناطة وأخواتها من المدن الأندلسية.

كان يكفي هذا فقط لتأتي إليه فرقةٌ من الفرسان التابعين لديوان التحقيق ويشرعوا في سحله قبل أنْ يقوموا بتفتيش كلّ أجزاءِ المنزل وسلب ممتلكاته، سِيقَتْ مع والدها وأخويْها وأمها العجوز التي لم يرحم القسُّ شيبها وعجزها، لينتهي بهم المطاف في ساحة الرملة لتُقامَ على شرف حرقهم حفلةٌ ماجنةٌ يحضرها المفتش العام الكاردينال سبينوزا ونبلاء قشتالة.

منذ ذلك الحين قرّر عبدالرحمن الانتقام؛ فتحوّلتْ حياته إلى حَمّالٍ يجوب السوق بحثًا عن رزقه نهارًا، وفي الليل صائدًا للنبلاء والجنود القشتاليين، حياةٌ سريةٌ لا يعرفها أحدٌ سوى نفسه التي تُغالبه أحيانًا وتصرُّ على أنْ يفرّ إلى عدوة المغرب أو أيّ بلدٍ آخر يأمن فيه على نفسه وعلى دينه الذي يخفيه عن أعين النصارى، قادته قدماه إلى بيت عمّته صفية، طرق الباب ثلاثًا وعندما لم تُجبْه أخرج مفتاح المنزل ودلف إلى الداخل، مناديًا:

- عمّتي، أين أنتِ؟!

جاءته الإجابة من غرفة الطبخ:

- تعال يا عبد الرحمن، أنا هنا.

دخل إلى غرفة الطبخ وهو يبتسم قبل أنْ ينحني ويقبّل يدها لتربّت هي على ظهره بحنانٍ قائلةً:

- كيف حالك اليوم يا ولدي؟!

- الحمد لله، انظري لقد أتيتُ لك بشيءٍ مُميّزٍ اليوم.

ختم كلماته وهو يُخرِج من صدره لفافةً من قماشٍ أحمرَ فتحها ببطءٍ أمام عينيها المتشوّقة لمعرفة ما في داخلها، فتحها لترى لفافةً أخرى ولكنها ورقةٌ مطويةٌ بعنايةٍ تلفّتَ حوله بحذرٍ وهو يقول:

- إنها رسالةٌ من تطوان.

خطفَتْها منه بلهفةٍ وشوقٍ وهي تحضنها ثم تقبّلها ثم ترفعها أمام عينيْها بشغفٍ قبل أنْ تتمتم:

- بسم الله الرحمن الرحيم...

لم تستطع أنْ تُكمِل من فَرْط فرحتها ودموعها تنساب كنهر شنيل في فيضانه، أعطتْ الورقة إلى عبدالرحمن الذي ابتسم وهو يكمل ما بدأتْه هي:

- أمي الغالية، أطمئنك على حالي، فأنا في نعمةٍ من الله وخيرٍ، كم تمنيتُ أنْ أكون بقربكِ ولكنْ تعلمين أنّ أرضنا ضاقتْ علينا رحابها، فإمّا أنْ نموت أحرارًا

أو نعيش عبيدًا.

لقد التحقتُ بإحدى السفن العثمانية هنا في تطوان، أصبح البحر حياةً أجدُ فيه ملاذًا للحرية وحبّ الله ورسوله، إنّ لي رفاقًا مسلمين مثلنا يا أمي، نصلّي ونصوم، نُبحر فنُغير على سفن قشتالة وأراجون نُذيقُهم ويلاتِ ما يفعلونه بأهلنا في ديار الأندلس.

اختلجَ قلب عبدالرحمن وهو يقرأ الكلمات التي راحتْ نشوة الفرح تغزو كيانه وهو يُكمل

بصوتٍ زاد قوةً وصلابةً:

- لقد نزلنا على شواطئ ألميرية منذ شهرٍ وقمنا بمهاجمة فِرَق العدوّ، أسَرْنا وقتلنا منهم الكثير، وقريبًا يا أمي يأتي الفرج ونجتمع مرةً أخرى. سنذهب لنصلّي في مسجد الحيّ مرةً أخرى، ونرتدي ملابسنا ونُعيد قِيَمَنا وعاداتِنا، لن يمنعنا أحدٌ مِن ديننا.

توقّف عبدالرحمن عن مواصلة الخطاب مع ارتفاع صوت بكاء عمّته الذي غلب على

سكون المنزل، أكمل الخطاب بصوتٍ متهدجٍ هذه المرة:

- أمي العزيزة، أرسلي سلامي وتحياتي إلى خالي عمر وأبنائه. في القريب سنكون سويًا مرةً أخرى. أحبُّك يا أمّي وتحفظُني دعواتك.

ابنُك البارُّ: محمد بن الحسن الزُّندي.

دقائقُ ليست بالقليلة، مرَّتْ والصمت هو سيّد المكان، دقائقُ لملمَتْ فيها صفية ما تبقّى مِن قَطَراتها المبعثرة على خدّيْها. لا تعلمُ أتفرح أنّ ابنها مازال حيًا أم تبكي لفراقه

الذي طال؛ فمنذ التحاقه بالثوّار في تطوان لم تره سوى مرةٍ وحيدةٍ زارها تحت جنح الظلام ليغادر بعدها سريعًا قبل أنْ تشرق شمس اليوم التالي تاركًا أمّه وحيدةً لا تغادر منزلها حتى وإنْ جاءها الجنود يوم الأحد ليتأكّدوا أنّ سكان المنزل ذهبوا إلى القُدّاس والصلاة، تتذرّع دومًا بمرضها وأنّها قعيدةٌ لا تقوى على الحركة، وبمجرّد أنْ يخرجوا تتقافز العجوز فرحًا وتقرأ ما تيسّر من قصار السور وتنهال باللعنات والدعاء عليهم وعلى ملوكهم ونبلائهم. هكذا كانت صفية أو كما تسمّيها نساء الحارة نقية. نعم! نقيةٌ هي في تعامُلها مع ربّها وجيرانها حتى النصارى منهم.

*****

قضى عبدالرحمن بعض الوقت مع عمّته مُحاولاً إزاحة الجبال التي جثمتْ فوق قلبها، ليخرُج بعد ذلك مُتجهًا إلى البيازين باحثًا عن حمولةٍ قد تأتي بثمارها، خلال الطريق استمع إلى بعض المُتحدّثين عن الوفد الذي ذهب لمقابلة الرئيس ديسا، رئيس المجلس الملكي كورتيس، يطلبون منه إلغاء هذا القانون، مضى

يومه بالقرب من كنيسة سان سلفادور يتأمّل المارّة حينما مرَّ من أمامه فارسٌ قشتاليٌّ مُمتطيًا جوادًا أندلسيًا أحمرَ اللون، مرتديًا درعًا براقًا نُقِش على صدره صليبٌ ذهبيٌّ وخوذةٌ تغطّي وجهه بالكامل. راح يدنو من باب الكنيسة بخيلاءَ وبطءٍ ساحبًا خلفه أربع فتياتٍ تبدو عليهنّ علامات الإعياء والتعب، غير الكدمات والجروح التي احتلت قسمات وجوههنّ، بملابسَ ممزقة تُظهِر أكثر ممّا تُخفي، تابعَتْهم أعين الناس وراح جمعٌ منهم يرشقهنّ بالحجارة وبعض الثمرات بينما وقف آخرون يرمقون ذلك المشهد بصمتٍ لم يخلُ من ألمٍ اعتصر قلوبهم لِما يرونه.

اخترق عبدالرحمن الجموع مُحاولاً إخفاء غضبه الذي لم يفلح أنْ يواريَه بنظرة الفضول التي كانت تملأ عينيْه، توقّف عندما رأى ذلك الفارس يترجّل عن فرسه بزهوٍ مُمسكًا بتلابيب الحبل المُوثَق به الفتيات الأربع قبل أنْ يرفع عن وجهه غطاء خوذته الحديديّ، ليظهر من تحتها وجهٌ أبيضُ يميل للاحمرار وأنفٌ مدبَّبٌ ينبتُ من أسفله شاربٌ أشقرُ منمّقٌ ولحيةٌ شقراءُ تكاد تنمو، عقد عبدالرحمن حاجبيْه مُتفحّصًا وجه الفارس الذي كان يبتسم بزهوٍ مَقيتٍ بما يفعله بتلك الفتيات الأندلسيات، لم يستطعْ أحدٌ أنْ ينبس ببنت شفةٍ أمام هذا المشهد المَهين، وحده عبدالرحمن عرف ما يجب فعلُه. تابع بنظراته ذلك الوقح وهو يسحَب الأسيرات باتجاه باب الكنيسة، استدار عبدالرحمن ليبحث عن أول قشتاليٍّ مبهورٍ بما يفعله ذلك الفارس، حدَّد هدفه وتقدّم باتّجاه ذلك العجوز المَقيت الذي كان يَسبُّ ويلقي الحجارة باتّجاه الفتيات مُطلِقًا ضحكاتٍ كريهة.

توقّف عبدالرحمن إلى جانبه قائلاً بالقشتالية:

- مَن هذا الفارس؟!

رمقه العجوز بنظرةٍ مُتفحِّصة قبل أنْ يُفرِج فمه لتظهر أسنانٌ صفراءُ سقط معظمها ونطق بأنفاسٍ كريهة:

- إنّه الدون ريكاردو جنيور، الذي سيقتلكم أيها الموريسكيّ الحقير.

تمالك عبدالرحمن من نوبة غضبه، وابتسم بلامبالاة، وراح يبتعد عن ذلك العجوز الخَرِف الذي أخذ يصيح:

- اقتلوا هؤلاء العرب الكلاب.

ابتعد عبدالرحمن ليسير وسط الجموع حاملاً بصدره بركانَ غضبٍ في مهاد ثورته، غضبٌ راح يغزو عقله الذي وجد هدفه التالي.

*****

تأرجحت المحروسة فوق سطح البحر الهائج، الذي راحت أمواجه تتلاطم على جانبَيْ السفينة العريقة فخر الأسطول الهاميونيّ العثمانيّ، أفلحت تلك الأمواج العاتية بجعلها تتهادى لتؤخّر وصولها إلى شواطئ ألميرية، وعلى متنها كان البحّارة مستمرّين في عملهم رغم هطول الأمطار وذلك البحر الهائج من تحتهم، كسفينة نوح راحت تُبحر ببطءٍ وسط عتمة ليلٍ سرمديٍّ لا يقطعه سوى برق

يضيء ظهر السفينة بين الحين والآخر.

تعلّق محمد بأحد الحبال المربوطة بالصاري الأوسط وأخذ يتسلّق بخفة حتى صار في قمّة الصاري، اعتدل ليربط نفسه بقمة الصاري ليجلس مُراقبًا البحر من حوله. أخذ يدقّقُ النظر في تلك الأضواء البعيدة التي جاهد لرؤيتها، وما إنْ تأكّد منها حتى صاح مُحاولاً خرق هدير الأمواج: «إنّها ألميرية! أرى ألميرية!» كرّرها مرّتَيْن لتصل إلى أُذُنِ الربّان المُمسك بعجلة القيادة إذ بدأ يتمتم قائلاً: «الحمد لله الذي تتمّ بنعمته الصالحات».

كان شابًا قويًا في بداية العقد الرابع، له وجهٌ يميل للطول وعينان ثاقبتان ترى فيهما بريق العزة والذكاء ذو لحية وشارب سوداوَيْن متناسقَيْن مع عمامة توسّطتْها ياقوتةٌ زرقاءُ، أمّا عن ملابسه فكان يكفي أنْ نقول إنها توحي بأنّه أميرٌ من السلالة العثمانية.

كان شعارُ الدولة العليّة يحتلّ الجانب الأيسر من صدره. إنّه الريّس مأمون نور الدين توران قبطان المحروسة وقائد فرقة الإنكشارية القادمة من إسلامبول مرورًا بالجزائر الذي سترسو سفينته قريبًا -كما يتوقّع- على شاطئ ألميرية.

كان قد قام منذ شهرٍ، بالإغارة على شاطئٍ بالقرب من مرسية والآن هدفه ألميرية، لينزل حمولته من الأسلحة والمجاهدين إلى الشاطئ ليقوموا بعملية سريعةٍ والعودة مرةً أخرى إلى ظهر السفينة، من المقرّر أنْ تأخذ تلك العملية ستّ ساعاتٍ على الأكثر. عليه الرحيل قبل بزوغ فجر اليوم الجديد وقبل أنْ تأتي

السفن الإسبانية، هدأ البحر نسبيًا مع توقُّف الأمطار فأمر بحّارته برفع الأشرعة وتجهيز المدافع، بينما راحت المحروسة تقترب مِن الساحل الأندلسي ببطء.

نزل محمد بن الحسن الزُّندي مِن الصاري إلى سطح السفينة وهو يخلع عنه الملابس المبللة قائلاً لأحد البحارة:

- اليوم سنكون على موعدٍ مع الأعداء، استعدْ يا يحيى.

ابتسم يحيى وقَبْلَ أنْ يفتح فمه ليتحدث مع محمد، جاء صوت الريس مأمون مِن خلفه:

- لعلّ تلك الليلة المُمطرة لصالحنا، فمع تلك الأجواء الباردة ستكون الحامية مسترخيةً أمام النيران لا يلقون بالاً لما سيحدث لهم.

عدَّل محمد بن الحسن سيفه في غمده وهو يقول:

- أتمنى أنْ ننتهي من تلك الغارات سريعًا ويأتي وقت الحرب الحقيقية، لَكَمْ أتمنى العودة إلى رُندة حيث نشأتُ! وكم أتمنى رؤية أمي التي سكنت غرناطة بعد رحيلي!

ألقى مأمون ببندقيةٍ إليه قائلاً:

- قريبًا سيأتي المدد مِن دولتنا العلية، فالسلطان سليم الثاني يجهّز الأسطول الهاميوني للحرب.

أخذ يحيى يَعُدُّ القوارب الصغيرة وهو ينظر إلى محمد الذي تلقّف البندقية وراح

يُقلّبها بين يده قائلاً:

- إنّ الحروب ليست بتلك البنادق، إنّما خُلِقنا فرسانًا.

قالها وهو يضع البندقية بجانبه ويسحب سيفه مِن غمده، متابعًا:

- تلك هي الأسلحة التي يجب حملها.

ابتسم مأمون وهو يتابع محمدًا الذي أخذ يلوّح بالسيف يمينًا ويسارًا، حتى جَاءهم صوت يحيى:

- مستعدون سيدي.

أومأ مأمون برأسه وهو يتمتم:

- لننطلق بعون الله.

قالها وهو ينظر في عيون الرجال الذين راحوا يتراصّون على متن السفينة في صفوفٍ استعدادًا للإنزال، كان أمامه مائة مجاهدٍ اختلفت بلدانهم ولكنهم توحّدوا على الحق ونصرة الحق، كانوا رجالاً لا يعرفون سوى شيءٍ واحدٍ وهو نصرة دين الله، رأى في عيونهم الشغف والمثابرة، رأى رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ومع إعطاء محمد خبر إتمام التجهيز، له قال مأمون بصوتٍ جهْوَريّ:

- وحّدوه!

فردّد الرجال بقوة:

- لا إله إلا الله.

وبدأ الإنزال إلى القوارب التي راحت تشقُّ طريقها نحو شاطئ ألميرية المحتلة.

*****

تقافز شبحٌ مُلثّمٌ مِن سطحٍ إلى آخر بخفةٍ ولمْ يلبث أنْ سَكَنَ واختفى وسط الظلام قبل أنْ يظهر مرةً أخرى بين طيّات الحارة الضيقة مُستترًا بجدار منزلٍ يُشرف على نهاية الطريق، ما إنْ تأكّد مِن خلوّ الحارة حتى راح يركض باتجاه أَجَمة كثيفةٍ تحت سفح ربوة الشمس التي تحمل فوقها جَنّة العَريف، كان مُتّشحًا بغطاء رأسٍ أسودَ وبلثامٍ من اللون نفسه، مُرتديًا ملابسَ خفيفةً تساعده على الحركة، وحذاءً جلديًا طويلاً يصل إلى منتصف ساقه، كَمَنَ لبعض الوقت مُتمِّمًا على سيفه وخناجره قبل أنْ يبدأ بتسلُّق الهضبة إلى أسوار قصر جنة العريف.

اعتلى السور الحجريّ برشاقةٍ وراح يدنو مِن جدران القصر مُتخفّيًا يَكْمُن حينما يمرُّ بعض الحراس ويتحرّك عندما يجد الطريق خاليةً. وأخيرًا، وصل أسفل إحدى الشرفات المضاءة، أخذ نَفَسًا عميقًا قبل أنْ يقفز مُتسلّقًا الجدار بجوار الشرفة، ليصل إلى أحدى النوافذ التي مازالت مفتوحةً وقد أظلمتْ غرفتُها، بحَذرٍ راح يخطو إلى الداخل، توقّف حينما سمع صوتًا يأتي مِن خارج الغرفة، تستّر بإحدى الستائر ولكنّه لم يفتح الباب، خرج مِن مَخبئه مُوارِبًا الباب ليتأكّد مِن خلوّ المكان، خرج بعدها إلى الممرّ المؤدّي إلى بهو الاستقبال، حيث كان يجلس

دون ريكاردو أمام حاكم المدينة الماركيز دي مندخار وبيَدِ كلٍّ منهما كأسُ نبيذ، وقليلٌ من الحرّاس يقفون قرب الأبواب، كانا يتبادلان الحديث فاقترب أكثر مُرهفًا السمع لتلتقط أذناه ضحكات دون ريكاردو الذي قال بعد ضحكاته المتغطرسة:

- لقد وهبتُ ثلاثةً منهنّ إلى الكنيسة لتعميدهنّ، أمّا الرابعة فأخذتها لي، فهي أجملهنّ...

قاطعه الماركيز دي مندخار بصرامة:

- عزيزي ريكاردو، يجب علينا أنْ نهدّئ من الوضع الآن فالموريسكيون في حالة حنقٍ بسبب مرسوم الملك الأخير.

تجرّع ريكاردو ما تبقّى من كأسه دفعةً واحدةً وهو يلوّح للماركيز الذي توقّف عن الحديث رامقًا ضيفه بغضبٍ قبل أنْ ينطق ذلك الأخير بلامبالاة:

- إنّهم مجرّد عبيدٍ لدينا، ثم إنّ أولئك الفتيات أتيتُ بِهنّ من الحدود الشرقية، لو رأيتَ وجوههم حينما داهمهم فُرساني المغاوير.

أطلق ضحكةً مقيتةً أخرى أثارت اشمئزاز دي مندخار الذي نهض عن كرسيه العربيّ الوثير قائلاً:

- غدًا سيذهب وفدٌ من الموريسكيين إلى الملك فيليب الثاني والوزير الأول الكاردينال سبينوزا، ولا داعيَ لأفعالك الصبيانية التي قد تؤثّر على تلك الزيارة.

قاطعه ريكاردو بوقاحةٍ قائلاً:

- لقد رأيتَ اليوم ما حدث مع ذلك المدعو فرانسيسكو نونيز؛ فقد قابله الرئيس ديسا بتغطرُس وإهانة، حتى عندما شرع ذلك العربي القذر في حديثه الطويل المُرسَل لم يبالِ به الرئيس وتركه يلقي خطبته، وفي النهاية ماذا حدث؟! لم يحدث شيءٌ يا صديقي! إنّهم مجرّد عبيدٍ أقلّ مَرتبةٍ منّا في الحياة.

بحنقٍ قال مندخار:

- لا تنسَ أنّ تلك الأراضي كانت يومًا ملكًا لهم، وأنت....

ارتفع صوت دون ريكاردو مُقاطعًا:

- لا تقل هذا! إنّها أرضُنا نحن لا أرضهم هم، أرى أنّك تميل إليهم أيها الماركيز!

كانت كلماته خبيثةً هذه المرة؛ توحي بشيءٍ ما إلى مندخار الذي جحظت عيناه بذهولٍ وهو يقول:

- أتتّهمُني بخيانة عرش إسبانيا يا هذا؟!؟ لولا أنك في منزلي لكان هناك ردٌّ آخر.

عقد ريكاردو حاجبيْه وعَلَتْ وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ حملت الخبث بين طيّاتها قبل أنْ يخطو باتّجاه الباب، وعندما صار على عتبات الخروج التفتَ إلى الماركيز دي مندخار قائلاً:

- ستدفع ثمن كلماتك هذه أيّها الماركيز.

ألقى بكلماته كحجرٍ ثقيلٍ في بركة مياهٍ راكدة، كلماتٌ عكّرتْ صَفْوَ الماركيز الذي أخذ يَسُبُّ ريكاردو وكلّ الأغبياء من طينته. في تلك الأثناء كان المُلثّم يعود

أدراجه سريعًا إلى الغرفة ثمّ الشرفة هابطًا إلى حديقة جنّة العريف، مُتتبّعًا دون ريكاردو الذي امتطى فرسه وانطلق عبر بوابة القصر، ليُعلِن للمُلثَّم عن سباقٍ مع الزمن قبل أنْ يصل إلى بيته المُطل على مجرى نهر شنيل، شمال البيازين.

كان وقع أقدام فَرَس ريكاردو يتزامن مع دقّات قلب المُلثَّم الذي أخذ يقفز مِن منزلٍ إلى آخر مُستترًا بالظلام وبعض الأبنية العالية مُحاولاً مجاراة سرعة الفرس القويّ، حتى انعطف ريكاردو بفرسه إلى أحد الأزقّة مُحاولاً اختصار المسافة إلى بيته المُنيف حينما ظهر ذلك الشخص المَحنيُّ الظّهر في منتصف الطريق، سحب ريكاردو لجام فرسه الذي أطاع أمر فارسه وصار يمشي ببطء باتجاه ذلك العجوز المتكئ على عصًا غليظة، والذي أخذ يسير بجوار الجدار خوفًا من أنْ يُطيح به الفرس وفارسه الغاشم، توتّر الفرس الذي انتصبت أُذُناه وأخذ ينقل توتُّره إلى قلب ريكاردو وهو يحاول جاهدًا تفحُّص ذلك الشخص تحت ضوء مصابيح الزيت الخافتة، وما إن اقترب منه ريكاردو حتى قال بالقشتالية:

- مَن أنت؟؟ وما الذي يُخرجك في ذلك الوقت؟!!!

جاءته إجابةٌ غيرُ متوقعة حين رفعت العجوز عصاها الغليظة مُلوِّحةً ومُفاجئةً الفرس التي صهلتْ بقوّةٍ رافعًا قدميْه الأماميتيْن بحركةٍ سريعةٍ ليسقط ريكاردو أرضًا تحت أقدام الفرس المفزوعة التي انطلقت مسرعةً تاركةً صاحبها ملقًى أرضًا. نظر ريكاردو إلى فرسه التي راحت تبتعد ووقع أقدامها المُسرعة تدوّي في أُذُنه، نهض رامقًا إياها بغضبٍ ثم التفتَ إلى العجوز التي انكمشت على نفسها بجوار جدار أحد المنازل، وبغضبِ بركانٍ ثائرٍ قال وهو يسحب سيفه:

- اللعنة عليكِ أيّتها الشمطاء!

لمْ ينتظر المُلثَّم ما سيحدث، ولكنّه بادر بالهجوم مُنقضًّا كَنَسْرٍ عملاقٍ على فأرِ مَزارعَ

مُسقطًا ريكاردو أرضًا مرةً أخرى، لتصرُخ العجوز بفزعٍ جعل المُلثَّم يَلْتفتُ نحوها ويتقدّم إليها وكانت المفاجأة.

- عمّتي صفية؟!

جاء صوت عبدالرحمن من خلف اللثام ليُشتّتَ عقلها بين الفرح والذهول وعدم التصديق، جَحظت عينا صفية وهي تكاد تبكي، احتضنته ليسمع ضربات قلبها المُسرعة والذهول قد تمكّن من أوصاله، أزاحها برفقٍ قائلاً:

- ماذا تفعلين في الخارج يا عمتي؟؟

راحتْ صفية تبكي كجَبَلٍ قرّر أنْ يُذيب قمّته الجليدية لتنساب عبر تجاعيد سطحه مُكوِّنةً شلالاً من الدموع الحارّة، احتضن وجهها المُسنّ بكفيْه برفقٍ قائلاً:

- ماذا هناك؟ أتعرَّض لك أحدٌ بـ.....

بتر كلماته عندما سمع تأوُّهات ريكاردو الذي بدأ يفيق مع تزامن وقع أقدام راحت تضرب عقله كمطرقةٍ حديديةٍ في يَدِ حدادٍ قويٍّ، نقل بصره بين صفية التي راحت ترتعش مُمسكةً بيده بقوةٍ وريكاردو الذي كان يغمغم بصعوبةٍ وقد استردَّ جزءًا من وعيه:

- سأقتلك يا مندخاااار.

انحنى مُلتقطًا سيف ريكاردو قبل أنْ يعطي وجهه لكمةً كانت كفيلةً بأنْ تُرجعه إلى عالم الأحلام الوردية باحثًا عن طيورٍ ذاتِ ألوانٍ مختلفةٍ ونساءٍ حسناوات تركض بسيقانٍ عاريةٍ وسط غاباتٍ من الورود الحمراء، تركه عبدالرحمن غارقًا في أحلامه وأمسك بيد صفية مُسرعين الخُطى إلى منزلها القريب.

*****

قضى ليلته في طمأنة عمته التي دثّرها بالفراش وقد انتابتها هواجسُ أمٍّ انقبضَ قلبُها فخرجت تبحث عن ابنٍ غائب، تعجّب عبدالرحمن من فعلها هذا فما الذي يقلقها وقد قرأ عليها رسالته يوم أمس؟؟

كانت الإجابة قد سبقت السؤال الذي دار في عقله منذ ساعةٍ تقريبًا في مكان يبعُد عن غرناطة أميالاً؛ على شاطئ ألميرية.

بهدوءٍ لم يقطعه سوى صوت أمواجٍ محتضرةٍ من أثر عاصفةٍ سكنتْ لتمنحهم إذنًا بالإنزال على شاطئٍ رمليٍّ بالقرب من ألميرية وتحت جنح الظلام، حمل الرجال صناديق البارود بينما أخذ البعض في تأمين الشاطئ. كان ممّن يؤدّون التأمين محمد الذي اتّخذ من مدخل الشاطئ وسط الأشجار الكثيفة تمركزًا له ولرفيقه يحيى الذي كان يثرثر طوال الوقت بخفوتٍ عن حبيبةٍ له في إشبيلية كان يراها أثناء عمله في بناء كاتدرائية المدينة التي قامت على أنقاضِ الجامع

الكبير للمدينة. كان يَصِفُ مئذنتها العالية بأبياتِ شعرٍ، ثم ينتقل للحديث عن أبيه المسجون ظلمًا وعدوانًا، كان حاله كحال باقي رفاقه المجاهدين منبوذين، متطرّفين، قُطّاع طريقٍ أو قراصنة يبحثون عن وطنٍ قد سُلِبَ مِن تحت أقدامهم.

(اللعنة على ملوك الطوائف!)

انتشلت تلك الكلمة محمد من شروده ليتلفّتَ إلى رفيقه قائلاً:

- ليس ملوك الطوائف السبب فيما نحن فيه.

عقد يحيى حاجبيْه وكاد يقول شيئًا عندما أكمل محمد:

- إنّ الناس هم مَن تركوا ملوك الطوائف يحكمون، لو كانوا توحّدوا منذ البداية لَما كنّا في هذا الآن، كما أنّ الناس ساد بينهم القَبَلية والتعصُّب؛ أنا بربريٌّ وهذا عربيٌّ وذاك أندلسيٌّ، تفرّقنا فذهب ريحنا وسلّط الله علينا عدوًّا وجعل بأسنا بيننا شديدًا. أتذكُر ما حدث بين المرابطين والموحدين ومِن قبلهم ابن عباد وابن جهور؟؟

تمتم يحيى:

- إنّما فسدت الرعية بفساد الملوك.

أومأ برأسه مؤيدًا لكلام صديقه الذي تنهّد مُعبّرًا عمّا يجيش به قلبه قبل أنْ يقول:

- الوحدة هي ما سيجعلنا ننتصر، الوحدة.

انتبها لقدوم مأمون الذي رسم على وجهه ابتسامةً هادئةً، وهو يقول:

- يبدو أنّ كلَّ الأمور تسير على ما يرام.

أجابه محمد:

- نعم، ليلةٌ هادئةٌ بعد عاصفة هوجاء.

لم يَكَدْ يُنهي حديثه حتى دوّى صوت الرصاص، جاء لِيُعلِمَهُم أنّ ذلك الهدوء لم يكن سوى هدوءٍ يسبق إعصارًا راح يبرز أنيابه مِن بين الأشجار المحيطة، ليسقط بعض الرجال بين جريحٍ وقتيلٍ، أمّا مأمون ومحمد فلم يتركا نفسيهما ضحيةً بين براثن المفاجأة التي غرست رصاصتها في قلب يحيى الذي خرَّ صريعًا وعلى وجهه ابتسامةٌ شاحبةٌ وعينان نصف مفتوحتان مُعلنةً عن مُصادرة روحه إلى السماء.

حالةٌ مِن الفوضى سبَّبَتْها الرصاصات الأولى التي تَبِعَتها صيحاتٌ سُرعان ما بان أصحابُها الذين خرجوا مِن بين الأشجار حاملين سيوفهم البرّاقة معلنةً بذلك بدء القتال بين فرقةٍ قشتاليةٍ بزِيِّها الأصفر ودروعها الفضية وسراويلها الضيقة وبين بحّارة ومجاهدي مأمون توران، الذي راح يشقُّ الصفوف مُبارزًا الجنود القشتاليين وإلى جانبه محمد الذي لا يقلُّ براعةً عن صاحبه قائدِه. راحت السيوف الحادّة تمزّق الأطراف وتقطع الأوصال ليسقط مِن الجانبين الأشجع، ففي تلك المعارك النصر حليف الأقوى والأذكى فقط، أخذ مأمون يُسقط مَن يُقابله بسرعة وهو يصيح:

- النصر حليف المؤمنين.

أخذ يردِّدُها دافعًا رجاله الذين ألهبتهم الكلمات فراحوا يردِّدون كلماته وصدورهم تعانق الموت، كان محمد في تلك الأثناء يقف وجهًا لوجهٍ أمام قائد الفرقة الذي ميَّزه محمد بقبّعته التي اختلفت عن خوذات الجنود، تبارزا بمهارةٍ قبل أنْ يُغرس سيفُ الإسبانيّ في الجانب الأيمن من بطن محمد الذي تحامل على ألمه وضرب برأسه رأس مُبارزِه الذي تراجع ساحبًا سيفه فتسبَّب خروجه في إحداث فجوة أرسلت آلامها إلى صدره عبر حنجرته لتخرج مِن حلقه صرخةَ ألم، أمسك محمد بعدها جرحه النازف في محاولةٍ لوَقْف نزيف الدماء، بينما انقضَّ عليه ذلك القشتاليّ مرةً أخرى مُحاولاً القضاء على ذلك العربيّ العنيد الذي مازال يقف مُواجهًا إيّاه مُمسكًا بسيفه ويده الأخرى تحاول مداواة جرحه الغائر الذي أرسل ألمه إلى قلب صفية إذ أحسَّتْ بما يعانيه صغيرها هناك على شاطئ ألميرية.

*****

صباح اليوم التالي، تجوّل عبدالرحمن في طُرُقات المدينة التي تبدَّل حالها بشكلٍ غريبٍ حيث بدأت فِرَقٌ مِن الجنود تجوب شوارعها وأزقّتها يرمقون الجميع بتحفُّزٍ، لم يكنْ ينقُصُه سوى هؤلاء! ألم يكفِ تلك الليلة الماضية التي لم تعرف جفونه فيها طعم النوم مُواسيًا عمّته المحمومة التي أفشلت مُخطّطه للفتك بفريسته التي منحها القدر فرصةً أخرى للحياة!؟ مضى في طريقه وعقلُه يحثّه على إنهاء الأمر الليلة مهما كلَّف الأمر. مرَّ في طريقه بسوق الحرير، وهذه المرّة رأى أعيان الأندلسيين يتحرّكون وعلى وجوههم ما يوحي بأنّ هناك شيئًا ما،

جلس بالقرب مِن سور حديقةٍ هجرها أهلُها وأسند ظهره للحائط متأملاً المارّة يلتقط بعض حديثهم، ويغوص في خبايا الوجوه محاولاً سبر أغوارها. لم يدرِ كَم مِن الوقت مرّ حينما ناداه أحد التجار ليُكلّفه بعملٍ ما، كان عليه أنْ يذهب مع المُكاري ليحمل بعض الأغراض لنقلها مِن منزلٍ بالبيازين، سيهجره أهله كأغلب ديار ذلك الحيّ الذي صارت بعض منازله خاويةً.

ذهب مع المُكاري، وسرعان ما انتهيا مِن نقل الأمتعة والأغراض إلى العربة وانطلقا إلى مرج غرناطة خارج المدينة، وخلال الطريق بدأ التعارف بينهم في وَصْلَة لكسر ملل الطريق الطويل، وقادهم الحديث عن قرار فيليب وما فعله فرانسيسكو نونيز وكيف قوبل بمهانة ولم يُعرْهُ ديسا أيَّ اهتمام، تبادلا أطراف الحديث حتى قال انطونيو المُكاري:

- اليوم، ذَهَب وَفْدُنا إلى الملك لعرض مشاكلنا ومحاولة وقف العمل بذلك القرار الأخير.

اعتدل عبدالرحمن في جلسته وهو يقول:

- لن يفعلوا شيئًا كالعادة، سيذهبون ويعودون دون أيّ جديدٍ يُذكَر، وإنْ أفلحوا قد يؤجّلون تنفيذ القرار مقابل المال. وكما تعلم، بمُجرّد حصولهم على أموالنا سينكُثون بعهدهم.

التفت أنطونيو قائلاً بحدّة:

- ليس هذه المرة، أتعرف مَن يرأس الوفد؟!

لم ينتظر أنطونيو سؤال عبدالرحمن الذي كان يملأ قلبَه شغفٌ يكفي ليُغرق شبه الجزيرة الأيبيرية، فقال بصوتٍ خافت:

- أعيان الأندلسيين هما خوان فرناندس مِن غرناطة، وفراندو الحبقي مِن وادي، كما أنّ الوفد يضم خوان إنركيز ذلك القشتاليّ الذي دومًا ما يدافع عنّا وعن قضيتنا.

رمقه عبدالرحمن قائلاً:

- هل تظنُّ أنّهم قد يَقْدِرون على فعل شيء؟؟

أجاب المُكاري بثقة:

- أتعرف مَن الذي ننقل أغراضه؟؟

- من؟؟؟

- إنّه فرج بن فرج، إنّه مِن سلالة بني سراج.

رفع عبدالرحمن حاجبيْه وهو يقول:

- نعم، نعم! عرفته الآن. وماذا في هذا؟؟

تلفّت أنطونيو بريبة وحذرٍ قبل أنْ يقول:

- إنّه يخطّط لشيء، سمعته أمس أثناء نقلي لبعض الأثاث مِن منزله وهو يتحاور مع شخصٍ آخر يُدعى فرناندو، ومن صوته عرفت أنه عربيٌّ مثلنا

علم عبدالرحمن أنّ المدعو أنطونيو ثرثارٌ، فقرّر أنْ يُنصِت إليه فقط وألّا يتحدث.

- أتعلم يا...

أجاب عبدالرحمن برتابة:

- غارسيا

ضرب أنطونيو بغلته وهو يقول:

- أتعلم يا غارسيا؟ أنّ فرج بن فرج هذا، أضاع نصف ماله على دفع غرامات الأندلسيين؟! حتى مَن كان يُقبَض عليه من قُطّاع الطريق، وهؤلاء الذين يسمون أنفسهم مجاهدين، أيُّ مجاهدين؟ فليدعونا نكمل حياتنا أيًا كانت. المهم في ذلك أننا نعيش، زوجتي مازالت مسلمةً تصلي وتصوم وتذهب يوم الأحد إلى الكنيسة حتى لا يعتقلها ديوان التفتيش، وأولادي الآن لا يتحدّثون العربية إلا نادرًا؛ فالقشتالية لغة الحُكّام وعلينا فهمهم ومجاراتهم، ما رأيك أنت؟!

لمْ يُجِبْ عبدالرحمن عن سؤاله، بل بادره قائلاً:

- وماذا عنك؟؟

ضحك أنطونيو، بصق بعدها على جانب الطريق بصَفاقة ليقول:

- أنا أعيش يومي بين أسواق غرناطة وضواحيها، نقلتُ أمتعة أهلها المهاجرين، وأتعامل مع الجميع، أقضي ليلتي في الخان حيث أرى النبلاء والفرسان وهؤلاء السكان الجدد الذين أتوا بهم مِن الشمال لتوطينهم المنازل التي أحكمت

السلطات قبضتها عليها، أذهب إلى الكنيسة ودفعت مبلغًا مِن المال للحصول على صكّ غفرانٍ مِن القسّ هناك. يجب علينا الاندماج مع المجتمع الجديد، كلُ ما يهمُّ الآن المال والأمان.

رمقه عبدالرحمن باشمئزازٍ مُتمتمًا:

- اللعنة على أمثالك!

لم ينتبه أنطونيو لِمَا قاله مُرافقه وهو يكمل:

- اليوم سأذهب إلى منزل الدون ريكاردو لحمل بعض الأثاث.

بمُجرّد أنْ ذكر ذلك الثرثار اسم ريكاردو حتى انتبهت حواسُّ عبد الرحمن، الذي رسم عقله خطته الجديدة للفتك بذلك الماتومورس كما يلقّب نفسه والتي تعني قاتل المسلمين. نظر إلى السماء شاكرًا ربه على تلك الهدية التي تثرثر بجواره، لم ينطق بكلمةٍ حتى أنهى تفريغ الحمولة وعاد معه إلى المدينة، ذهب إلى منزله ليجد أباه في انتظاره والقلق يملأ عينيه، وكالعادة طمأنه وسلب قلبه بالكلام المعسول، قبل أنْ يتذرّع بعمته صفية وأنه يجب عليه زيارتها ورعايتها لأنها في وعكَة، ترك أباه وخرج إلى طريقه نحو طريدته.

*****

داخل غرفةٍ في المحروسة، رَقَدَ محمد على فراش الرئّيس مأمون، مرَّ يومٌ كاملٌ

على فقدانه الوعي، نزف الكثير من الدماء على الشاطئ وكاد يقضي عليه مُبارِزُه لولا مأمون الذي انقضّ لينتشله من براثن الموت، حمله إلى القارب ليعود إلى سفينته وقد تبقّى من رجاله عددٌ لا بأس به بعد أنْ قضوا على تلك الفرقة التي قتلت الكثير من رفاقهم، سرعان ما عادوا إلى السفينة التي ما إنْ وَطِئها ربّانُها حتى أمر الرجال بالاتجاه نحو الجزائر، كان مأمون بين الحين والآخر يدخل إلى غرفته ليَطْمَئنّ على محمد وبقية الجرحى.

ظلّ شاردًا طوال الوقت يُبْحِر عقله بين شواطئ المتوسط وموانئه التي زار معظمها، ذاهبًا إلى الجزائر حيث قائده الأعلى البيلرباي حسن خير الدين بربروسا الذي يُشرِف على عمليات الأسطول العثماني في الجزائر خَلَفًا لوالده القائد العظيم خير الدين بربروسا.

أخذ يسترجع مغامراته عبر البحار ومواجهاته مع أسطول البندقية وقبرص، وشغفه وحبه للأندلس التي طالما سمع عنها وعن حضارتها، ولعُه بها جعله يَقبَل تلك المهمة دون تردُّد، كان عليه إجلاء المهاجرين تحت ظلمة الليل والإغارة أحيانًا على الشواطئ الأندلسية المحتلة بين الحين والآخر، تمنّى أنْ تتحرّر وتعود أيام عِزّتها لتكون جناح المسلمين الغربي في أوروبا، كان قد تتلمذ على يد كبار العلماء الذين حدّثوه عن أبطال الإسلام من شروق شمسه، أحبّ موسى بن نصير، حفظ عن ظهر قلب سيرته وكيف كان يريد أنْ يفتح أوروبا وصولاً للقسطنطينية. يتذكّر كلمات جدِّه الذي كان ضمن جنود الفاتح يوم القسطنطينية وقد ترك رسالةً لأبنائه وأحفاده يحثُّهم على التمسك بتعاليم الدين وأنْ يكونوا جندًا لله في السلم والحرب، وأنْ يُدافعوا عن المظلوم وينصروا الحقّ أينما كان.

لم يبالِ ببحّارته الذين أخذ كلٌّ منهم القيام بعمله بينما صدره كان يجيش بالحزن لِمَا لحق برجاله الشجعان على ذلك الشاطئ، واتّخذ قرارًا جديدًا بالعودة، بعد أنْ يصل أولاً إلى مرفأ الجزائر لإسعاف الجرحى والتزوُّد بالرجال والعتاد.

كان هدفه هذه المرة أصعب، ولكنْ هيهات! فهو الريِّس مأمون نور الدين توران قائد المحروسة الذي لا يقف أمامه أيُّ حاجز؛ فقد أصبحت كلُّ المُعوّقات أمام إصراره ضئيلة، أصبح هو مَن يضع الحواجز أمام المُعوّقات يقهرها وينتصر «سأحرِّر ألميرية وأعيدها إلى المسلمين»، هكذا حدَّث نفسه ليُغلق بعدها عينيْه بهدوءٍ تاركًا جسده لمَلِك النوم، أمّا عقله فأخذ يدرس خطةً تكاد تكون مستحيلة.

*****

مرَّ الوقت ببطء على عبدالرحمن الذي ظلّ مُتواريًا عن الأنظار أمام ذلك الخان الذي يقضي فيه أنطونيو المُكاري وقته، أمضى وقته وهو يرثي حال أهل الأندلس الذين أصبحوا كالعبيد خاضعين للقمع الذي مارسه عليهم رجالٌ من العامّة والخاصّة، كانت زوجاتهم وأولادهم وأملاكهم وأنفسهم تحت تصرُّف أعدائهم ولم يكنْ لديهم أيُّ أملٍ في التحرُّر، حاول جاهدًا الحصول على إجابةٍ مُقنعة لِمَا يفعله أمثال أنطونيو من التقرُّب للنصارى وشرب خمرهم وقضاء وقتٍ بصُحبتهم لعله يثبت لهم حسن تنصيره، لكنْ لا تَعمُر البلاد بمثل هؤلاء، تلك الطبقة التي تبحث

فقط عن العيش والسلام، أرجع عبدالرحمن السبب في ذلك إلى حبِّ الناس للدنيا ونسيان أمر الله، حتى ابتلى الله أهل الأندلس بأنْ يجعل بأسهم بينهم و...

قطع حديثه الصامت مع نفسه عندما رأى أنطونيو يُلْقَى خارج الخان وسط ضحكات الجنود القشتاليين الذين ما إنْ ألقوه في الخارج حتى عادوا تاركين إياه يحاول الوقوف مُترنِّحًا من أثر الخمر. انتظر عبدالرحمن بين الظلال حتى عبر من أمامه أنطونيو مُتَّجهًا إلى عربته وبغلته التي كاد يجمِّدُها الصقيع، كان يدندن ويتمتم بكلماتٍ غيرِ مفهومة حينما فاجأه عبدالرحمن الذي أخفى وجهه بلثامه وغطاء رأسه المُتصل بقميصه الأسود، وضع يدًا على فم أنطونيو والأخرى أهْدَتْه لكمةً على مؤخَرة عنقه ليُطلق أنطونيو خوارًا أشبه بخوارِ ثورٍ مذبوحٍ قبل أنْ يذهب إلى نومٍ عميق، كبَّله وكمَّم فاه ثم حمله داخل العربة، أزاح اللثام وقاد العربة باتِّجاه منزل دون ريكاردو.

في الطريق ألقى جسد أنطونيو بجوار رصيف نهر حدرة بعد أنْ فكَّ وثاقه، وأكمل طريقه حتى وصل إلى منزل ريكاردو، فتح له الباب خادمٌ هزيلٌ حمل وجهُه ندوبًا كثيرةً شوَّهت ملامحه، قال باستغراب بقشتاليةٍ غلب عليها اللكنة العربية:

- أين أنطونيو؟!

أجاب عبدالرحمن بسرعة:

- مريضٌ وقد أرسلني بدلاً عنه.

لم يهتمَّ الخادم كثيرًا بالأمر وأدخله إلى المنزل حيث راح يدرسه ويحفظ أدقَّ

تفاصيله، سرعان ما أدخله الخادم إلى قبوٍ مظلمٍ تراكمت في داخله قطعٌ من أثاثٍ تبدو عليه عراقة الزمن وأصالة المحتوى، نقل بصره سريعًا بين القطع المتناثرة، حينما باغته الخادم قائلاً:

- إنّ سيدي يريد نقل تلك المُتعلِّقات إلى قصره الجديد، أتعلم أين هو؟

أومأ عبدالرحمن برأسه قبل أنْ تُرسِل ذاكرته الإجابة التي كان قد ثرثر بها أنطونيو مسبقًا:

- نعم.

أخذ يتفحّص الأثاث وكأنه مُهتمٌّ بعمله قائلاً:

- من أين حصل على تلك الأشياء؟

أجاب الخادم برتابة:

- لقد كانت ملكًا لأحد أثرياء المدينة، وقد استولى عليها بعدما قبض عليه رجال ديوان التحقيق.

في تلك الأثناء تعالت ضحكةٌ ردَّدت الجُدران صداها، قبل أنْ يتلعثم الخادم بتوتُّر:

- سأذهب لأرى سيدي.

انتظر عبدالرحمن قليلاً داخل القبو ثم تَبِعَ خطوات الخادم عبر الدرج إلى أعلى بحذرٍ، لم يدركه فقد اختفى الخادم عن عينيْه التي بحثت عنه في أرجاء المكان،

مرةً أخرى دوَّتْ ضحكاتٌ تبعتها صرخةُ استغاثةٍ أنثوية، تتبَّع الصوت إلى فناءٍ توسَّطته بركة مياهٍ وعلى جانبيْه أشجار البرتقال والورود الحمراء، بحذرٍ صعد الدرج ليصل إلى باب غرفةٍ موارب، تلفَّت حوله بحذرٍ قبل أنْ يُسدِل على رأسه ذلك الغطاء تَبعَهُ باللثام، اقترب من الباب وعيناه ترصد ما في الداخل.

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ

يقودها العِلجُ للمكروه مُكرَهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيْرانُ

لمثل هذا يذوب القلب مـن كَمَـدٍ ... إنْ كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

ردَّد عقله تلك الأبيات لأبي البقاء الرُّنديّ بسرعةٍ حينما رآها، كانت تحاول الهرب من بين يديْ ريكاردو الذي راح يتعثَّر ويترنَّح ضاحكًا ليُعيد الكَرَّة مرةً أخرى في محاولةٍ للإمساك بها، وكَنَمِرٍ يتربَّص بفريسته ظلّ عبدالرحمن ساكنًا حتى حانت اللحظة الحاسمة، حينما أولى ريكاردو ظهره للباب ليدلف عبدالرحمن إلى الداخل ولِتَجحظَ عينا الفتاة بذهولٍ، عجز لسانها عن النطق بأيِّ شيءٍ أو هذا ما كانت تنتظره لتصمت. تجمَّد ريكاردو فاغرًا فاه وهو ينظر إلى عينيْها قائلاً:

- أاستسلمت القطة الشرسة أخيرًا؟!

ولكنّ وجهها يوحي بِمَن هو خلفه فاستدار ليرى ما الذي تُحدِّق فيه الفتاة، وتلاقتْ عيناهما كما تلاقى قلب ريكاردو بخنجر عبدالرحمن الذي أخرجه من ذراع قميصه ليستقرّ في صدر ريكاردو فجحظت عيناه بألمٍ زاده صوت عبدالرحمن الذي قال بالعربية التي يفهمها جيدًا:

- فلْتخلُد روحك في الجحيم أيها الماتموروس الحقير.

أمام عينيْ الفتاة سقط ريكاردو صريعًا، نقلت بصرها بين جسده الملقى أرضًا وبين ذلك المُلثَّم الواقف أمامها الذي أخذ يتقدَّم بخطواتٍ واثقةٍ نحوها ممّا جعل قلبها يرتجف خوفًا لِتَخِرَّ بعد ذلك فاقدةً الوعي. حملها عبدالرحمن ونزل عبر الدرج ليجد الخادم الذي ابتسم مُحرِّكًا رأسه في تحيةٍ تعجَّب منها عبدالرحمن الذي أكمل طريقه إلى الخارج تاركًا خلفه خادم ريكاردو الذي راح يشرع في إحراق المنزل، كانت العربة التي حَمَلت الفتاة ويقودها عبدالرحمن تبتعد عبر الظلام وخلفها ارتفعت النيران التي راحت تلتهم منزل دون ريكاردو.

*****

(٢)

البُشرى

يومان مَرّا على حريق منزل دون ريكاردو، وسُرعان ما راحت أصابع الاتهام تشير إلى غريمه الماركيز دي مندخار حاكم المدينة الذي كان في طريقه إلى إشبيلية لحضور اجتماع الوفد الأندلسي بالكاردينال اسبينوزا، كان يعلم أنّ الحديث عن موت ريكاردو سيتّخذ منحًى آخر هناك، دخل إلى المدينة يتقدّمُه حاملو البيارق والرايات ومِن خلفه أربعة وعشرون فارسًا يمثّلون بلديات غرناطة، ومنهم كذلك الكثير مِن أحفاد مسلمي قرطبة وجيان وغيرها مِن المدن التي سقطت قبل مائتي عامٍ مِن سقوط آخر ممالك الأندلس غرناطة.

داخل قصرٍ كان يومًا مُلْكًا للمعتمد بن عباد وفي بهو أحاطت به أقواسٌ ذاتُ لونٍ ذهبيٍّ وزخارفُ لا مثيل لها وكأنّما رسمتها أيدي ملائكةٍ ارتقوا إلى السماء بعد

تمام عملهم، وقف وفدُ أعيانِ الأندلسيين في انتظار أنْ يُؤذَن لهم بالدخول إلى الكاردينال وزير الملك الأول سبينوزا، وفي إحدى الزوايا وقف فراندو الحبقي؛ كان رجلاً قد تخطّى الأربعين قويَّ البُنيان ذا شاربٍ مُنمَّق ولحية صغيرة مُدبَّبة يرتدي قميصًا وسروالاً ضيقيْن وحول رقبته منديلٌ حريريٌّ لا يتناسب مع وجهه العربيّ قاسي الملامح، وإلى جانبه كان يقف خوان فراندس من كبار تُجّار غرناطة الذي تنصّر أجداده وتعمَّد والده تحت التهديد بالطرد ومُصادرة ممتلكاتهم بعد قرارات الملكة إيزابيلا، كان قصيرًا ذا بطنٍ ممتلئٍ ورقبةٍ غليظة أخفاها وراء ياقة قميصه المزركشة، له عينان ضيقتان ووجهٌ ممتلئٌ، كانا يتحدّثان ببطءٍ وخفوت في محادثةٍ طويلةٍ تطرَّقا فيها إلى العريضة التي ينويان تقديمها للوزير الأول والذي بدوره سيرفعها للملك فيليب الثاني، كان التوتّر والقلق مَن يتحكّمان بهما؛ فقد يكون مزاج الكاردينال سيئًا فيرسلهما إلى ديوان التفتيش لينتهي بهما الأمر معذبيْن أو مقتوليْن وإن حالفهما الحظّ فمسجونيْن بعد أنْ تُصادَر أملاكهما حتى تثبت براءتهما من تهمة العودة للدين المحمدي.

مرَّتْ ساعةٌ وكسْرٌ من الساعة حتى ظهر لهم في آخر الرواق خوان إنريكز الذي أشار لهم بالقدوم فتحرَّك الجميع باتّجاهه، وما هي إلا لحظاتٌ حتى كانوا داخل قاعه اجتماعات الكاردينال سبينوزا الذي ظلّ جالسًا مُوليًا وجهه عنهم مُمسكًا بإحدى الكتب في إهانةٍ واضحةٍ لهم. رمقه الحبقي بنظرةٍ مُتفحِّصة وقد ظهر في عينيْه البغض له؛ كيف لا وهو مَن تُقام من أجله وعلى شرفه حفلات حرق المسلمين، بدأ خوان إنريكز حديثه مُثنيًا على الملك فيليب ثم مُمتدحًا سبينوزا

الذي باغته بسؤالٍ دون أنْ ينظر إليه:

- وما شأنك أنت؟؟

ارتجف خوان من كلمات الكاردينال إذ أحسَّ فيها بلهيب نيرانٍ مستعرةٍ قد تَشويه يومًا ما ومع نظرات سبينوزا الثاقبة راح جبينه يذرف أنهارًا مِن العرق وذلك الأخير يكمل:

- مَن ليس معنا فهو ضدنا، أليس كذلك سنيور خوان إنريكز؟؟؟

أومأ خوان برأسه بانكسارٍ أمام أعين الحضور، ممّا أثار حنق الحبقي أكثر فأكثر، كان عليه فعْلُ شيءٍ حتى يَقْبَل ذلك العلج العَريضة التي تحمل ما يجيش في صدور الأندلسيين المقهورين. تقدَّم بضع خطواتٍ ليخطف أنظار جنود الكاردينال الذين تحفَّزوا لأيِّ حركةٍ قد يقوم بها الحبقي، وما إنْ رأى نظراتِهم حتى توقَّف قائلاً:

- اسمح لي سيدي.

أشار له الكاردينال بعصبية:

- مَن أنت؟؟

- الحبقي... فراندو الحبقي مِن وادي أش، وقد جئت على رأس وفدٍ من أعيان غرناطة الموريسكيين، ونلتمس من كرمك وشخصك الكريم أنْ تتقبَّل هديتنا التي نعرف أنها ضئيلةٌ أمام مقامك العظيم.

أشار الحبقي بيسراه ليأتي مِن خلفه رَجُلان وقد حمل كلٌّ منهما صندوقًا صغير الحجم مفتوحًا ليُبرز قطعًا ذهبيةً وبعض الحُليّ التي سال لها لعاب الكاردينال وإنْ كان يحاول إخفاء سعادته الغامرة ببرودٍ مصطنع، بينما قال الحبقي وهو يتقدّم حاملاً لفافةً ورقية:

- إنّ كلّ ما نريده يتلخّص في تلك العريضة التي بين يديْك، ولَكَم نتمنّى أنْ تَنْظُر إلى رعاياك بعين الرأفة والكرم.

ذيّل كلماته بابتسامة واثقة مُحاولاً كسر تلك الحواجز الحجرية التي تفصل بينهما، أمسك الكاردينال بالعريضة، تأمّل محتواها قبل أنْ يضعها على المنضدة بجانب الصندوقيْن وهو يقول:

- حسنًا، سنرى الأمر وسنعرض أمركم بين يدي الملك، ولكنْ كما تعرفون فإنّ العرائض تُقدَّم للرئيس ديسا أولاً. انتهت المقابلة.

أنهاها دون فائدة تُذكر، خرج الحبقي ومِن خلفه باقي الوفد ليُقابلوا في طريقهم إلى الفناء الماركيز دي مندخار الذي ابتسم بمرحٍ قائلاً:

- فراندو العزيز، أتمنى أنْ تكون مقابلتكم مثمرةً.

ردّ الحبقي ببرود:

- أتمنى ذلك أيضًا، أسمعتَ بما حدث لدون ريكاردو؟؟

رمقه دي مندخار بنظرةٍ حملت ذكاءً واضحًا قبل أنْ يقول:

- مات المسكين على أيدي خادمه الموريسكي القذر.

ابتسم الحبقي في مُحاوَلَةٍ لاستفزاز الماركيز الذي فهم أنّ فراندو الحبقي يتّهمه بقتل دون ريكاردو، لمْ يُمهلْه الحبقي ثانيةً أخرى حتى قال:

- إنْ كُنّا قذرين فَسَلْ حمامات الأندلس عن طهارتنا.

قالها ومَضى في طريقه تاركًا دي مندخار تكاد الدماء تَنْفر مِن عروقه البارزة من أثر نوبة الغضب التي اجتاحته.

*****

استيقظتْ لتجد نفسها داخل غرفةٍ بسيطةِ المعالم تشبه كثيرًا منازل البسطاء مِن أهل مدينتها، للوهلة الأولى ظنّت أنّها في منزلها، راحت تتفحّص الغرفة بعينيْها غير مُصدِّقة؛ فملابسها نظيفةٌ ورائحة الياسمين تأتي عبر النافذة الصغيرة وقد داعبت شمس يناير أطراف فِراشها مع نسمة هواءٍ شتويةٍ تأتي برائحة ثلوج الجبال. اعتصرتْ ذاكرتها لتصل إلى ذلك المُلثَّم الذي قتل ريكاردو، فراحت تُلقي اللعنات عليه عند تذكُّرها له، قررت النهوض مِن الفراش وما إنْ وطأت قدماها الأرض حتى فُتح باب الغرفة لتشهق بفزعٍ وقد دخلت صفية إلى الغرفة مبتسمةً فَرِحَةً تحمل في يديْها طبقًا فيه عسلٌ وآخر فيه خُبزٌ طازج، قبل أنْ تضع أطباقها قالت بصوتٍ حنونٍ دافئٍ:

- أخيرًا استيقظتِ!

كانت لا تزال ذاهلةً مُحدِّقةً في وجه صفية، التي تابعت بعد أنْ وضعتْ أطباقها على منضدةٍ صغيرة:

- لا تخافي يا بُنيّتي، أنتِ بأمانٍ.

قالتها وهي تضمُّها إلى صدرها، لتجد نفسها بين أحضانٍ بعثتْ في قلبها الطمأنينة والسكون لتجهش بالبكاء وكأنّها طفلةٌ بين أحضان أمها الحانية، مرَّتْ دقائقُ ظلّتا على هذا الحال قبل أنْ تُزيحها صفية برفقٍ لتمسح دموعًا قد بلّلت خدَّيْها الجميليْن وهي تقول:

- والآن، نفطر سويًا وتقصِّي لي حكايتك.

جلستا سويًا، وما إنْ وضعت أول لقمةٍ في فمها حتى دوَّت طرقاتٌ على باب المنزل، فزعت ونظرت إلى صفية التي توتَّرت ملامحُها قبل أنْ تذهب لترى مَن القادم، وقفتْ خلف الباب لحظةً، ثم استجمعت شجاعتها قائلةً:

- مَن؟؟

- افتحي يا عمّة، أنا عبدالرحمن.

فتحت الباب لتستقبل وجهه المشرق وابتسامته الساحرة، دخل مُوزِّعًا نظراته في الفناء وهو يقول:

- كيف حالهـ.....

وبَتَرَ كلمته عندما التقت عيناهما للمرة الثانية، عرفته! إنّه هو مَن أنقذها وقتل

الملعون ريكاردو، إنّها عيناه التي لن تنساها مُطلقًا، قاطعت صفية لقاء العيون وهي تقول:

- هل ستظل واقفًا هكذا؟!

أحنى رأسه بخجلٍ، ضحكت منه صفية وابتسمت عائشة، -هكذا كان اسمها- هي الأخرى بخجلٍ زادها جمالًا، كانت خمريّة البشرة عينيْها يحملان زرقةَ وصفاءَ بحرٍ مالقة، وشعرها أسودُ كَلَيْلَةٍ غابَ قمرُها، نحيفة الجسد رشيقة القوام. جلس الجميع إلى مائدةٍ أعدّتها صفية، وبعد الفطور راحت تروي قصتها:

«لقد ولدتُ في دانية بالقرب من بلنسية التابعة لحكم مملكة أراغون، أبي كان يعمل خياطًا وله في سوق المدينة اسمٌ وباعٌ طويلٌ، كما هو حال الكثير مِن أهلنا كَتَمْنا إيماننا وفي منزلنا كُنّا نقيم شعائر الإسلام وأمام العامة نحن نصارى من الطبقة الثانية، كان لي أختان....»

توقّفتْ عن الحديث لتمسح دمعةً هربتْ مِن مآقيها قبل أنْ تُكمل بصعوبة:

«ومنذ شهرٍ تقريبًا، خرجْنا نستطلعُ هلال رمضان كي نبدأ في صيام الشهر المبارك، ولكنْ بعد يوميْن هجم على الحيِّ أُناسٌ يتّشحون بالأحمر والأصفر وراحوا ينهبون ويسرقون ويغتصبون، وإذا قاوم أحدٌ قتلوه، أحرقوا المنازل وهم يصيحون (الموت للموريسكيين! الموت للكفار)، قُتل ليلتها اثنان من أبناء عمومتي ومُزِّقا أمام أعين الجميع قبل أنْ يجمعونا في ساحة الحيِّ ليتمَّ تفريق النساء والأطفال عن الرجال والشيوخ، ساقوا الرجال إلى شاطئ البحر وكان أبي معهم، أجبروهم

على النزول إلى الماء وصوَّبوا بنادقهم نحو صدور الجميع، لتمتزج بعد ذلك صرخات الألم بصوت الرصاص.

أُجهِشتْ بالبكاء لتجد يد صفية تربِّت على كتفها وهي تقول:

- سينتقم الله منهم يا بُنيَّتي، لا تبكي يا حبيبتي.

كان عبدالرحمن شارد الذهن حينما أكملتْ عائشة:

«قادونا إلى الجبال بعد ذلك، مَن كانت تسقط مِن التعب كانوا يجرحون ساقيْها ويتركونها للذئاب الجائعة التي كانت تسير لأيام خلف قافلتنا، وعندما هبطت الثلوج استطعتُ الهرب أنا وأختي وفتاةٌ أخرى. ظللنا لأيام نسير ليلاً ونختفي عن العيون نهارًا حتى سقطنا في يد حرّاس ذلك المدعو ريكاردو والذي أذاقنا من العذاب صنوفًا متنوعةً؛ باع أختي إلى رهبان الكنيسة...»

هنا قاطعها عبدالرحمن قائلاً:

- أعرف البقية! ستحتاجين أوراقًا ثبوتيةً لكي تتمكني من البقاء هنا.

قالت صفية بسرعة:

- مازلتُ أحتفظ بأوراق ابنتي صُبْح -اللهم احفظها هي وأبناءها- هي تسكن تلمسان في الجزائر مع زوجها الآن، وَلِي ابنٌ سأزوِّجك إياه، إنّه يحارب القشتاليين

كانت صفية تحدثت بعفوية ممّا جعلهما يبتسمان لها بحُبٍّ وهي تُكمل قصة محمد، رجلها الشجاع الذي لم يُرِدْ أنْ يكون عبدًا لدى القشتاليين فقرَّر أنْ يعيش حرًا كما خلقه الله، وأنْ يموت شهيدًا في سبيل أرضه وعِرضه وهو ما تحقَّق!

ففي تلك الأثناء كان يدفن البطل الشهيد محمد بن عبد الله الرُّنديّ، يواريه التراب أصدقاؤه مِن مختلف بلدان الإسلام وقد صلّى بهم الجنازة صديقه وقائده الذي أقسم أنْ يقتصَّ لرفيقه وبقيّة زملائه أو يذهب إليهم.

*****

تسعة أشهرٍ حتى الآن ولم تأتِ ثمار المفاوضات التي عقمت أشجارها، تناقل الناس أخبار موريسكيي مملكة أراغون وبلنسية الذين تمَّ قبول تظلُّمهم والتماسهم لدى الملك الذي أوصى بذلك بناءً على رغبة أعيان ونبلاء أراغون وعلى رأسهم كوزمي بن عامر الذي نجح في إقناع الملك بالتخفيف مِن تطبيق هذا القانون، إذ تقرَّر معاملة المهرطقين المرتدين عن النصرانية والذين مازالوا على إسلامهم سرًا، بعدم نزع ممتلكاتهم بتهمة المروق من الدين، مقابل غرامةٍ سنويةٍ قدرها ٢٥٠٠ مثقالاً ذهبًا يقدِّمها الموريسكيون إلى ديوان التفتيش، كان وَقْعُ ذلك على موريسكيي غرناطة وقشتالة يمثِّل حبَّة قمح داخل صومعة مِن الشعير؛ فبالرغم مِن أخبار بلنسية التي تُفرِح القلب، كانت أحوالهم سيئةً للغاية حيث وصل الاضطهاد إلى ذروته.

لم تَعُدْ عقول أهل غرناطة وأحوازها تفكر في غير الثورة، نعم! الثورة التي قد تُنقِذُهم مِن ديوان التفتيش الغاشم، الثورة الملاذ الأخير للحفاظ على دينهم

والدفاع عن بلدهم المحتلّ الأندلس، طوال تسعة أشهرٍ لا يأتي يومٌ إلا وتقتحم قوةٌ من الشرطة الأحياء الأندلسية العربية للقبض على شخصٍ ما ولتنفيذ القرار الذي أصدره ديسا مؤخّرًا والذي ينصُّ على تنفيذ قرار الملك في نهاية عام ١٥٦٧ كموعدٍ نهائيٍّ لتخلّي الموريسكيين رجالاً ونساءً عن لباسهم الإسلاميّ ولغتهم العربية، الأمر الذي جعل عددًا كبيرًا من شباب غرناطة والمدن المحيطة بها إلى الاعتصام في الجبال والإغارة على قوافل ومصالح قشتالة وأراغون، أدّى ذلك إلى إصدار قرارٍ آخر يحمل بين طياته التلميح بالإبادة لِمَن يساعد قُطّاع الطرق والقراصنة، هكذا سمّوا الثوار.

حاول الماركيز دي مندخار كسب وُدِّ الأندلسيين فحلَّ قوة الشرطة وأصدر أمره بمعاملة الموريسكيين معاملةً حسنةً، ولكنْ لم يفلح الأمر في ذلك المجتمع العنصريّ؛ حيث بدأت المضايقات من المهاجرين الجدد الذين أتت بهم السلطات من شتّى أنحاء أوروبا لتوطينهم في منازل المسلمين التي صادرها الديوان والتي هَجَرَها أهلُها.

توفِّيَ عمر بن الوليد، والد عبدالرحمن بعد مرضٍ لم يَدُمْ طويلاً. ولكنْ قبل وفاته بيومٍ واحدٍ أوصاه بأنْ يتوخّى الحذر وأنْ يُهاجر إلى أيِّ مكانٍ ليحافظ على حياته ودينه، صلّى عليه هو وصفية وعائشة، ثمّ كفّنوه وفي الليل ذهب عبدالرحمن وبعض رفاقه إلى خارج المدينة ليدفنوه في لحدٍ كما أمره، وعلى قبره وقف ليرثي حاله وحال البلاد، أنهى حديثه مع الفقيد قائلاً والألم يعتصر قلبه:

«أعذرني يا أبي، لن أرحل عن أرضنا هذه وإنْ كان في هجرتي حفاظٌ على ديني

ودنياي، فالآخرة خيرٌ وأبقى. رحمك الله وغفر لك يا أبي.»

قضى عبدالرحمن أيامه بين السوق الذي شَحَّتْ فيه الأرزاق وكثُرت فيه الأحاديث الخافتة عن أخبارٍ تأتي عمّن في الجبال، كان يتتبّع مجالس فرج بن فرج الذي كانت تراقبه عيون رجال الديوان وجواسيسهم والذين كانوا صيدًا سهلاً لقاتل النبلاء، هكذا أطلقوا عليه، وتناقلت المدينة الحديث عن مُحقِّق عدالة غائبة يَظهَر ليلاً ويذوب نهارًا وسط الناس. كان عبدالرحمن مع غروب الشمس يزور بيت صفية يُجالِسها وينقل لها أخبار ما يحدث، بينما تَصْنَع له عائشة الفطائر المُحلّاة بالعسل، كانت قد أصبحت أخته التي لم تلدْها أمه يحنو عليها ويأتي لها بالأقمشة وبعض غنائمه، أمّا هي فقد لزمت المنزل لا تخرج منه مطلقًا إلا للتسوق أو الذهاب مضطرةً إلى كنيسة سان سلفادور فتقف في آخر الصفوف تدندن وتُخرِج لسانها في ظاهرةٍ تعبِّر عن عدم اهتمامها بما يقوله القسّ الذي راح أبناء الموريسكيين في تقليدها فيه، بينما اعتبرهم القسُّ نصارى جُدُدًا لا يفقهون شيئًا ويجب عليهم الحصول على صكوك غفرانٍ بقَدْرٍ من المال ليَصْفَحَ عنهم الربّ.

كان حارسها النبيل يتعرَّض لكلِّ مَن يحاول مضايقتها والتحرش بها، كانت فاتنةَ البيازين، رفضتْ عروض الزواج التي راحتْ تنهال عليها مِن جيران صفية التي ادَّعتْ أنها ابنتها القادمة من رُندة؛ فبرغم سنوات عمرها السبعة عشرة كانت امرأةً كاملة الأنوثة طاغية الجمال تحمل عيناها روحًا عربيةً خالصةً، روحًا عربيةً تغرب شمسها عن أرض الإسلام في الأندلس.

*****

في ليلةٍ سطع قمرُها فوق غرناطة العريقة مِمّا زاد ضوءه شوارعها روعةً وجمالاً، جلس عبدالرحمن أعلى مئذنة مسجدٍ صغير قد تحوّل إلى كنيسة، بزيِّه الليلي الذي أضاف له بعض الحُليّ وخنجرٍ إضافيٍّ بذراعيْ قميصه أوصلهما بقبضةٍ ليخرجا وقت الحاجة إليهما، كان ينتظر خروج فرج بن فرج من منزله فقد كانت تلك من مهامّه اليومية التي يقضيها في التلصُّص والتسمُّع لاجتماع أعيان غرناطة الذين راحوا يجتمعون سرًا في أحد المنازل البعيدة عن المدينة، أُلهِبَ صدره عندما سمعهم يتحدّثون عن ثورةٍ شاملة تُعيد للأندلس دولتها وللمسلمين عقيدتهم، تابع اجتماعاتهم السرية التي راحت تتغيَّر أماكنها.

كان يجلس فوق سطح المنزل مُتخفيًا كعادته في الظلام مُستترًا ببردته السوداء ولثامه المعتاد، تَبعَ فرج الذي أخذ كعادته لا يترك شارعًا أو زقاقًا دون أنْ يدخله وما إنْ يخرج حتى يغيِّر اتجاهه خوفًا مِن أنْ يكون قد تتبَّعه أحدٌ، دون أنْ يدري أنّ هناك بالفعل شبحٌ يقفز من منزلٍ إلى آخر برشاقةٍ مقتفيًا أثره.

وصل أخيرًا فرج إلى منزلٍ بسيطٍ في البيازين، طرق الباب ثلاثًا فتحت له امرأةٌ عجوزٌ أدخلته ثم أخرجت رأسها لتتأكد من خُلُوِّ الزقاق من المارّة، دخل فرج بعد ذلك إلى غرفةٍ جلس بداخلها ثمانيةٌ كان هو تاسعهم. في تلك الأثناء كان عبدالرحمن ينزل مِن سطح المنزل إلى شجرة لوزٍ قديمةٍ تصل فروعها إلى شرفة غرفة الاجتماع، حيث رأى في داخلها شخصياتٍ عرف معظمهم وحفظ وجوههم من كثرة ما رأى اجتماعاتهم السرية.

كان الحبقي جالسًا وإلى جواره خوان فراندس ببدانته وعرقه الغزير وإلى جواره العجوز فرناندو بن جهور الصغير الذي يقال إنّ نسبه يعود إلى بني أمية، وهو من ابتدأ الحديث:

- ألا تكفي تلك الاجتماعات السرية؟؟ يجب علينا وضع حدٍّ لهؤلاء القوم.

رمقه الحبقي بنظرةٍ خاويةٍ قبل أنْ يقول فرج:

- إنْ كنا سنبدأ، فعلينا أولاً تجميع مسلمي الأندلس تحت رايةٍ واحدةٍ في بادئ الأمر إنْ أمكن، أو جميع مسلمي غرناطة على الأقل. وثانيًا يجب علينا الحصول على العون الماديّ بالسلاح والرجال مِن سلطان المغرب السعدي والجزائر.

قاطعه الحبقي قائلاً:

- إنّ العلاقات متوترةٌ بين العثمانيين في الجزائر وسلطان المغرب منذ أيام سليمان القانونيّ -رحمه الله- والأجواء متوترةٌ بين الطرفيْن. ولكنْ، قد تواصلتُ مع بعض رجالنا المجاهدين في البحر والذي يُغيرُون على حاميات شواطئ بلنسية وألميرية، وقد يساعدوننا في توصيل بعض الرسائل إلى بيليرباي الجزائر الذي بدوره سيوصلها للسلطان سليم الثاني.

قال ابن جهور بشغف:

- عظيمٌ إذن! الحبقي سيتولّى مُراسلة ملوك الإسلام في المغرب والجزائر

والقسطنطينية، وأنتَ يا فرج فكَما نعلم أنّ علاقتك برجال جبال البُشرات قويةٌ فما عليك سوى أنْ تجمع أكبر قدرٍ ممكنٍ مِن الرجال مِن غرناطة وأحوازها. خوان فراندس، أنت من أعيان غرناطة ويُسمح لك السفر إلى بلنسية وهذا دورك؛ أنْ تتواصل مع مسلمي مرسية وبلنسية.

سكت لحظاتٍ، أشار بعدها إلى أحد الجالسين بقرب فرج قائلاً:

- محمد بن محمد بن داود، دورك أنت أهمّ الأدوار؛ فأنت كاتبنا وشاعرنا لا نريد منك سوى رسائلَ مفعمةٍ بالأمل تخطُّها بلغتنا ولغة أهلنا وسيقوم الحبقي بإرسالها إلى قادة الأمصار.

أومأ محمد برأسه وقد عَلَتْ وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ، قبل أنْ يقول فرج لفرناندو:

- وماذا عنك؟؟

قال بهدوئه المعتاد:

- أتذكرون تلك الجمعية التي أسّسناها لبناء بيمارستان لفقراء الأندلسيين بموافقةٍ وترخيصٍ مِن ذلك الوغد ديسا؟؟؟

سَرَتْ همهماتٌ بين الحضور قبل أنْ يكمل:

- منذ أنْ تمّ وَقْفُ العمل ومصادرة الأرض التي كنا سنقيم عليها البيمارستان ظلّت النقود التي جمعناها مُودَعةً لدى رئيس الجمعية، وسيتمُّ جمع المال والتواصل مع أعيان القرى والمدن على هذا النحو كجمعيةٍ تهتمّ بشئون الموريسكيين، منها نجمع المال اللازم وأيضًا التواصل مع رجالنا في كلّ البلدان.

*****

انتهى الاجتماع الذي أثلج صدر عبدالرحمن فكاد يقفز قلبُه خارج قفصه الصدري ليلتمس نسمات الثورة والحرية، نزل عن الشجرة مُزيلاً اللثام وغطاء الرأس وراح يخطو مُدَنْدِنًا موشّحًا كانت أمه تغنيه له عندما كان صغيرًا و... بتر الحروف وابتلع ما تبقّى مِن الكلمات عندما رأى وجهًا مألوفًا يقف بجوار منزلٍ قريبٍ محاولاً رؤية فرج الذي كان آخر الخارجين مِن المنزل، عرفه عبدالرحمن مِن الوهلة الأولى؛ كان أنطونيو المُكاري الذي ما إنْ رآه حتى قال بتلعثُمٍ:

- كيف حالك يا غارسيا؟؟

أجاب عبدالرحمن باقتضابٍ:

- بخير. ماذا تفعل هنا؟!

- أنا... كنـ...

بتر كلماته على إثر يد عبدالرحمن الذي أمسك برقبته بقوةٍ، تفاجأ منها أنطونيو الذي احتلّ قسمات وجهه خوفٌ عبّرت عنه عيناه الزائغتان، وعبدالرحمن يقول بصوتٍ يحمل نبرة التهديد والوعيد:

- إنْ رأيتك تتبع مولاي فرج بن فرج ستتمنّى أنّ أمّك لم تَلِدْك.

هزّ أنطونيو رأسه بفزعٍ وهو يحاول أنْ يقول شيئًا، عندما أتى صوت فرج مِن خلف ظهر عبدالرحمن فانتفض جسده وأرخى قبضته عن رقبة أنطونيو الذي ظلّ ذاهلاً مع كلمات فرج المقتضبة والقصيرة:

- ماذا يحدث؟

بعينيْن زائغتيْن وقلبٍ ينتفض مِن الرعب، حاول أنطونيو أنْ يقول شيئًا ما لمْ يخرج مِن حلقه، عندما قال عبدالرحمن وهو يُفْلِتُه مِن يده:

- لا شيء سيدي، لقد كان ذلك الرجل يتبعك.

تفاجأ فرج مِمّا قاله عبدالرحمن الذي رمق أنطونيو بنظرةٍ قاتلة جعلت هذا الأخير يرتعد قائلاً:

- أقسم لك يا سيدي أني كنتُ مارًّا من هنا و...

قاطعه فرج بصوتٍ حادٍّ بعث الرعب أكثر في أوصال أنطونيو:

- أُغربْ عن وجهي قبل أنْ آمُرَهُ بقطع رأسك.

ما إنْ سمع أنطونيو كلمات فرج حتى حملته ساقاه جريًا بعيدًا عن المكان، تَبعه عبدالرحمن بنظرةٍ حتى اختفى مع انحناء طريق الحارة، التفت إلى فرج الذي قال:

- ولماذ أنتَ تتبعني أيضًا؟!

خيّم صمت الموتى على عبدالرحمن، الذي عجز لسانه عن النطق من هول

المفاجأة، وفرج يقول بصوته الأجش:

- أعلم أنك أنتَ أيضًا كنت تراقبني منذ فترة.

لم يكنْ أمام عبدالرحمن سوى الصدق، فقال:

- نعم، وقد حضرت تقريبًا كلّ اجتماعاتكم و...

- ماذا تريد؟؟

- أنْ أكون أحد رجالكم.

- وما الذي يدفعني للثقة بك؟؟

- هذه.

قالها عبدالرحمن وهو يُخرِج خنجرًا ذا مقبضٍ ذهبيٍّ نُقِش عليه اسم رجلٍ لم يكن فرج يتوقّع أنْ يرى اسمه؛ اسم عدوٍّ طُويت صفحته منذ شهور؛ دون ريكاردو.

*****

أتى الشتاء مبكرًا هذه السنة؛ واكتست قمم الجبال باللون الأبيض وانهمر مطر الخير فوق مروج غرناطة التي كان أهلها يتمنّون أنْ يكون ذلك المطر بُشرى لأخبارٍ سارةٍ ولّى عهدهم بها منذ سنينَ، أمانيَ حملتها قلوبهم وخيالاً عانق عقولهم بحثًا عن حريةٍ مفقودةٍ منذ أكثر من سبعين عامًا. لكنّ الحال كان أسوأ بكثيرٍ من أمانيهم، فقد ازدادت قسوة ديوان التفتيش وهُدِّمت الحمامات ومُنع اللباس

العربيّ بالكامل، ارتفعت الضرائب ومُلئت السجون، وتناثرت جثث المسلمين في شوارع غرناطة وقراها، ولم تُفِدْ الأندلسيين أيّةُ شفاعةٍ وضاقت بهم سبل الحياة، أُلغيَ دينهم رسميًا منذ زمنٍ ولكنه بقي في قلوبهم وبين طيّات حياتهم، لم يَعُدْ في النفوس سوى ثورة، ثورة راحت أخبارها تسري بين الأندلسيين بسرِّيّةٍ مُشعلةً روح تفاؤلٍ كاد يُوأدُ في قلوبهم.

لم يكن عبدالرحمن أفضل حالاً من أهل المدينة؛ فمنذ أنْ رافق فرج بن فرج لم يَعُدْ يخرج في جولاته الليلية المعتادة إلا نادرًا، فلا يخلو يومٌ إلا ويحضر اجتماعات قادة الثورة، كان دوره أنْ يراقب الطريق ويؤمِّن خروجهم، وفي النهار أيضًا يلازم فرج في دكّانه بربض غمارة قرب حمام التاج الذي أُحرق وهُدِّمت أجزاءٌ منه منذ يومين، وكان لكلِّ فعلٍ ردُّ فعلٍ حيث كَثُرت هجمات المنفيين وقُطّاع الطرق على مصالح القشتاليين في القرى النائية لتأتي أخبارها بسرور سرعان ما يَقتُله قرارٌ جديدٌ لديوان التفتيش. كان يكفي أنْ تبتسم لتُتَّهم بالمروق من الدين ومساندة المُخرِّبين.

استيقظ عبدالرحمن على صوت عائشة التي كانت تطرق باب غرفته في منزل صفية، بكسلٍ نهض من فراشه وفتح لها الباب بعينيْن غالبهما النوم قائلاً:

- ماذا هناك؟؟

أجابته بسرعة:

- هناك شخصٌ يريدك خارج المنزل.

عقد حاجبيْه وعَبَرَ من أمامها بسرعةٍ لينزلَ عبر الدرج في طريقه إلى الباب حينما صاحت صفية مبتسمةً:

- صباح الخير يا ولدي.

أجابها بابتسامةٍ متوترةٍ، فتح بعدها الباب بحذرٍ، ذهب ريحُه عندما رأى السيد فرج بن فرج يقف بالباب مبتسمًا، فقال بسرعةٍ مستغربًا:

- تفضَّلْ إلى الداخل.

أجابه فرج ضاحكًا:

- لا داعي لذلك، فقد أتيتُ لك على عَجَلٍ وأريد منك أنْ تأتيَ خلفي إلى بيت فرانسيسكا الحمراء.

غمغم عبدالرحمن قائلاً:

- فرانسيسكا!!

قال ابن فرج:

- نعم هي مَن أقصد، أتعرف المنزل؟؟

- أليس ذلك المنزل القديم بربض الفخّارين بحارة اليهود؟؟

ابتسم ابن فرج وهو يقول راحلاً:

- اتبعني إلى هناك.

أغلق عبدالرحمن الباب وهو يحكّ رأسه، واستدار ليُفاجَأ بعمّته صفية التي وقفت مُتحفِّزةً قائلةً:

- مَن فرانسيسكا الحمراء هذه؟؟

تلعثم وهو يُشيح بوجهه رامقًا عائشة التي كانت تسقي أزهارها النضرة في صحن المنزل وتتابِعهم بنظراتها الهادئة، لم يَجِدْ بُدًّا مِن البوح فقال:

- إنّ ذلك الشخص يريد أنْ ينقل بعض الأشياء مِن منزلها إلى الرملة.

قاطعته بحدّةٍ:

- عبدالرحمن لا تكذبْ! أحوالك لم تَعُدْ تروق لي كثيرًا؛ تغيب عن المنزل حتى ساعات الصباح الأولى وتُصاحِب أناسًا لا نعرفهم، أصبحتَ شخصًا آخر يا ولدي.

اقتربت منه وهي تهمس:

- أترافِق الغانيات؟؟

انتفض جسده بقوّةٍ ليقول بفزعٍ مِن أنْ تكون سمعتها عائشة:

- عمّتي! ماذا تقولين؟

تركها وراح يصعد الدرج بسرعةٍ وهي تقول مِن خلفه:

- أتحسبُني لا أعرف ماذا يقول عنك أهل الحارة؟

ارتدى ملابسه على عَجَلٍ ليخرج تاركًا خلفه صفية تبكي وتنهال بالدعاء على

مَن هم سبب البلاء على البلاد والعباد، تُواسيها عائشة التي كانت تُريح قلبها بمعسول الكلام مُدافِعةً عن عبدالرحمن، الذي وصل إلى حارة الفخّارين الخالية من المارّة، تقدَّم ببطءٍ نحو منزل فرانسيسكا المشبوه، ذلك المنزل الذي فتحته إحدى اليهوديات المُتَنصِّرات والتي سمح لها حاكم المدينة بممارسة علمها تحت ترخيص وأعين السلطات.

طرق باب المنزل عدّة طرقاتٍ قبل أنْ تفتح له امرأةٌ تعدّت الأربعين من عمرها، ذات شعرٍ أحمرَ ناريٍّ ووجهٍ مليحٍ يحمل شامةً في خدِّها الأيمن زادتها شذوذًا، استقبلته بابتسامةٍ عريضةٍ لا تخلو من إغراءٍ لم يداعب قلبه الموصد، أدخلته ليعبُر عبر فناء المنزل المُكدَّس بفتياتٍ مِن مختلف البلدان تعرَّت أجزاءٌ ليست بقليلةٍ مِن أجسادهنّ.

وقف ينظر إليهنّ بحياءٍ عندما باغتته قائلةً بصوتٍ عالٍ لتُسمِع ذلك الرجل الجالس بالقرب مِن أحدى الفتيات والذي كان يرمقه منذ دخوله:

- أعلم طلبك يا سيد غارسيا، تفضَّلْ إلى الأعلى وستجد ما يطيب لك.

تبِعها عبدالرحمن بصمتٍ تحت نظر الجالسين إلى غرفةٍ ما إنْ فُتِحَ بابُها حتى رأى قادة الثورة في الداخل، رحّبوا به بحفاوةٍ، كان يعرفُهم ويعرف أسماءهم ولكنّه اللقاء الأول له معهم جميعًا، لحظاتٌ مرّت قبل أنْ يقول العجوز هرناندو بن جهور الصغير:

- كيف حالك يا ولدي؟؟

بذهولٍ أومأ عبدالرحمن برأسه وهرناندو يُكمِل:

- لقد قصّ علينا ابن فرج عنك وعن شجاعتك وإقدامك، وأظنُّ أنه حان الوقت لبدء العمل الجادّ.

أدار عبدالرحمن وجهه بالحضور ليلتقي وجهه بوجه ذلك الشاب فرناندو دي قرطبة، الذي ابتسم له بدوره قائلاً:

- أرى أنّ المفاجأة سلبت عقلك.

هنا قرّر أنْ يُطلِق للسانه العنان ليبدأ في الحديث قائلاً:

- إنّ ثقتكم هذه شيءٌ أعتزُّ به، وكم أنا فخورٌ بتواجدي معكم.

قال ابن جهور :

- سَنُسْنِدُ لك عمليةً بالغة الخطورة، قد لا تعود منها، فعليك الحذر، فجواسيس الديوان في كلِّ مكانٍ.

قال عبدالرحمن بثقة:

- أدعو الله تعالى أنْ يوفّقني لهذا العمل، ولكنْ ما هي طبيعة تلك المهمة؟

هنا تحدّث الحبقي الذي كان يرمقه طوال الوقت:

- الآن أنت تعلم وجوهنا جميعًا وأسماءنا فاحذر أنْ تقع حيًا بأيديهم، فما ستحملِه معك في رحلتك غايةٌ في الخطورة، وقد يعرِّضك للقتل بعد التعذيب على أيدي رهبان التفتيش.

أخرج مِن ذراع قميصه لفافتيْن مِن ورقٍ ليعطِيَهم لعبدالرحمن، وهو يتابع:

- ستذهب إلى المنكب مع بزوغ الفجر، قد تستغرق رحلتك يوميْن على الأكثر. تجنَّبْ الطرق الرئيسية، فكما تعلم أنّ هناك حظرٌ على أهل غرناطة مِن السفر إلى أيِّ إقليمٍ آخر، موعدك هناك بعد ليلةٍ مِن وقتنا هذا، وسيوافق صباح الجمعة بإذن الله. سينتظرك على شاطئ المنكب الشرقيِّ رجلٌ ستسلِّمه تلك الرسائل وتعود أدراجك. احذرْ أنْ تأمَنَ للغرباء وستعرفه بعمامةٍ تحمِلُ زمرّدةً زرقاء، يُدعى مأمون نور الدين توران.

*****

خرج عبدالرحمن مِن منزل صفية بعد أنْ تركها تولول وتدمع وعائشة تواسيها كالعادة، كانت تظنُّ أنه قد تضايق مِن حديثها عن الغانيات اللواتي اتهمته بأنه يرافقهنّ، تعلّل لها بأنّ لديه عملٌ خارج المدينة، لم تصدِّقه خوفًا مِن أنْ يغيب مثل بِكْرِها محمد الذي انقطعت رسائله منذ أشهرٍ، ترك بيَدِ عائشة قدرًا مِن المال وذهب إلى ابن فرج الذي أعطاه بغلةً قويةً وبعض الزاد.

تحت سماءٍ ملبَّدةٍ بغيومٍ حجبت ضوء قمرٍ جاهدٍ في إنارة الطريق الوعرة، بدأ رحلته إلى المنكب. دون توقُّفٍ أخذ يطوي الطريق، لم يتوقَّف إلا مرةً واحدةً لِيُريح بغلته ويروي ظمأها مِن إحدى برك المياه العذبة، رقد بعدها تحت نخلةٍ وحيدةٍ وسط أطلال منزلٍ قديمٍ هجره أهله منذ زمنٍ. ظلَّ راقدًا لفترةٍ راجعٍ فيها

كلّ تفاصيل حياته وقصص أبيه عن مجد الأندلس وعزّتها وكيف كانت قِبْلَة العلم والنور في أوروبا، أخذ يردّدُ بيتًا من قصيدةٍ حفظها عن ظهر قلب، متأملاً أجزاء البيت المهجور:

وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شان.

كان حال المنزل كحال الأندلس؛ بعدما كانت عامرةً بالثراء والرخاء أصبحت خاويةً إلّا من القتل والاضطهاد لكلّ ما هو إسلاميٌّ، أخذ يُمَنّي نفسه بنجاح الثورة المرتقبة وبأنْ تعود عزة الأندلس ومجدها مرةً أخرى وأنْ يعود الناس مرةً أخرى يدًا واحدةً تَطْرُقُ الحديد، قال لنفسه:

- «سيساعدنا العثمانيون ويأتينا المدد من المغرب كما هو الحال كلّ مرة، سيأتي يومٌ يبرز فيه رجلٌ مثل يوسف بن تاشفين لينصر الإسلام وأهله وسيحكم الأندلس المسلمون من قرطبة العزّة كما فعل مَن سُمّيت على اسمه عبدالرحمن الداخل، صقر قريش الأموي.»

فاض قلبه وراحت الإثارة تغزوه لينهض ممتطيًا بغلته وينطلق مرةً أخرى إلى مقصده، وبقي السؤال يدور في رأسه: هل ستشرق شمسنا من جديد؟؟

*****

حمل قاربٌ صغيرٌ بضع رجالٍ من بينهم مأمون، الذي كان يجلس في مقدمة القارب مراقبًا الشاطئ المهجور الذي يقع بين مرتفعيْن جبليين، ما إنْ اقترب

القارب من الشاطئ حتى قفز أربعة رجالٍ ممسكون بحبالٍ قويةٍ، راحوا يسحبون القارب وما إنْ لامس الرمال حتى قفز منه مأمون لتَطأ قدماه الرمال الرطبة.دقائقُ مرّتْ حتى لاح في نهاية الممرّ الجبليّ المؤدي إلى الشاطئ عبدالرحمن راكبًا بغلته، أَشْهَرَ الرجال سيوفهم أمام عينيْ راكب البغلة، أخذ يقترب منهم وما إنْ صار على مقربةٍ منهم حتى قال بهدوءٍ حَذِرٍ:

- السلام عليكم ورحمة الله، الحبقي يُقرؤُكم السلام.

ابتسم مأمون وهو يشير إلى رجاله بأنْ يُخفضوا أسلحتهم مُتقدّمًا بعد ذلك لمصافحة عبدالرحمن الذي ترجّل عن ظهر دابّته وهو يقول:

- أخوكم عبدالرحمن بن عمر بن الوليد الفهريّ، من غرناطة.

حيّاه الرجال برؤوسهم دون أنْ ينطقوا كلمةً، بينما قال مأمون بعربيةٍ غلب عليه اللكنة التركية:

- مرحبًا بك أيها الشجاع، ماذا لديك لنا؟؟

فتح عبدالرحمن جعبته ليُخرج منها رسالتيْن، سلّمَهُما إلى مأمون وهو يقول:

- تلك إلى بيليرباي الجزائر، وتلك إلى سلطان المغرب.

تفحّصهما مأمون قبل أنْ يشير لأحد الرجال فيأتي برسالتيْن ليعطيهما لعبد الرحمن قائلاً:

- تلك إلى مولاي فرج بن فرج وفراندس الحبقي، أمّا الأخرى فهي وصيةٌ إلى

أهل صديق لنا استُشهِد في آخر معاركنا مع القشتاليين، ستسلّم تلك الرسالة إلى شخصٍ يُدعى خوان غارسيا بن الوليد يسكن بالقرب من البيازيين بغرناطة قد تكون تعرفه....؟!!

لم يتلقَّ إجابةً مِن عبدالرحمن الذي سقط قلبه في هوّةٍ عميقةٍ لا قاع لها، راح يهوي مُتذكِّرًا آخر لقاءٍ جمع بينه وبين صديق عمره الوحيد محمد الذي أبى أنْ يظلّ مع القاعدين ينتظر دوره في أنْ يرتدي ملابس الذلّ والعار ويشار إليه كأنّه نكرةٌ في وطنٍ أصبح مُلكًا لغيرهم مِن مهاجرين من شتى أنحاء أوروبا أتت بهم سلطات الاحتلال لتوطينهم وتمكينهم بل وليكونوا أسيادهم وهم أصحاب الأرض! إنّه محمد الذي رحل عن المدينة تاركًا أمًّا نال الدهر مِن عقلها وأصبح فؤادها مشغولاً بولدٍ لم يَعُدْ ولن يعود.

- أتعرفه؟؟

لم يُجِبْ وهو ينظر إليه بعينيْن دامعتيْن أثارتا فضول مأمون الذي اقترب منه قائلاً:

- عبدالرحمن بن عمر بن الوليد! كيف لم ألحظ تشابه اسمك مع ذلك الاسم النصراني....

قاطعه عبدالرحمن قائلاً وقد امتلك رباطة جأشه:

- إنّه ابن عمّتي وأخي وصديقي.

سَرَتْ همهماتٌ بين الرجال فالتفت إليهم مأمون رامقًا إياهم قبل أنْ يعود بنظره

إلى عبدالرحمن قائلاً:

- إنها إرادة الله، ونحسبه عند الله من الشهداء، فقد كان شجاعًا وقد مات رحمه الله مُقبلاً لا مُدبرًا. لم أرَ لشجاعته مثيلاً قط.

- أين مات وأين دُفِن؟؟

وضع مأمون يده على كتف عبدالرحمن الذي راح الحزن يفيض من عينيْه دون دموعٍ:

- لقد استُشهِد على شواطئ ألميرية منذ شهريْن، ودُفِن في الجزائر وحضر جنازته البيليرباي وأعيان المدينة.

أنهيا حديثهما الكئيب ليذهب كلّ منهما حاملاً أكثر ممّا قد تخيّل أنْ يحمله، فعبد الرحمن امتطى بغلته التي راحت تتهادى على الطريق الوعرة بهدوءٍ خوفًا مِن أنْ تُزعجه وتُخرجه مِن حزنه العميق؛ كيف سيُخبر صفية؟ وهل سيتحمّل قلبها ذلك الخبر؟ أمّا قلبه هو فَرَاحَ يفيض بلونٍ أسودَ قاتمٍ كان مصدره الكراهية لكلِّ ما هو قشتالي، وعندما عبر ذلك المنحدر المؤدي إلى المنكب وبرزت أضواؤها من بعيدٍ ترك العنان لعينيْه فانسابت منها الدموع حسرةً وألمًا على محمد الذي طلب الشهادة فنالها، يذكر حينما كانوا صغارًا ويحفظون القرآن سرًا ويذهبون إلى منزل مولاي صالح ليُفقِّهَهُم في دينٍ انتهى رسميًا من شبه الجزيرة الأيبيرية، يذكر حينما قصَّ عليهم عن أسد الله حمزة سيِّد الشهداء، حينها قال محمد:

- هل كان أسدًا حقًّا؟

ضحك مولاي صالح قائلاً:

- إنّ مَن يُدافع عن الحقّ وينصُر المظلوم وينتصر لدين الله ورسوله فهو أسدٌ مِن أُسود الله.

أمّا هناك على متن المحروسة، فكان مأمون يَنْفُض عن رأسه آثار تلك المقابلة غير المتوقعة مع عبدالرحمن الذي أَمَلَ أنْ يراه مرةً أخرى وأنْ يترافقا كما كان حاله مع محمد، وأنْ ينتصرا مِن أجل الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه أو يلحقا بهم.

*****

عاد عبد الرحمن ولم يَعُدْ، كان شخصًا آخر غير ذلك الذي عهده الناس؛ يحبُّ الضحك والمرح، لم يكنْ له أصدقاءُ سوى هؤلاء الأعيان المجهولين وعائشة التي تنوي هي خطبتها له تريد أنْ ترى أولاده يلهون في منزلٍ قد يُصادَر منهم في أيّ وقتٍ وتحت أيّ مسمًى. مالها غرناطة؟ ليست هي غرناطة الصبا؛ السهر على ضفاف شنيل والركض في الحارات الضيقة، نخلةٌ قرب المنزل تثمر رطبًا جَنيًّا! يا حالُ ما بدّلك للأسوأ؟ أتبكي حال غرناطة أم تبكي أندلسًا قُطعت أوصاله أم تبكي ولدًا انشغل قلبها بغيابه ولم يكدْ يكفيه حتى يحمل هموم ابنٍ لم تُنجبه بطنها، هكذا كان حال صفية كلّما جلست وحيدةً تتأمّل وجهه الشاحب وسهره الدائم.

تُرى ما بك يا ولدي؟ ؟؟ أأصابك مسٌّ أم سحرَتْك قشتالية؟؟؟

أمّا عائشة، فكانت تعلم سرّه الذي أخفته هي الأخرى عن صفية، كانت صندوق أسراره، كيف لا وهو مَن أنقذها مِن أنياب ضبع أنتابه الصرع؟! كان يخبرها باجتماعاته والحديث عن الثورة التي ستأتي يومًا لتُعيد أركان دولة الإسلام في الأندلس، أصبحت أخته فتبوح له بما يضيق به صدرها عندما تتذكر ما حدث لعائلتها هناك في دانية التي افتقدت شاطِئها وأشجار الزيتون اللامتناهية، تحدّثه عن مراقبتها للطريق ريثما ينتهي أبوها وإخوتها من الصلاة لتأخذ بعد أنْ ينتهوا دورها هي وأمها في الصلاة وتراقب إحدى أخواتها الطريق، تُرى أين هم الآن؟؟

تردَّدَ ذلك السؤال في رأسها، حاولت مرارًا أنْ تبحث عنهم في السوق حينما تخرج لتقضي ما نَقَصَ مِن خزين المنزل مِن دقيق وزيتِ زيتونٍ يذكِّرها بموسم الحصاد حينما يجتمع أهالي المرج وتملأ أغانيهم الحقول، حتى الغناء حرّموه علينا بلغتنا التي بالكاد نعرفها! لماذا يفعلون بنا هذا؟؟ تَذَكَّرْ حديث والدها حينما سألته هذا السؤال يومًا وكانت إجابته:

- والله يا بُنيّتي، لم يكن هذا حالنا يومًا وما كان يخطر في عقول فاتحي تلك البلاد أنْ يحدث هذا؛ فقد جاء الإسلام إلى هنا ليضيء ظلمة الجزيرة المُوحشة ودخل أجدادنا في الإسلام طواعيةً وعاشت الأندلس عصورًا زاهيةً عاش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود بسلامٍ ووُدٍّ وتراحم. ولكنْ تَفَرُّقَنا وضَعْفَنا جعل بأسنا بيننا شديدًا حتى أصبح الوضع سيئًا للغاية. الإسلام دين رحمة ومحمد رحمةٌ للعالمين، لم نهدمْ كنيسةً أو معبدًا وما حرقنا ولا هدمْنا دارًا أو حقلاً، وما غَصَبْنا أحدًا على ديننا كما يفعلون هم.

تتذكّر بكاءه ويديْه التي حاولت مسح خديْه دون أنْ تراه هي، ليُكمل بعد ذلك:

- أتعلمين أنّ حالنا في أراغون أخفُّ وطأةً ممّا يحدث في قشتالة وغرناطة؟ فعلى الأقل، نحن ندفع لهم وسياسات الملك معنا تختلف عنهم؛ هنا نبلاء استولوا على أراضينا منذ زمنٍ بعيدٍ لأكثر من مائتي عام، أمّا هم فكانوا قلعتنا الحصينة نفتخر بهم برغم حُكّامهم الظلمة والخونة، ولكنّ غرناطة ظلّت أختنا الكبرى وإشبيلية وقرطبة، كم أنتِ كبيرةٌ عليهم يا قرطبة!

هكذا كانت كلماته تدوّي في أذنها كلّما تذكّرت أباها الذي يشبه عبدالرحمن بحكمته وابتسامته الهادئة وهدوئه عندما يطالع تلك الكتب المحفوظة بقطع قماشٍ داخل حوض الأزهار، كتب عليها القدر أنْ تكون أختًا له وأنْ يكون أخًا لها، لا تعرف في العالم سوى صفية وهو الذي حاول مساعدتها في العثور على أختيْها والذي حاول أنْ يعرف مصيرهما منذ قبض ثمنهما ريكاردو، علم بعد ذلك أنّ إحداهما أُرسلتْ إلى جيان والأخرى لم يستدلّ على مكانها، ليوقد نارًا جديدةً في قلبها لا يقطعها سوى حديث صفية التي تُضحكها وتُداعبُها وتمشّط لها شعرها الأسود المنسدل كحرير بلنسية. وما بين ليلةٍ وضحاها أصبح هذا حالها، لم تكن أفضل من ذلك مِن قبل.

*****

(٣)

البشائر

بعد شهرين....

جاءت الأجوبة مِن الجزائر والمغرب تحمل البشائر بالمساعدة والمساندة، حيث أرسل سلطان المغرب رسالةً تحمل وعدًا بالنجدة عندما تُعلَن الثورة، أمّا بيلرباي الجزائر فقام بإرسال المال والسلاح مع وعدٍ بنزول فِرَقٍ مُساندةٍ على شواطئ الأندلس مع إعلان الثورة، كما وصل عددٌ مِن المتطوعين للجهاد لاسترداد أراضي الأندلس المحتلة وكان مِن بينهم عددٌ من الأتراك والمغاربة، الذين تعمّقوا في قرى وجبال البشرات النائية.

شجّعت تلك المبادرات والمُكاتبات وهؤلاء المتطوعين روح زعماء ومنظمي الثورة، قبل أنْ تأتي الأخبار من بلنسية ومرسية برفض المشاركة في الثورة خوفًا

مِن فشلها، وراحت تتناقل ألسنتهم الحديث عن الأسطول العثمانيّ القادم عبر البحر لنجدة الأندلس عبر شواطئ بلنسية ومرسية وحتى برشلونة.

أمّا في غرناطة، فأخذت الإشاعات تسري بين الحارات والأسواق بالحديث عن ثورةٍ سيقوم بها الموريسكيون، في الوقت الذي تنزل به قوات الدولة العليّة القادمة مِن إسلامبول، لكنّ تلك الأحاديث لم يُصدّقها في المدينة سوى اثنيْن؛ الرئيس ديسا الذي ما إنْ يُذكَر ذلك أمامه حتى يبكي مِن الضحك والحاكم العام الماركيز دي مندخار الذي كان يجلس دومًا مع أعيان الأندلسيين لسماع شكواهم ومُسامَرتِهم.

وحتى تَبعُد الشبهات، تقدَّم الحبقي على رأس وفدٍ إلى الرئيس ديسا لتقديم شكوى عن هذه الإشاعات، وعرض أنْ يضعوا عنده ثلاثمائة رهينة كبرهانٍ لصدق نيّتِهم، وبعد مقابلة الوفد لديسا أرسل الحبقي إلى عبدالرحمن يخبره أنْ يأتي على عَجَلٍ في منزل فرانيسيكا الحمراء، وأمره أنْ يمرّ على باقي المجموعة ويخبرهم بالموعد الجديد لاجتماعهم الهامّ والثاني خلال السنة الجديدة.

*****

رياحٌ باردةٌ راحت تغزو البيازين وأزقّتها الخالية مِن المارّة إلا مِن عبدالرحمن الذي كان في طريقه إلى اجتماع زعماء الثورة -كما كان يُسمّيهم-، سار عبر حاراتٍ متشابكةٍ قبل أنْ يتوقّف ناظرًا خلفه ليطرُق بعد ذلك باب منزلٍ كان قد

توقّف أمامه، فتح الباب ابن فرج الذي رحّب به وهو يقول:

- ما الذي أخَّرك هكذا؟؟

- لا شيء، فقط كنت أتأكّد مِن خُلُوِّ الطريق.

ربّت فرج على كتفه وهو يدخل معه إلى صحن الدار ثم إلى إحدى الغرف الجانبية التي كانت تحوي وجوهًا كان قد ألفها وصار صديقًا مقربًا لهم جميعًا؛ فمنذ عودته من المنكب وما تبعها من عملياتٍ، كان هو سلاحهم البتار ورجل الصعاب.

جلس عبدالرحمن بين هرناندو بن جهور والحبقي، الذي كالعادة كان يبدأ الحديث قائلاً:

- ألم يَحِنْ بعد وقت الثورة؟؟

لم يفهم عبدالرحمن وبعض الحضور سؤاله الاستنكاريّ، بينما أكمل بصوته الهادئ:

- كما تعلمون فإنّ الوقت ليس في صالحنا.

قالها وهو ينظر في وجوههم الواجمة، لحظاتٌ مِن الصمت أخذت فيها عقول الجميع دراسة الأمر، ليبدأ فرج بن فرج الحديث:

- أرى في وجوه بعضكم القلق والخوف، أعلموا أنّ مَن لا يضطرب قلبه فهناك شكٌّ في إيمانه بما نحن مقدمون عليه فوالله إننا ما نفعل ذلك إلا لوجهه

الكريم، فما هي إلا حياةٌ واحدةٌ فلْنُمْضِها في سبيل الله ونصرة دينه الذي حُرِمنا منه غصبًا وقهرًا.

كان ينظر في أعين كلِّ واحدٍ منهم وهو يكمل بصوتٍ ذي رخامةٍ لامس القلوب وكأنه ذبابةُ سيفٍ دمشقيٍّ صُقِلَ على أيدي أمهر الحدادين، وتحت وطأة كلماته القوية لانت العيون ليذرف ابن جهور دمعةً انسابتْ على خدّه لتبلل لحيةً طالها مشيبٌ قد احتلَّها منذ زمن، أمّا عبدالرحمن فقد تملّكته حماسةٌ بلغت عنان السماء وابن فرج يقول:

- لقد كان أجدادنا فاتحين مجاهدين؛ فوَرِثَهُم جِبِلَّةٌ آخرون أُترِفوا في الشهوات وظنَّ كلٌّ منهم أنه من الخالدين، وقد وَالَاهُم بعض مَن أحبُّوا الدنيا ونسُوا أمر الآخرة، فابتلانا الله وابتلى الأندلس بالذلِّ والهوان فكان بأسُ عدوِّنا وتنكيله بنا شديدًا وابتُلينا في ديننا، وبدلًا من أنْ ندافع عن ديننا الذي هو حياتنا، ركن بعضٌ منّا إليهم وصاروا جواسيسَ وأَعْيُنَ العدو علينا، فإنْ كُنّا نريد أنْ تنجح ثورتنا ونعيد عزَّ ديار الإسلام في الأندلس، فعلينا بالكتمان والسرعة في إيقاد نار الثورة.

سكت ليُضفي سكوته على المكان رهبةً وسكون مقابرَ قد هُجِرت من آلاف السنين،دقائقُ مرّت والكلُّ صامتٌ، ثم دوّى صوت الشاب هرناندو دي قرطبة أصغر الحاضرين سنًّا وأنبلهم ملبسًا ومظهرًا:

- إذن، كلّما أسرعنا كان الأمر أفضل، فماذا تقترحون؟؟

مرةً أخرى سرى الصمت بين الحضور لحظاتٍ قبل أنْ يقول الحبقي:

- أقترح أنْ يكون يوم عيدهم، فالكلُّ سيكون لاهيًا بحضور الصلوات وعندها...

قاطعه صوت هرناندو مرةً أخرى قائلًا بحزم:

- إذن، سيكون يوم الخميس المقدَّس في الرابع عشر من نيسان المقبل، أيْ بعد شهريْن مِن الآن، فما رأيكم؟

كانت الوجوه مازالت واجمةً إلا وجه فرج بن فرج الذي أومأ برأسه مبتسمًا وقد كان وجهه مستبشرًا بكلام الشاب الذي أبهر الجميع بلباقته وحسن حديثه واختياراته، لم يكن الرفض موجودًا بين الحضور فقد ذاب كالملح في الماء، وافق الجميع وقد أُوكِل لكلِّ فردٍ منهم مهمة إبلاغ منطقةٍ مِن مناطق الأندلس وحواضرها والتواصل مع بقية الزعماء في المدن الأخرى.

انتهى الاجتماع ليذهب كلٌّ في طريقه، بينما طلب فرج من عبدالرحمن أنْ يبقى لأمرٍ ما، خرج فرج لدقائق قبل أنْ يعود حاملًا طبقًا فضيًّا به بعض ثمرات الموز والبرتقال قائلًا بصوتٍ هادئٍ:

- كيف حالك يا ولدي؟؟

ابتسم عبدالرحمن لكلماته التي ذكّرته بوالده الذي فقده منذ أشهرٍ، فقال بشجنٍ:

- الحمد لله على كل شيء.

جلس فرج إلى جواره قائلًا:

- لماذا لم تتزوج إلى الآن؟

ضحك عبدالرحمن قبل أنْ يقول:

- يبدو أنك تحدّثتَ مع عمتي.

أكمل ضحكاته وفرج ينظر إليه باستغراب قائلاً:

- وكيف لي أنْ أقابل عمّتك؟ يا بُنيّ، لو كان عندي بناتٌ لزوّجتُك أحداهنّ فكما تعلم لم يرزقني الله بغير ولدٍ هاجر مع زوجته وأهلها إلى تونس وانقطعت أخبارهم مع الحظر المفروض علينا.

سكت لبضع لحظاتٍ وهو ينظر إلى وجه عبدالرحمن، ثم قال:

- عندما كنت أصغر من سنّك تزوجت.

- لم يكن الحال كما هو الآن.

- لا تختلق الأعذار، أهناك محبوبةٌ تشغل عقلك؟؟

- لم يتبقَّ منها سوى شرفةٍ ذبلت أزهارها ومنزلٍ هجره سُكّانُه.

- إذن، فأنت تعشقُها رغم الهجر، أعلمُ أنّها قد رحلت وقد فاز بها غيرك ولن تعود، إنّ مَن تُوقِفُ ناعورة حياتك...

قاطعه عبدالرحمن قائلاً:

- ليس الأمر هكذا، ولكن منْ سأتزوج؟ فكما تعلم إنّ العائلات صارت تتوجس خيفةً مِن الزواج لأنّ هذا تنصَّرَ وصار يأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر وهذا مازال على إسلامه، صار الكلُّ يخاف وأيضًا تعنُّتَ الآباء يجعل مِن الأمر شبه

مستحيلٍ.

- هذه ليست حجةً، لماذا لا تتزوج من عائشة؟

ضحك مرةً ثانيةً بهستيريةٍ أكثر، قبل أنْ يتدارك أمره قائلاً:

- أقسم أنك تحدثت مع عمّتي.

- استمعْ يا عبدالرحمن، سأتحدث مع خوان فراندس غدًا لخطبة ابنته ثريا.

تفاجأ عبدالرحمن وحاول أنْ يقول شيئًا ما، عندما قاطعه فرج ليُكمل:

- لا تقلق، سأتدبّر كلَّ شيءٍ. أخبرْ عمّتك لتبدأ في التحضير ودعوة أهل الحارة لبدء مراسم العرس.

*****

خرج عبدالرحمن حاملاً مفاجأةً أثقلت قدميْه، فراح يمشي ببطءٍ مُحاولاً فهم الأمر، ولكنه أفاق مِن شروده عندما سمع حثيث خطواتٍ خلفه، التفت فلم يجد في الحارة الخاوية سوى قطٍّ راح يتبع خياله مُحاولاً الإمساك به، لم يبالِ وأكمل طريقه نحو منزله وفي الطريق مرَّ بشُرْفَتِها، رفع عينيْه كالعادة وقف مبتسمًا تخيّل عينيْها تغزو خلجات قلبه الذي حدَّث طيفها: «اشتقت لك يا ورد البساتين، اشتقت لرؤية وجهك المنير.» أفاق ليجد نفسه محدّقًا بشرفتها الخالية، آااه من أبيْها! لو لم يرفض لكانت الآن زوجته ويحمل هو أطفالها! أخذ نفسًا عميقًا قبل

أنْ يمضي في طريقه، وقبل أنْ ينعطف إلى مدخل حارته التفت ليرمُق شُرفَتها للمرة الأخيرة ومضى في طريقه.

دلف إلى الدار بهدوءٍ حتى لا يوقظ صفية فتبدأ تلك القصيدة التي لا تَمَلُّ منها، عبر الفناء نحو الدرج وجاء صوتها ليُفزِعه وتتسمَّر قدماه قبل أنْ يخطو إلى أولى الدرجات:

- عبدالرحمن.

التفت ببطءٍ وهو يتمتم بكلماتٍ غير مفهومةٍ حينما قالت له:

- هل تحدَّثتَ مع فرج؟؟

ابتسم ابتسامة ذئبٍ ظفر بفريسته، فقد اتّضح الأمر الآن وأصبح جليًا أمام عينيْه، تقدَّم بضع خطواتٍ نحوها ليجلس تحت قدميها قائلاً:

- إذن، فأنتِ مَن خطبتِ لي ثريا بنت خوان.

ربَّتتْ على رأسه حانيةً وهي تقول:

- يا ولدي، رأيتك تعامل عائشة كأختٍ لك، وهي أيضًا قالت لي ذلك، وقد أرحل في القريب وأريد أنْ أطمئنّ عليكما، فكما تعلم محمد مازال في تطوان وأظن أنه تزوَّج وأنجب.

حديثُها عن محمد جعله ينتفض بين ذراعيْها، حاول أنْ يمنع قلبه عن الخفقان حتى لا تسمع طرقاته القوية، بينما كانت تكمل:

- كما أني أريد أنْ أحمل طفلك، أَوَلَيْسَ هذا مِن حقّي؟!

طَبَعَ قُبْلَةً على يدها وهو ينهض قائلاً:

- كما تشائين يا صفية، كما تشائين.

تركها وصعد درجات السلم وصوتها يأتي مِن خلفه:

- يا عاااااائشة استيقظي.

لَكَمْ أحبَّها كأمِّه التي فقدها مبكِّرًا! دخل غرفته وألقى جسده على الفراش وراح في سباتٍ عميقٍ لم يَذُقْ مثله مِن قبل.

استيقظ علي صوت جلبةٍ أحدثَتْها عائشة التي كانت تمسح أرض الدار بينما جلست صفية تُعِدُّ من أصناف الأكل ما لذَّ وطاب استعدادًا لاستقبال جيرانها الذين دَعَتْهُم مسبقًا لحضور مأدبة أعدَّتها خصيصًا لتزفَّ لهم خبر الخطبة، نزل عبر الدرج متثاقلاً عندما باغتته عائشة قائلةً:

- صباح الخير يا عريسنا.

ضحك قائلاً:

- صباح الخير عائشة، متى سنفرح بك أنتِ أيضًا؟

تورَّد وجهها بخجلٍ وأدارت وجهها وصوت صفية يأتي مِن الداخل:

- عائشة، عودي إلى عملك ودَعِي هذا الناعس وشأنه، فلا وقت لدينا.

أجابها عبدالرحمن صائحًا:

- يا عمّتي، هل لديك فطورٌ لي؟!

- اذهب يا عبدالرحمن، فنحن مشغولتان.

تبادل النظرات مع عائشة الضاحكة وقد زادت إشراقًا وهي تقول:

- لا مكان لك هنا اليوم، ستأتي نساء الحي للمباركة والذهاب إلى بيت العروس سويًا.

أومأ برأسه دون أنْ ينطق بأيٍّ كلمة، عدَّل هندامه وفتح الباب ليجده أمامه، تفاجأ الاثنان، ولكنّ عبدالرحمن لم يترك المفاجأة تأخذ نصيبها من عقله فأمسك بعنق أنطونيو المُكاري بعنفٍ قائلاً:

- ماذا تفعل هنا؟؟

- كنتُ مارًا و...

قاطعه عبدالرحمن بحدّة:

- وماذا؟؟ أتتلصّص على المنازل يا هذا؟؟

فأجاب أنطونيو مذعورًا:

- لا! أقسم لك يا خوان أنّي... أني...

أفلته عبدالرحمن وهو يقول بحزم:

- المرة القادمة سأقتلك إنْ رأيتك حتى في طريقي. أتفهم ما أقول؟ أم أقوله بلغة أسيادك؟؟

ونطق كلماته السابقة مرةً ثانيةً بالقشتالية التي لم يكن أنطونيو بحاجةٍ إلى أنْ يسمعها فقد فهمها حينما نطق بها عبدالرحمن أول مرة، طوال الطريق إلى القيصرية أخذ عبدالرحمن يفكر بذلك الشخص المدعو أنطونيو، ماذا! يريد؟؟ وهل يعرف أكثر من اللازم؟؟؟ يجب إيقاف ذلك الجاسوس عند حدوده التي اخترق المسموح منها.

*****

أيامٌ مرّتْ وبيوت الحارة عامرةٌ بزخم الزفاف، الذي أبهج أرواحهم المكتئبة، نسماتٌ من الماضي عاشوها في ظلّ توجسٍ وريبةٍ من أنْ يسمع موشّحاتهم الخافتة أحدُ أعين الاحتلال، النساء يتجمعنَ في بيت صفية والرجال يتجوّلون في الحارة وعلى الأسطح مراقبين إنْ كان رجال التحقيق أو جواسيسهم بالقرب، أجْهشَ الكثير منهم بالبكاء حينما ترامى إلى مسامعهم صوت عائشة التي كانت تنشد بصوتٍ عذبٍ بعض أبياتٍ من شعر ابن خفاجة البلنسي:

عاثتْ بساحتــك العِـــدا يا دارُ

ومَحَا مَحاسنَك البِـلى والنــار

أرضٌ تقاذفتِ الخطوبُ بأهلها

وتمخضتْ بخرابها الأقـــــدارُ

كتبت يدُ الحدثانِ في عَرصاتها

«لا أنتِ أنتِ ولا الديـارُ ديارُ».

كان لوقع الأبيات في حلقاتهم أثرٌ بالغٌ، فراحوا يتحدَّثون عن أخبار عن ثورة قريبةٍ وعن معارك فيليب في فرنسا مع العثمانيين، عُقد القِران ببيت خوان يوم السبت مساءً بسريّة. وفي اليوم التالي، ذهب الجمع إلى كنيسة سان سلفادور وهذه المرة لإعلان مراسم الزواج على دين النصارى، وقف عبدالرحمن وثريا أمام القسّ الذي أخذ يتلو بالقشتالية بعض الكلمات قبل أنْ يحوّل رأسه إلى عبدالرحمن قائلاً:

- خوان غارسيا، هل تَقْبَلُ إيزابيلا خوان فراندس زوجةً لك؟

بفتورٍ يواري حممًا راحت تفور بقلبه قال:

- نعم.

- إيزابيلا خوان، هل تقبلين خوان غارسيا زوجًا لك؟

بوجهٍ باسمٍ مشرقٍ وصوتٍ ناعمٍ قالت:

- نعم أقبل.

انتهت مراسم الزفاف، وداخل بيت عبدالرحمن الذي كانت رائحة الورود المنثورة على بركة الماء التي تتوسّط الفناء تبعث في القلب مزيجًا أسطوريًا من الحب

والأمان، نعم! أمانٌ وسَكينةٌ ورحمةٌ، توضّأ وصلّى وصَلّتْ ثريا بخمارٍ أبيضَ خلفه، كانت تنهض عندما التفتَ هو لتتقابل عيناهما دون مُراقبٍ لأوّل مرة، لم يكن يعلم بأنها على هذا القدر من الجمال حينما رآها في المرتين السابقتين، لم يكن ينظر إلى وجهها خجلاً من الحضور كما كانت هي دومًا، اقترب منها بهدوءٍ ليرفع وجهها بأنامله التي ما إنْ لامست طرف وجهها حتى أخذت حُمرة الخجل تكسو وجهها وعيناها السوداوان تتأمله بصمتٍ وهو يتمتم بخفوتٍ:

- تبارك الله أحسن الخالقين، ما أخذ منك إلا ليعطيك.

*****

استيقظ عبدالرحمن على صوت طرقاتٍ قويةٍ، هرول إلى الأسفل وما إنْ فتح الباب حتى وجد فرج بن فرج وقد غمر وجهه التوتر قائلاً:

- لقد قبضوا على بعض رجالنا.

فغر عبدالرحمن فاه بذهولٍ مُحدِّقًا في وجه فرج الذي أكمل:

- سيذهب الحبقي وصهرك خوان لمعرفة ما أسباب اعتقالهم، أمّا أنت فعليك أنْ تبلِّغ رجالنا في جبال البشرات قبل أنْ تبدأ مراسلاتهم إلى أنحاء الأندلس للدعوة للثورة. يجب أن نُوقف هذا مؤقتًا.

- ولكنْ، ما أدرانا أنّه قُبِضَ عليهم بسبب ما نخطّط له؟؟

- لا وقت لهذا، أنصِتْ لما أقول واذهب على الفور إلى هرناندو دي قرطبة بقرية بالور بالبشرات، وأخبره بما حدث، يجب علينا وقف اجتماعاتنا مؤقتًا.

رحل فرج تاركًا خلفه بركانًا ثائرًا تزلزلت جدرانه، وكاد يُلقي حممه لتملأ صحن الدار، صعد الدرج ليجد أمامه ثريا التي يحمل وجهها صفاءَ يوم ربيعيٍّ ونافست حمرة وجهها أجمل الورود، وأمام عينيْها الكحيلتيْن ثَبَتَ مُبحِرًا بين جفونها، انتشلته هي بصوتها الهادئ:

- مَن كان بالباب؟؟

أجاب وهو يتّجه إلى باب الغرفة:

- إنّه مولاي فرج بن فرج.

تَبِعَتْه إلى الداخل وهي تقول:

- هل حدث شيءٌ؟؟

- لا... لا شيء.

لاحظت توتُّره وشرود عينيْه التي تبحث في العدم عن شيءٍ ما، فقالت وهي تقترب منه:

- ما بك يا عبدالرحمن؟؟؟

لم يُجِبْها وهو يلتقط ثيابه، ساعدته في ارتدائها واستدار ممسكًا بكتفيها برفق متأملاً عينيْها الساحرتيْن، لحظاتٌ مرَّت وهو محلقٌ في سماء جنتها، قبل أنْ يطبع

قُبْلةً على شفتيْها المتورِّدتين ليقول بعدها:

- سأُنهي بعض الأمور وسأعود فورًا، لا تقلقي. في طريقي سأعرِّج على عمتي وعائشة لتأتيا وتجلسا معك.

- هل ستخرج دون أنْ تتزوَّد بالفطور؟

تبسَّم وهو ينزل الدرج وما إنْ استقرَّت قدماه بفناء المنزل حتى قال:

- سأحضر على العشاء.

فتح الباب تاركًا خلفه زوجه في يومها الأول، جلست على طرف الفراش تبكي، لا تعلم لماذا؟؟ وفي مدخل الحارة التقى بصفية التي عقدت حاجبيْها وهي تقول لعائشة:

- لماذا خرج اليوم؟؟

لم تتلقَّ الإجابة مِن عائشة بل منه هو:

- عمّتي... عائشة، كيف حالكما؟ سأقضي بعض الأمور وسأعود بسرعة. ابْقيا مع ثريا حتى أعود.

لم تفهما أيَّ شيءٍ، فقد تركهما يحثُّ الخُطى نحو أسوار المدينة، في رحلة مفاجئة انتزعته مِن فراش العرس، كان عليه أن يذهب ويأتي قبل المساء، مضى في طريقه إلى خارج المدينة وراح يسلك دربه إلى الجبال... إلى البشرات.

*****

داخل قصر الحمراء جلس الحبقي ومَن معه أمام الرئيس ديسا الذي كان يحدِّثهم عمَّن قُبض عليهم لأنهم مرقوا من الدين المسيحيّ، وأنّهم قاموا بذبح الذبائح في منازلهم وهذا مُنافٍ للقوانين والمراسيم الصادرة منذ عام ١٥٠٢، وأنّهم سيتعرّضون لمسائلة ديوان التفتيش الذي إمّا أنْ يخلّصهم من اتّباع الشيطان ويحرّرهم من معتقداتهم الفاسدة أو أنْ يحكم عليهم إذا اعترفوا بالإعدام. لم تكن الحالتان أفضل؛ فكلاهما سيُودي بحياة مَن قُبض عليه ولكنّ ديسا تطرّق بخباثة إلى منحًى آخر وهو يقول:

- هل صحيح ما سمعته يا سيد خوان أنك زوجت ابنتك إلى أحد رجال فرج بن فرج؟؟

تعرّق وجه خوان كعادته، ليتلعثم قبل أنْ يقول:

- نعم سيدي الرئيس، وقد تمّ الزواج في كنيسة سان سلفادور...

قاطعه ديسا ليزيد من توتّره:

- ولكنكم أقمتم حفلاً قبل أنْ تذهبوا إلى الكنيسة، وقيل إنكم كنتم تنشدون الموشّحات والغناء العربيّ.

هنا تدخّل الحبقي مُقاطِعًا ديسا بفظاظة قائلاً:

- عذرًا سيدي الرئيس، ولكنْ كما تعلم أنّ مجتمعنا مازال يحتفظ ببعض عاداته وتقاليده التي لم يمحُها الزمن، وهل الفرح والابتهاج ممنوعٌ أيضًا؟

ظهر الغضب والتذمُّر على وجه ديسا الذي نهض قائلاً:

- ليس ممنوعًا على طريقتنا! ولكنْ كما تعلم فالقوانين واضحةٌ في ذلك الأمر، فكثيرٌ منكم قد وُلِدَ وسُجِّل بسجلّاتنا أنّه مسيحيٌّ ومن أبويْن تعمَّدا بعد مرسوم الملكة إيزابيلا، ولكنّ عائلاتكم مازالت مسلمةً بشكلٍ أو بآخر.

بحدّة قال الحبقي:

- هل هذا اتهامٌ لنا؟؟

اقترب ديسا:

- ومَن اتّهمكُم؟؟ أتظنني لا أعلم شيئًا عن تلك القصص التي تسري بين جموع الأندلسيين عن ثورة قادمة؟؟

كانت كلماته هذه توضِّح لمَ تمّ القبض على الرجال، خفقت قلوبهم في صدورهم مُحاولةً القفز خوفًا مِمّا هو آتٍ وهذا ما ترجمته عيونهم، ولكنّ الحبقي ظلّ متماسكًا فقال بثبات:

- عن أيِّ ثورة تتحدّث وقد جرّدتمونا من السلاح والبغال والخيل؟؟ نقضتم معاهدة تسليم غرناطة وأجبرتمونا على التنصُّر وترك لغتنا وتحاولون طمس عاداتنا، نخضع للذلّ ولبطش ديوان التفتيش طوال الوقت، ومَن يقول الحقّ يُؤخذ ولا يراه أهله مرةً ثانيةً، صادرتم الديار والعباد. ماذا تريدون بعد ذلك؟؟

بعينيْن ملأهما الخبث ولسانٍ كان يجب أنْ يكون مشقوقًا كلسان الأفاعي نطق

ديسا المبهور مِن جرأة الحبقي:

- أرى أنّ السيد الحبقي لا يُحبُّ لا الحكومة ولا قرارات الملك فيليب الثاني!

وقف الحبقي أمامه وقد حمل وجهه تحدّيًا وهو ينطق قائلاً:

- تخافون من الثورة؟ فلْتُوقفوا عمل ديوان التفتيش وتلك القرارات التي ستُشعِل النيران في القلوب لتُحرق كلّ شيء.

سكت ليُضفي سكونًا على الغرفة التي كانت أعين الحاضرين فيها مُتعلّقةً بالنِّدَّيْن المُتواجِهيْن، قطع ذلك الصمت صوت أحد الحراس الذي دخل إلى القاعة قائلاً:

- سيدي، الماركيز دي مندخار في الخارج.

أشار ديسا للحارس بأنْ يُدخِل الماركيز قبل أنْ يلتفت إلى الحبقي مرةً أخرى قائلاً بتحدٍّ:

- سنرى سيد حبقي... سنرى. انتهت المقابلة.

وتقابلت عينا الحبقي مرةً أخرى بغريمه دي مندخار، الذي رمقه بنظرةٍ تَحمِلُ الكثير، وما إنْ دخل حتى أغلق الحراس الباب مِن خلفه فقال لـديسا:

- ماذا كانوا يريدون؟؟

صبَّ ديسا كأسيْن من النبيذ ناول أحدهما إلى الماركيز وتجرّع هو مِن الآخَر قبل أنْ يقول:

- ذلك المدعو الحبقي، مغرورٌ بما يكفي لقطع رأسه أو حرقه أمام أعين أهله.

ابتسم دي مندخار وهو يضع كأسه جانبًا وديسا يُكمِل:

- أرى أنك لا تحبُّه أيضًا.

- إنّه لا يروقني.

سمعها مندخار وهو ينهض إلى النافذة وصوت ديسا يأتي من خلفه:

- إنّهم يخطِّطون لشيءٍ ما.

اخترقت الكلمات أذنيْه وهو يتابع بنهم الحبقي ورفاقه الذين كانوا يغادرون القلعة، آااه لو يعلم ما في صدورهم! ما كان سيتركهم يَخطُون إلى الخارج، وأوّلهم ذلك المفاوض المغرور فراندو الحبقي.

*****

اختلطت الألوان في مزيجٍ خياليٍّ فوق سماء غرناطة مع بزوغ فجرٍ جديد، حيث بَدَت الطرقات خاليةً وكأنّما لمْ يَعُدْ بين منازلها أحياء، داخل منزل عبدالرحمن كانت صفية مازالت جالسةً تتمتم بآياتٍ ما تكاد تختمها حتى تبدأ بالدعاء أنْ يَرُدَّ الله عبدالرحمن سالمًا، قضت النهار تستجوب ثريا إنْ كانت قد أغضبته، بينما جلست عائشة تواسي ثريا وتلتمس الأعذار لأخيها الغائب، لم تَذُقْ عيونهنّ النوم ولا عرفت أجسادهنّ الراحة، ظلت ثريا هائمةً بين الشرفة تستشرف قدومه وبين فناء المنزل تجلس إلى جانب عائشة التي كاد القلق يغمد سيفه في قلبها، فهي

الوحيدة دونًا عن أهل الدار مَن تعرف أسراره الليلية، كادت تغفو حينما سمعت صوت صرير الباب ليعلن عن قدومه.

- أين كنت؟؟

كلماتٌ مقتضبةٌ جاءت لتفاجئ عبدالرحمن مرهق الوجه، الذي ابتسم بوجه شاحبٍ قائلاً:

- سأقصُّ عليكم كلَّ شيء، أعدكم. ولكنْ في الصباح.

ابتلعت صفية ما كانت تنوي أنْ تُطلقه في وجهه الذي يبدو عليه الإعياء، صعد الدرج بتهالك ومن خلفه ثريا المرتاعة من مظهره الرثّ، بدَّل ملابسه بمساعدتها وخلد إلى الفراش، بينما جلست إلى جواره تتأمله بصمت. حدَّثتها نفسها عمّن تزوجت به وفي أولى أيام حياتها معه يتركها ويذهب دون أنْ يخبرها، «آآه يا عبدالرحمن! ماذا تخفي؟؟ وأين كنت؟؟

لم يُجبْ همساتها فقد كان غارقًا في سباتٍ عميقٍ بعد يومٍ شاقٍّ، عبر مروج غرناطة متخفيًا عن الأنظار إلى دروب جبال البشرات التي تقف شامخةً محتضنةً قرى بيضاءُ ديارُها على سفوح الجبال، خرج فجرًا وعاد فجرًا.

قابل هرناندو دي قرطبة الذي استضافه في منزله وأعدَّت لهم زوجته بريانده بريز غداءً شهيًا تناولوا خلاله أطراف الحديث الذي عرف من خلاله أنّ أَصْلَ هرناندو يعود إلى بني أمية، تعرفًا أكثر على بعضهما بعضًا قبل أنْ يصلّي الظهر مع رجال القرية في منزل أحدهم، تعجّب من ذلك الأمر حيث لا يوجد في القرية سوى

قسٌّ يجلس طوال الوقت وحيدًا في صومعته مراقبًا ما يدور ويكتب به المراسيل إلى الكاردينال شخصيًا، ظاهريًا البلدة مسيحيةٌ وباطنًا كانت مسلمةً حتى النخاع.

قضى يومه بعد إبلاغ الرسالة التي أوصاه بها فرج وعاد، ولكنْ في طريق العودة طاردته فرقةٌ من الجنود القشتاليين استطاع أنْ يتملَّص منهم والاختباء في أحد الكهوف إلى أنْ حلَّ الظلام، بعدها عاد إلى غرناطة.

استيقظ عصرًا وقد نال جسده قسطًا من الراحة، وقد رأى أنّ عليه بأنْ يصارحهم، وبدأ يسرد قصته منذ البداية فعثت الفخر في قلب ثريا، أمّا صفية فانتظرت حتى ينتهي من روايته ثم قالت:

- يا ولدي، ما تفعله خطأٌ. علينا أنْ ننتظر إلى أنْ ينظر الله في أمرنا.

كان حديثها صادمًا للجميع، وعبدالرحمن يقول لها:

- أنتِ تقولين هذا؟!

- يا ولدي، فلْنرحلْ ولنترك الديار ولنذهبْ إلى تطوان لنعيشَ بين ظهور أهلنا هناك من المسلمين المغاربة، فهناك محمد...

- محمد ضحّى بحياته من أجل دينه وحرية وطنه.

إذا تحدَّثْنا عن وقع الصدمة على عقول الحاضرين فسنقول إنّ هويَّ شهابٍ عليهم من السماء كان أهون من سماع أمٍّ لخبر وفاة ابنها، عجز لسانها عن النطق وتجمَّدت الدماء في عروقها بينما جحظت عيناها مُحملقةً في وجه عبدالرحمن

الذي أخذ يلوم نفسه على أنه نطق بهذا، ولكنْ كان لابُدّ أنْ تعرف ما حدث فقرر بدء الحديث مرةً أخرى قائلاً:

- لقد مات بطلاً على سواحل ألميرية، وقد دُفِنَ في الجزائر مع رفاقه المجاهدين، أُقيمت لهم جنازةٌ كبرى حضرها الشيوخ والصغار، حضرها بليرباي الجزائر وكبار الدولة العثمانية هناك.

كانت الدموع تنساب ببطءٍ على وجنتيْها وهي تتمتم «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» أُجهشت بعدها بالبكاء الحارّ، فما كان مِن عائشة إلّا أنْ تحتضنها وتبكي هي الأخرى، أمّا ثريا فقد كانت تنظر إلى عبدالرحمن بنظرة لوم جعلته ينهض مسرعًا إلى خارج الدار، لا يدري إنْ كان ما فعله صائبًا أم لا.

*****

جاء الخريف مُسقطًا آمالاً كانت قد تعلّقت في الصدور، أصبح الوضع أسوأ من ذي قبل؛ فقد أصدر الرئيس ديسا قرارًا بمصادرة الأسلحة وعدم تملُّك الأندلسيين لأيٍّ منها، كما زادت قوّات دي مندخار من دوريّاتها داخل أحياء غرناطة الهادئة حتى الآن، أمّا رجال الثورة فكانوا بين منهزم العزيمة وبين مَن علّق آماله على بدء ثورة تحرير الأندلس، أصبح بعضهم يروْن أنّه لا أمل في الثورة ولا أمل في النصر إنْ قامت الثورة.

وآخرون امتلأت عقولهم بالأمل القادم من الدولة العليّة وأسطولها الذي أصبحت أخباره المتواترة تأتي كلّ يوم بأخبارِ نصرٍ جديدٍ على سفن إسبانيا، أمّا فرج فكان لا مِن هؤلاء ولا من هؤلاء؛ فقد زرع بذور الأمل في قلب الشباب أمثال عبدالرحمن وتقوّى هو بعزائم هرناندو دي قرطبة الذي كان مثلاً للشباب المناضل الباحث عن حرية بلاده.

أمّا عبدالرحمن، فدومًا ما كان يحدّث أهله عن الثورة على الطغيان القشتالي، أبهرت أحاديثه عائشة التي كانت عيونها الزرقاء تُشعُّ فرحةً كلّما سمعت أخبار القراصنة وقُطّاع الطرق والمتطرفين -هكذا سمَّتْهُم قوات الاحتلال-، رأتهم ذلك اليوم في السوق وهم يسوقون جمعًا مِن الأسرى الأتراك والمغاربة وبعض الأندلسيين، عادت إلى منزل صفية تبكي لتذكُّرها ما حدث لأهلها في دانية على يد جنود أراغون، حملت الثورة في قلبها أينما ذهبت، أرادت أن تكون مثل هؤلاء الشجعان الذين تأتي أخبارهم من الساحل الجنوبيّ، وفي وقت فراغها كانت تجالس ثريا التي حملت طفل عبدالرحمن في أحشائها، ذلك المولود الذي لم يتبقَّ على قدومه للعالم سوى أشهر.

ثريا الجميلة، كانت دومًا ما تضع يديْها على بطنها الممتلئ بطفلٍ أسْمَتْه معاوية، كانت تكلّمُه وتحدّثه عن أخبار والده، ذلك الفارس النبيل الذي منذ أنْ تزوّجته تحوّلت حياتها، عرفت دينها أكثر وتعلّمت منه الكثير، كان يكفيها أنْ تضع رأسها على صدره وهو نائمٌ. أحبّته، كيف لا وهو زوجها الذي يحنو عليها ولم يكدر صفوها يومًا بكلمةٍ أو حتى بنظرةٍ غاضبة؟!

«نِعْمَ الزوجة ثريا»، هكذا نطق عبدالرحمن مُحدِّثًا أباها وفرج الذي غيَّر مجرى

الحديث:

- لا تنسوا اليوم في بيت عدلت الشماع في البيازين.

ألقاها وتفرّق ثلاثتهم حاملين روح الأمل الذي داعب وجدانهم، كلٌّ ذهب في طريقه وعلى موعد اللقاء مساءً ليتمّ وضع اللمسات الأخيرة لبدء الثورة التي طالت فتره حملها.

*****

عكست مياه حِدرة ضوء النجوم اللامعة في سماء غرناطة التي بَدَتْ ساحرةً كعادتها، نسمة هواءٍ باردةٌ لفحت وجه عبدالرحمن الذي كان يعبر القنطرة لتزيده نشوةً، التقى في الطريق مع الحبقي ذلك الرجل المهيب الذي لا يقف أمام دهائه أحدٌ ولا تُثمر الاجتماعات دون تواجده؛ فهو متحدِّثٌ لبقٌ ومحاورٌ بارعٌ ومتفاوضٌ لا يشقُّ له غبارٌ.

كانا آخر الحاضرين داخل منزل عدلت الشماع الذي تزاحم بداخله ستةٌ وعشرون رجلاً يمثِّلون مناطق الأندلس المختلفة، ترأس الاجتماع الوزير فرناندو بن جهور الصغير ذلك العجوز الذي كان مِن زعماء الثورة ويعود أصله إلى قرطبة وينحدر من بني أمية، بدأ حديثه:

- بسم الله والصلاة على خاتم أنبيائه محمد النبيّ الأمّيّ. أمّا بعد، فقد ضاقت نفوسنا بما يفعله المحتلّ بنا؛ أقاموا دولتهم على حضارتنا التي أضاءت الدنيا

نورًا وعلمًا، أصبحنا عبيدًا في أرضنا، اغتُصبت نساؤنا وقُتل أبناؤنا وأُجبرنا على التنصير، حتى مساجدنا صارت كنائس تبكي المآذن من صوت الأجراس التي عُلِّقت بها. إنْ كنا نريد النصر فلْنُخلص عملنا لوجه الله ولْنُبايع سلطانًا يحكم الأندلس ويقود الثورة.

سَرَتْ همهماتٌ بين الحضور وهو يكمل بصوتٍ قويٍّ:

- علينا أنْ نجتمع حول رجلٍ واحدٍ، وبهذا نوحِّد المناطق الأندلسية تحت رايةٍ واحدة.

هنا قرَّر الحبقي المقاطعة:

- ومَن هذا السلطان؟؟ فكما تعلم أنّ هناك في المدينة الواحدة الكثير من العائلات المتناحرة، فكيف سنوحِّد الجميع؟

أجاب فرناندو:

- إنّ ما يضمن ذلك هو النَّسَب، وأنا أرشِّح هرناندو دي قرطبة وبالور.

توجّهت الأنظار في تلك اللحظة إلى هرناندو الذي تفاجأ بدوره ممّا قاله عمُّه ابن جهور. كان هرناندو في الثانية والعشرين من عمره وأصغرهم سنًّا، كما أنّه مِن طبقة الفرسان الأربع والعشرين التابعين لبلدية غرناطة وحاكم قرية بالور بجبال البشرات التي ولد فيها من عائلة هَجرت قرطبة منذ زمنٍ بعيد. وقْعُ المفاجأة على عقول الحاضرين كمثل صخرة أُلْقيَتْ مِن أعلى جبلٍ فهَوَتْ على كوخٍ كانوا فيه جميعًا فتهدَّم فوق رؤوسهم، لم ينتشلهم سوى صوت فرج الذي قال:

- أبايعك يا هرناندو دي قرطبة على الولاء والطاعة والجهاد في سبيل الله.

هنا وقف هرناندو وعيناه تحوم بوجوه الجميع قبل أنْ تلتقي عيناه بعينيّ فرج قائلاً:

- اسمي هو محمد، محمد بن أمية سليل فاتحي الأندلس وخلفاء الله في أرضه.

وهنا راحت القلوب ترسم أملاً جديدًا، فأمامهم الآن شابٌ في مقتبل العمر تبدو الفراسة والشجاعة على وجهه الوسيم، تردَّد بعضهم في أنْ يأخذ نفس قرار فرج إلا عبدالرحمن الذي وقف قائلاً:

- أبايعك يا سلطان الأندلس محمد بن أمية على نصرة الله ورسوله وتحرير أرضنا من يد المغتصبين.

أثارت الكلمات الحضور فقام بعده الحبقي وخوان فراندس وغيرهم، وما إنْ انتهى الجميع من الاتفاق على بيعته حتى توسَّطهم قائلاً بحزم:

- أقسم أمام الله وأمامكم أنْ أقود أمتنا الأندلسية بما يرضي الله والذي أسأله أنْ يوفقني إلى النصر أو الشهادة.

أنهى كلماته وشرع في الأذان بين الحاضرين، أذانٌ لم يسمعه الكثير منهم منذ سنواتٍ وسنوات، فكان أكثر من نصف الحضور قد ولد بعد سقوط غرناطة، صلّى بهم إمامًا وما إنْ انتهت الصلاة حتى بدأ في شرح خطته للثورة:

عبدالرحمن سيتولّى مسئولية تنظيم الثوار في حي البيازين ومعه فرج والحبقي، سيقود كلٌّ منهم فرقةً تنتظر إشارةً محددةً ستأتيهم من فوق الحمراء، ستحمل فرقة عبدالرحمن العلم الأحمر الذي ما إنْ تأتيهم الإشارة حتى يحتلّ باب فج اللوزة ثم يعبرون سراديب المستشفى الملكي ويدخلون من باب البيرة ويقومون باحتلال محكمة التفتيش لتحرير السجناء واعتقال أعضاء المحكمة ورهبانها القتلة، أمّا فرج فستحمل فرقته العلم الأصفر، وسيحتلون ساحة البنود وبعدها يلتقون مع السجناء الذين سيحرِّرهم عبدالرحمن، وسيحمل الحبقي العلم الأزرق ويدخلون عبر وادي أش ونهر حدرة وهذه الفرقة مهمتها قتل ديسا. ستساندكم كتيبةٌ من ألفي ثائرٍ من المنفيين بقيادة البرطال والناقص، سيتسلقون أسوار قصر الحمراء لاحتلاله وفرض السيطرة بداخله على الماركيز وجنوده، وما إنْ ننتهي تجتمع الثلاث فرقٍ في ساحة الرملة، وفي تلك الأثناء سيكون هناك ثمانية آلاف من الثوار يدخلون المدينة عبر الوادي والمرج الجنوبي مرتدين ملابس الجنود العثمانيين والجند المغربي لإيهام مَن يحاول المقاومة أنّ المدد جاء من البحر لتحرير أرض الأندلس، وسيكون قصر الحمراء وجنة العريف تحت سيطرة البرطال والناقص. ستكون هذه مجرد البداية ومن غرناطة ستعود الأندلس مجددًا.

انتهى الاجتماع قرب الفجر، وخرج الجميع من منزل عدلت وهم يعرفون مهامَّهم التي أوكلت لهم، لم يتبقَّ سوى أقل من ثلاثة أشهر لتنفيذ المخطط والذي سيبدأ مع إشراقة شمس أول يوم للعام الجديد.

*****

(٤)

الخُذْلان والأمَل

٢٣ ديسمبر ١٥٦٨م

عاد مأمون مرةً أخرى إلى أراضي الأندلس، نزل إلى شاطئ مربلة ومعه مجموعةٌ من رجاله وبعض الأسلحة التي سيمدُّون بها الثوار قبل بدء الثورة، رحلت سفينته بينما قاد رجاله عبر دروب الجبال المكسوَّة برداءٍ أبيضَ من الثلج الذي أعاق تقدُّمهم قليلاً، وخلف الدليل سار مرتديًا معطفًا وغطاءَ رأسٍ صُنِعا من فرو ذئبٍ سيبيريٍّ كان قد أهداه له السلطان سليم الثاني حينما زار إسلامبول عارضًا رسائل الأندلسيين التي تناشده العون. كان عددُ مَن معه ليس أكثر من أربعين رجلاً منهم المغاربة والأتراك والأندلسيون الذي كان الشوق يسبقهم إلى الثورة التي ستأتي قريبًا جدًا لتنصر المظلومين وتعيد مُلْكَهم البائد.

كان قد مرّ على تواجدهم على التراب الأندلسي عدة أيام، حينما وصلوا إلى قرية بقيرة صباح الثالث والعشرين. استقبلهم الرجال والنساء بالترحاب وهم ينظرون إلى وجوههم ولحاهم الكثة وملابسهم العثمانية الفريدة التي تجمع بين الدروع الحربية الإسلامية وبين الرقيّ والتحضُّر، كانت القرية بسيطةً تقع على سفح الجبل الذي يقف خلفها شامخًا متغطرسًا وأسفلها كانت المروج التي غطّتها ثلوجٌ لم يأتِ مثلها من قبل على تلك المنطقة.

استضاف أهل بقيرة المتطوعين في منازلهم وقدّموا لهم الحساء الدافئ، كانت وجوههم مستبشرةً بقدومهم تعلن ترحيبها كلّما مرّ أحدهم.

استضاف إستبان البرطال أحد زعماء الثورة الذي كان يسكن في بقيرة، مأمون وبعضًا من رجاله، تناولا أطراف الحديث أثناء مأدبة أعدّها لهم، وما إنْ انتهوا من المأدبة حتى سمعوا صوتًا يصرخ من الخارج مناديًا إياه، خرج من الدار ومن خلفه مأمون ليجدا شابًا يأتي مهرولاً والرعب يحتلُّ قسمات وجهه، وحينما صار على مسافةٍ قريبةٍ منهم قال:

- إنهم الجنود القشتاليون في الطريق إلى هنا.

تبادل مأمون والبرطال النظرات وذلك الأخير يقول للفتى بحدّة:

- أين هم الآن؟؟ وكم عددهم؟؟

انحنى الفتى ملتقطًا أنفاسه وهو يكمل:

- لا يقلُّ عن خمسين يزيدون أو ينقصون. في ركابهم أصحاب الملابس الحمراء،

أظنُّ أنهم سيمكثون في قيدار، فطلائعهم قد وصلت بالفعل إلى أبواب قيدار.

كان الفتى يتحدّث بلكنة جمعت بين العربية والقشتالية، فلم يفهمه مأمون جيدًا فانتظر حتى فرغ الشاب من حديثه ليسأل البرطال هامسًا:

- ما الأمر؟

أجاب البرطال وهو يدلف إلى الداخل:

- يبدو أنّ أعياد الميلاد ستأتي مبكرًا.

*****

بعد ساعة - قرية قيدار:

من فوق ربوةٍ عاليةٍ أخذ إستبان البرطال يراقب ما يحدث في ساحة القرية التي مُلئت بجثث القتلى، وسط ضحكات الجنود القشتاليين الذين كانوا ينتشرون في أرجاء القرية، هذا يطارد فتاةً وآخرون يقتحمون منزلٌ وذلك السكير يطلق رصاصةً على أحد الشيوخ الجرحى، لم ينتظر البرطال كثيرًا فقد أعطى إشارة الهجوم، ليبدأ في النزول عن الربوة مستترًا بالشجيرات التي غطّت الثلوج معظمها ومن خلفه أربعون رجلاً، ومن التلّة المقابلة كان ذئب العثمانيين مأمون نور الدين يهبط ومعه رجاله المتلهّفين لأولى معاركهم الفعلية على أرض الأندلس.

تسلّل مأمون ومعه أربعة رجالٍ خلف أحد المنازل، تسلّق أحدهم المنزل ليستقرَّ

فوق سطحه المغطى متخذًا وضع التصويب والآخرون انتظروا حتى خرج أحد الجنود من المنزل ليخطفوه خلف الجدار ذابحين إياه. دخل مأمون الدار ليجد رجلاً صريعًا غارقًا في بركة من الدماء وإلى جانبه امرأةٌ قد تمزّقت ملابسها ووجهها ملطّخٌ بالدماء، سَلب النحيب صوتها فراحت تبكي بأنين اخترق صدره، فزعت من رؤيته وطلّته الغريبة بذلك اللباس الذي لم ترَ مثله من قبل ولكنه طمأنها وهو يضع فوقها أحد الأغطية قائلاً بالعربية:

- لا تخافي يا أختاه.

بصوتٍ متهدّجٍ ووجهٍ شاحبٍ قالت:

- مَن أنت؟؟

نهض واتّجه إلى الباب، وما إنْ وصل إليه حتى التفت قائلاً بحزم:

- نحن جنود الله أرسلنا لنجدتكم.

ومع انتهاء حروفه الأخيرة، انطلق صوت الرصاصات التي راحت تحصد الجنود القشتاليين، حالّةً من الفزع أصابتهم مع صوت التكبير الهادر الذي راح يصيح به البرطال ورجاله، ودارت المعركة التي لم تدم طويلاً تحت وطأة المفاجأة، وفي الساحة اختلطت الدماء والأشلاء، وقف مأمون بسيفٍ تلطّخ بالدماء وهو ينظر لذلك الجريح القشتالي الذي أخذ يحبو باحثًا عن أملٍ للنجاة، ولكنه فوجئ بـالبرطال يجلس بجواره متأملاً إياه ليتوقف ذلك الجندي عن محاولاته وعيناه تحمل الخوف والرعب، ولكنّ البرطال قال بالقشتالية:

- لا تخف، لا نقتل الأسرى والجرحى، لسنا مثلكم.

حاول الجندي الابتسام مُغالبًا ألمه حينما قال البرطال:

- إلى أين كنتم ذاهبون؟؟

أجاب الجندي بصعوبة:

- كنا متجهين إلى حصن هريرا، عندما أمرنا قائدنا بالنزول إلى قيدار للاستراحة.

داعب البرطال سيفه وهو يقول:

- ممم! الاستراحة؟ وقتل الأنفس واغتصاب النساء؟ يا لها من نزهة!

شحب وجه القشتالي مرةً أخرى وهو يمسك بصليبٍ عُلّق في رقبته قائلاً:

- أقسم لك أني...

قاطعته صرخةٌ أنثويةٌ تبعها صوتٌ قائلاً بالعربية:

- كاذبٌ! ذلك القشتالي كاذبٌ.

التفت الجميع إلى مصدر الصوت ليجدوا امرأةً عجوزًا انهمرت الدموع من عينيْها وهي تحمل طفلةً بين ذراعيها، تقدّم مأمون بسرعةٍ نحوها ليحاول أنْ يحمل عنها الطفلة التي لم يتعدّ عمرها التسع سنواتٍ قائلاً:

- دعيني أحمل عنك يا أمي.

أشاحت المرأة بجسد الطفلة بعيدًا عنه وهي تقول:

- ذلك القشتالي اغتصب ابنتي الصغيرة.

راحت تبكي وهي تحتضن الطفلة إلى صدرها بقوةٍ لتكمل بعد ذلك:

- ثم قتلها بعد أن قتل والدها.

جحظت عينا القشتالي عندما رأى البرطال يرفع سيفه، فمنذ أنْ رأى تلك المرأة وسمع صراخها عرف مصيره المحتوم، ولكنّ البرطال لم يقتله، اتّجه نحو السيدة وناولها السيف فمرّرت عينيْها بالرجال الذي أحنوا رؤوسهم لها، سلّمت مأمون طفلتها القتيلة ليحملها وعيناه تذرف دمعًا على ملاكٍ قد وُئِدَ على يد خنزيرٍ، التقطت سيف البرطال وتقدّمت نحو القشتالي الذي رفع ذراعيه قائلًا:

- أرجوك ارحميني.

ردّت بالعربية:

- ولماذا لم ترحم بكاء الصغيرة وأنت تواقعها؟

وهوت بالسيف على رأسه لتشقّه نصفين، وتنهار بعدها باكيةً.

*****

اليوم التالي:

أخذت غيوم ذلك اليوم في الانتشار سريعًا لتخفي السماء التي أسدلت ستائر ليلها مبكرًا، وداخل مقرّ ديوان التفتيش بالقرب من قصر الحمراء وقف أنطونيو

المُكاري مُحنيًا رأسه أمام الرئيس ديسا الذي كان الغضب يفيض من عينيْه وهو يرمق أنطونيو باحتقارٍ قائلًا:

- ولماذا لم تخبرني مسبقًا بتلك الأمور؟؟

بصوتٍ خافتٍ يشوبه الخوف، نطق أنطونيو بقشتاليةٍ ضعيفةٍ:

- سيدي لقد... أخافني ذلك الشاب خوان غارسيا، إنهم يُعدُّون لشيءٍ، وأظن أنهم سيحاولون اقتحام الحمراء.

كانت الكلمات الثلاثة الأخيرة كفيلةً بأن ينتفض ديسا كمن أصابه مسٌّ من الشيطان، ظلّ يحدّق في وجه أنطونيو لحظاتٍ قبل أنْ يقول وهو يقترب منه:

- أواثق أنت ممّا تقول يا هذا؟

بتذلُّلٍ قال أنطونيو:

- لقد عرفتُ هذا منذ قليلٍ حينما كنت مارًا بالبيازين ورأيت ذلك الشاب مجتمعًا بشخصين آخرين لم أتبيّنْهما، كما ذكروا أمر سلالمَ وحبالٍ للتسلق إلى أسوارٍ وأظنها أسوار الحمراء.

صرخ ديسا بوجهه بعصبيةٍ:

- أيها الغبي، لماذا لم تأتِ إليَّ مسرعًا؟

صمت لحظاتٍ قبل أنْ يصرخ مرةً أخرى مناديًا أحد حراسه الذي ما إن ظهر على باب الغرفة حتى قال له ديسا:

- أذهب فورًا إلى الماركيز دي مندخار وأخبره أني أريده، وارفعوا حالة التأهُّب القصوى في القلعة والقصر.

*****

كان مخطط محمد بن أمية الذي أعدَّه مهددًا بالفشل بعد ما حدث في قيدار، خرج ليلاً من غرناطة التي غطّتها الثلوج الكثيفة تاركًا فرج بن فرج وعبدالرحمن ومعهم مِن الرجال مائةٌ وثمانون، دخل فرج إلى البيازين مُتغلبًا على حامية صغيرةٍ من جنود الماركيز دي مندخار ومناديًا أهلها الذين لم يخرج منهم أحدٌ، فقط وقفوا خلف النوافذ والأبواب يستمعون لكلماته:

«الله الله يا أهل البيازين، الأندلس تناديكم يا أهل البيازين، فهل من مستجيب؟ الثورة قامت في البشرات فهل من مُلَبٍّ؟؟!!»

أجابه الصمت، فقرَّر أنْ يطرق باب كلّ منزلٍ، كان قلبه ينبض بالقهر، لم يكن يتوقع أنْ يخذله أهل البيازين، أمسك عبدالرحمن ذراعه قائلاً:

- كفى! فما أنت بمسمعٍ مَن في القبور.

ترقرقت عينا فرج وهو يقول:

- اتركني يا أبا معاوية، سأُخرجُهم عنوةً.

سَرَتْ همهماتٌ بين الرجال الذين التفت إليهم عبدالرحمن قبل أنْ يعود بوجهه

إليه:

- إنْ تخاذلوا اليوم لنصرة الحق، فغدًا موعدهم مع الذل، اتركهم ولْنَرحلْ قبل أن يأتي القشتاليون.

- إلى أين سنذهب؟؟

قال عبدالرحمن بحسم:

- نلحق بالسلطان محمد إلى البشرات، ونرى بعد ذلك ما سيحدث فقد بدأنا للتوّ ثورتنا ولن نتراجع عنها مهما حدث.

أومأ فرج برأسه فرحًا مِن كلمات عبدالرحمن قائلاً:

- حسنًا يا أبا معاوية، فلنمضِ إلى غايتنا، ولا غالب إلا الله.

ردَّد عبدالرحمن بخفوتٍ «ولا غالب إلا الله»، تحرَّك فرج بالرجال نحو البشرات تاركًا خلفه نمرًا جائعًا قد شحذ مخالبَ قد أهملها منذ زمنٍ، وبرشاقةٍ راح يثب بين الشجيرات والأسطح في قفزاتٍ أعادت له حيوية الصيد، بحث بعينيْه الثاقبتيْن عن فريسته، ربض بين الظلال أمام منزله، حماره وعربته في مكانهما، ويعني ذلك أنه لم يخرج خارج البلدة، مرَّ ما يقرب الساعة وهو ساكنٌ سكون الثلوج المتراكمة على الأسطح، وأخيرًا رآه.

ابتهج قلبه عند رؤية وجه أنطونيو القبيح الذي كان يأتي عبر الحارة الضيقة متأرجحًا سكيرًا، كان يغني لحنًا أندلسيًا بصوتٍ مسموعٍ واضحٍ، لم يكن يدري بما

يقول فقد لعب الخمر برأسه فلو كان واعيًا لما نطق كلمةً بالعربية، توقّف أمام المنزل تائهًا، دار حول نفسه مرتين قبل أنْ يصطدم بجسدٍ ولثامٍ قد حفظ معالمه السوداء التي طاردته في يقظته وزيّنت كوابيسه اليومية، جحظت عينا أنطونيو وقد طار أثر الخمر من رأسه، حاول أن يقول شيئًا ما ولكنْ قد سبق السيف أحباله الصوتية، ليسقط أرضًا مُحشرجًا مُمسكًا عنقه بكلتا يديْه وقد جحظت عيناه بألمٍ صامتٍ.

عرّج عبدالرحمن إلى منزل صفية، أخبرها بسفره المفاجئ، لم ترُقْ لها كلماته، أحسّت في طيّاتها بشيءٍ ما يخفيه عنها، قبّل رأسها وأودعها معاوية وثريا الباكية، التي احتضنته لتبلل بدموعها صدره، أزاحها برفقٍ طابعًا قُبلةً على رأسها، ثم نظر في عينيْها الكحيلتيْن قائلاً:

- سأعود حينما يستقرُّ بيَ الحال وآخذكم معي حين نعود مرةً أخرى منتصرين، طاردين المحتلين من ديارنا، أعدُكِ يا أمّ معاوية.

التفت ليودّع عائشة القوية -كما كان يدعوها-، كانت عيناها تتحدّث فقط، قرأ في عينيْها دعواتٍ بالنصر وحفظ الله له، ورأت في عينيْه إصرار العودة، خرج سريعًا ليلحق بـفرج بن فرج ورفاقه إلى البشرات.

*****

مضى فرج في طريقه إلى بلدة برذنار في قلب البشرات حاملاً في صدره خذلان أهل البيازين الذي فاجأه، لم يحدث أحد طوال الطريق سوى نفسه التي راح يلحُّ عليها بالسؤال، كيف يرتضون بالذل والهوان؟ وكيف يستسيغون لحم الخنزير سيء المذاق؟ لماذا تمكّنت الدنيا من قلوبهم وارتضوا بحياةٍ كريهةٍ صاروا فيها عبيدًا بعدما كانوا أسياد البلاد؟ بُدّلت أسماؤهم وكنياتهم وأُنزل العذاب عليهم ألوان. يا الله! مالكم يا أهل البيازين خذلتم الشباب! هل خافت قلوبهم من الفشل وأمنوا الاستقرار؟؟

تساؤلاتٌ كثيرةٌ راحت تطرق أبواب عقله الذي لم يتوقف لحظةً عن التفكير في نكسة أهل البيازين له ولشبابه، لحق عبدالرحمن به بالقرب من برذنار التي استقبلتهم بحفاوةٍ بيوتها التي احتضنتها الجبال ذات الكهوف العامرة، بشبابٍ أتى من أنحاء غرناطة، وفي صباح اليوم التالي أذّن مؤذّنٌ أنْ يجتمعوا في ساحة البلدة التي وقف تحت شجرتها محمد بن أمية قائلاً:

- بسم الله الذي تتمُّ بفضله النعَم، لقد بدأت للتوِّ حرب التحرير، واستعادة أمجاد الأندلس، حربٌ لا هوادة فيها، فما أُخِذَ بالقوة لا يُستردُّ إلا بالقوة. ومن هنا! من البشرات ستخرج بشائرنا إلى أهلينا في كلّ القرى والحواضر الأندلسية، وأعاهد الله أمامكم أني لا أبغي ملكًا ولا سلطانًا إنما أريد أنْ يمنّ الله عليّ بإحدى الحسنييْن، النصر أو الشهادة.

جاء صوتٌ من بين الجموع ليسأله:

- وماذا عن أهلنا في غرناطة ومرجها، هل ستتركهم هكذا؟؟؟

دُونَ أنْ يبحث عن السائل أجاب بحزم:

- الصبر يا أخي، فوالله ما دمتُ حيًا لن نترك ثغرًا إلا وقد حررناه من المحتلّين.

ألهبت كلماته صدورًا قد أوجست خيفة، فبايعوه مرةً أخرى سلطانًا على الأندلس فعيّن عمه ابن جهور قائدًا للجيش وفرج رئيسًا للوزراء، وأرسل وفودًا إلى زعماء بلدات البشرات الاثني عشر فبايعوه جميعًا وصار لديه قوةٌ ضاربةٌ في البشرات راحت تتجمع ليلة الميلاد لبدء أولى عمليات التحرير.

*****

اتّخذ ابن أمية من قرية لوشر عاصمةً للثورة، أخذ يتابع منها أخبار الانتصارات على الحاميات القشتالية والإرساليات النصرانية، قام بتعيين قائد لكلّ منطقة، صار ملكًا بالمعنى الحرفيّ حيث كان له كتبته ومستشارون ووزراء، أنشأ كتاتيب لتحفيظ القرآن وعيّن الفقهاء الذين راحوا يبثّون في الأهالي روح الجهاد والثورة، فنبذت الألقاب والأسماء القشتالية المفروضة عليهم منذ عقود وأعادوا أسماءهم وألقابهم الإسلامية، أقاموا الصلوات الخمس وعمرت المساجد وصارت قرى وبلدات البشرات خلال أيامٍ قليلة أندلسًا مصغرةً ومجتمعًا إسلاميًا وسط غياهب الظلام القشتالي.

اختلف الأمر في غرناطة التي راحت بشائر الانتصارات تنتشر بين الأندلسيين فرحةً عامرةً سيطرت على قلوبهم وعقولهم، راحوا يستنشقون نسيم الحرية، فكان

كثيرٌ من شباب غرناطة يلتحق بالثوار في الجبال، مُخلّفين وراءهم أهليهم الذين ساءت معاملة القشتاليين لهم، كان يكفي أن تبتسم حتى يقال إنك متواطئٌ مع المخرّبين المتطرفين، أمّا الردُّ الرسميُّ للملك فيليب فقد تأخّر تاركًا العنان للأهالي النصارى والجنود للانتقام كيفما أرادوا.

وداخل قصر الحمراء نشبت مشادّةٌ بين الرئيس ديسا الذي ألقى اللوم على القائد العام الماركيز دي مندخار، الذي كان يرى أنّ التفاوض مع الأندلسيين سيكون وسيلةً أفضل من القتل والحرق، اتّهمه ديسا بالتواطؤ وذكّره بـدون ريكاردو وما حدث له.

تبادل الاثنان الاتهامات وجاء ردُّ الملك على الشكوى المقدمة من ديسا وأعداء دي مندخار بقرارٍ صادم للماركيز الذي انصاع لأوامر فيليب؛ إذ كلّف شقيق دون ريكاردو بقيادة حرسٍ وطنيٍّ مستقلٍّ عن الماركيز يقوم بتأمين غرناطة، والأمر الثاني الذي زاد دي مندخار غضبًا هو تكليف الملك فيليب الثاني لعدوه اللدود الماركيز بلش القائد العام لمنطقة مرسية بالهجوم شرقًا على البشرات، ويقود هو الجيش الثاني من الغرب لإبادة الثوار في جبال البشرات، تلك الجبال التي تُؤوي عصبةً أرادت الحرية، عصبةً راح يتقدّم نحوها الموت متمثلاً في ماركيزيْن متناحريْن.

*****

على شاطئ ألميرية استقبل مأمون المجاهدين القادمين من الجزائر حاملين المدافع العثمانية، كانوا ٤٠٠ رجلٍ مدرَّبين بين تركيٍّ ومغربيٍّ وجزائريٍّ، كانت مهمته هي تأمين خطوط الإمداد إلى البشرات، تفحّص البنادق وصناديق البارود قبل أنْ يحملها الرجال على البغال وينطلقوا نحو البيرة لتسليم الحمولة إلى فرج بن فرج ، الذي تمركز بفرقته كأوّل حائط صدٍّ من ناحية وادي المنصور المؤدّي إلى ألميرية، ساعاتٌ من المشي دون توقُّف قاد مأمون نور الدين توران القافلة ممتطيًا جوادًا أسودَ كقطعةٍ من ليلةٍ مظلمةٍ أرسله له بيليرباي الجزائر، ومع ارتقاء الشمس إلى كبد السماء الغائمة رأى في الأفق الأعلام القشتالية بألوانها الحمراء والصفراء، راياتٌ راحت تخفق بقوة كقلوب رجاله الذين علموا أنّهم على موعدٍ مع معركةٍ قد تكون الأولى والأخيرة لهم.

نُصبَتِ المدافع على ربوة عالية تُطلّ على وادي المنصورة، تراصّ خلفها المجاهدون وأمامهم ترجّل مأمون عن فرسه وسجد على العشب المكسوّ بالجليد، أخذ يتمتم داعيًا، قبل أنْ ينهض ليَجِدَ أنّ كلّ الرجال خلفه قد فعلوا مثله، نظر إليهم مُمسكًا بلجام فرسه قائلاً:

- نحن على موعدٍ مع الجنة، فبسم الله نبدأ.

ثم أعطى أشارته للمدفعية بأنْ تُطلق قذائفها، كان جيش الماركيز بلش بعيدًا، فجاءت أصوات المدافع القوية تزلزل الأرض وتردُّ الجبال صدى صوتها القوي، فزعت الخيول القشتالية ومَن فوقها، لا يعرفون من أين تأتي تلك القذائف المباغتة التي كانت تسقط بالقرب منهم ليتناثر خليطٌ من الطَمْي والثلج والشجيرات المنسوفة نسفًا. لم يكن أمام الماركيز بلش سوى الانسحاب عائدًا إلى ألميرية خاسرًا أولى مواجهاته، خاف من التقدُّم وأنْ يقع في فخٍّ توهّم بوجوده؛ لو علم أنّ عدد رجال مأمون أقل من واحد بالمئة من قواته لتقدّم وسحقهم ولكنه فضّل العودة إلى أحواز ألميرية، وفي الجانب الآخر سادت الفرحة العارمة بين الرجال الذين أمرهم مأمون بترك الربوة والذهاب إلى هدفهم الأصلي نحو البيرة.

*****

تحت جنح الليل سارت دوريات القشتاليين في حارات البيازين تمشّط كلّ أجزائها بتوتّرٍ، فقد وصلتهم إشاعاتٌ تفيد بأنّ المسلمون يقتربون من غرناطة لتحريرها وأنّ أهل البيازين سيقومون بثورةٍ داخليةٍ تشغلهم حتى يتسنّى لجيش بن أمية الدخول إلى أحياء غرناطة.

تحرّك كعادته بين الظلال متخفيًا بزيّه الأسود، اضطر أنْ ينتظر قليلاً متعلقًا بأحدي الشرفات حتى مرّت دوريةٌ قشتاليةٌ كانت تتنقل من منزلٍ إلى آخر تفتّشه وتبحث عن أسلحة أو أيّ دليلٍ يَمُتُّ للثوار بِصِلَة.

قفز برشاقة مُمسكًا بأحد أغصان شجرة الأضالية التي تأتي فروعها من داخل منزل صفية، تسلّقها متجاوزًا فروعها المغطاة بالثلج حتى صار على سطح المنزل، كان السكون يعمُّ المكان، نزل بحذرٍ إلى صحن الدار باحثًا بعينيْه عنهم، صعد الدرج ليتفاجأ بعائشة التي كانت تقف ممسكةً بعصًا ملوّحةً بها في وجهه، كادت تُطيح

به عبر الدرج لولا صوته الذي باغتها:

- إنّه أنا يا عائشة.

تسمّرت في مكانها وهي تحاول فكّ طلاسم الظلام، أزاح اللثام ليطْمئنّ قلبها، ارتمت بين ذراعيه باكيةً، أقلقه بكاؤها فأبعدها برفقٍ قائلاً وهو يمسح الدموع التي راحت تنهمر بغزارة:

- هل حدث لكم مكروهٌ؟؟ ماذا هناك يا عائشة؟؟

أجابته وابتسامةٌ اختلطت بالدموع تعلو وجهها:

- لا، كلنا بخيرٍ. هل تظنُّ أنْ يصيبهم مكروهٌ وأنا هنا؟

ضحك وهو يضع يده على كتفها وهي تخطو معه نحو باب غرفة صفية الذي ما إنْ فُتِح، ورآته ثريا حتى ارتمت في أحضانه هي الأخرى، لحظاتٌ فاضت فيها مشاعره ولم تفارق عيناه صفية الجالسة في الفراش حاملةً طفلَهُ معاوية. تقدَّم وقبَّل يدها، احتضنته قائلةً:

- كنتُ أعلم أنك ستعود يا ولدي.

قضى عبدالرحمن ليلته يقصُّ عليهم أخبار الانتصارات والهزائم؛ أخبرهم عن أولى المعارك الكبرى قرب جسر طبلاتة وكيف دمَّره المسلمون حتى لا يعبر جيش دي مندخار، وكيف نجح شعبان بن ميكيل في التصدّي وإلحاق خسائرَ فادحةٍ بجيش الماركيز، أخبرهم عن ذلك التركي مأمون وبطولاته أمام بلش قرب

ألميرية، تبدَّلت نبرته إلى الحزن عندما بدأ يسرد قصص سقوط بعض القرى بيد دي مندخار، وما حدث لها من سَبْيٍ واغتصابٍ وقتلٍ وتمثيلٍ بالجثث على أيدي القشتاليين، وعن سقوط قلعة جلبيش بيد الماركيز وعن استبسال النساء ودورهنّ في الحرب وكيف تقف المجاهدات إلى جانب الرجال في الصفوف الأمامية، ممّا زاد من إثارة عائشة التي كانت تتمنّى أنْ تكون بينهم هناك في الجبال مجاهدةً مثلهنّ، بدأت هي الأخرى في سرد ما حدث منذ خروجه من المنزل.

قصَّت عليه ما يفعله النصارى بهم في الأسواق والتحرُّش بالكلمات واللكمات، سردت له قصة ماريا وزوجها اللذيْن أُحرِقا في ساحة الرملة، لأنهم وجدوا عندهم مخطوطًا عربيًا وذلك الشاب النصراني الذي أحرق منزل فرانكو بن الناقن انتقامًا لموت أخيه الجندي بجيش الماركيز، قطع حديثها مع اقتراب الفجر قائلاً:

- هل صلَّيتُم اليوم؟؟

استبشرت صفية بما سمعته فقالت:

- سنصلّي معك يا ولدي الفجر.

قام فتوضَّأ وأمَّهُم في الصلاة، وبعد انتهاء الصلاة قال لهم:

- سآخذكم معي إلى البيرة، حيث تتمركز قوّاتنا الشرقية.

قالت صفية وقد ساءها ما قاله:

- ماذا؟؟ أتريد أنْ نترك ديارنا ليرتّعوا بها؟ والله ما أترك بيتي حتى يهدمونه فوقي

أو يحرقونني معه.

تدخّلت عائشة:

- يا أمي، الأيام المقبلة ستحمل الأسوأ لأهل غرناطة.

أنهت كلماتها وكأنها تتوقّع ما سيحدث في الأيام القادمة.

*****

«تزايُد الأعداد يخفّف من تأثير الهزائم على النفوس.»

نطقها مأمون مُحدِّثًا فرج بن فرج الذي كان يفيض غضبًا لتلك الأخبار الآتية من قلعة جبليش حيث أُبيدت الحامية عن بكرة أبيها دون رحمة رغم استسلامها، ولم ينجُ النساء والأطفال الذين ذُبحوا لتجري دماؤهم الزكية كنهرٍ جارفٍ راح يسلك القلعة مرورًا إلى الجبل لتكتسي الثلوج باللون الأحمر، كان لتلك المذبحة أثرًا بالغًا في تغيير مجرى الأحداث، حيث راح يتهافت المتطوعون مِن أرجاء الأندلس.

جاء من بلنسية مجموعةٌ من الشباب يحملون المال، وجاء من أحواز إشبيلية بعض المنفيين، كما جاء فتًى شابٌّ مغوارٌ يدعى سانشو الأشبوني من لشبونة بفرقةٍ قدرها سبعمائة رجلٍ أذاقوا حاميات القشتاليين مرارة الهزائم قبل أنْ يصل إلى بسيط أجيجر مُنقذًا ما تبقّى من رجالٍ قادمًا بهم إلى كتيبة بن مكنون قرب

المِيرية.

كان سانشو مرحًا محبًّا للضحك فارسًا لا يشقُّ له غبارٌ، ينحدر من أسرةٍ أندلسية كانت تسكن لشبونة المحتلة من البرتغاليين، ضمّه مأمون إلى فرقته هو ورجاله وصاروا تحت إمرته، كان ثلاثتهم جالسين في مقرِّ القيادة حينما دخل إلى الغرفة مسرعًا أحد الثوار قائلاً:

- لقد دخل ابن مكنون إلى ألميرية وحررها.

صاح فرج فرحًا وراح سانشو يهنّئ مأمون، والرجل يكمل:

- وأرسل الماركيز دي مندخار، ألونسو دي غرناطة ليفاوض الملك محمد بن أمية على أنْ يسلِّم سلاحه مقابل الأمان والنظر في مظالمنا.

تبدّل وجه فرج، أثار قلق مأمون الذي قال مُقاطعًا الرجل:

- ماذا؟!

أجاب فرج:

- يبدو أننا أرّقْنا نوم الملك.

ضحك الحاضرون وسانشو يقول بعربيةٍ بلكنةٍ برتغالية:

- يعلمون أننا سنستعيد فراشنا ومتاعنا منهم، التي هي بالأصل ملكٌ لنا. أتعلمون أنهم يتنافسون بينهم على من يظلُّ أطول فترةٍ دون أن تلمس المياه جسده أو يستحم؟ ولهذا سنجد كامل مقتنيات أجدادنا نظيفةً كما هي.

حظيت البلدة بمظاهر الفرحة، لأخبار دخول بن مكنون إلى ضواحي ألميرية، ظلّت تلك البهجة أيامًا قبل أن يأتي خبر سقوط أندرش وقيام جيش الماركيز بلش بمحاصرة ألميرية التي يتحصّن داخلها بن مكنون، كان على مأمون أنْ يذهب بمددٍ إلى المنكب حيث يحاصر جيش الماركيز دي مندخار حصنها المنيع وفي داخلها البطل الزمار الذي كان أذاق القشتاليين مرارة الهزيمة، قبل أنْ يحرّر الحصن منهم. كان في سباقٍ مع الزمن؛ فانطلق هو وسانشو الأشبوني تطوي أقدام أحصنتهم الجبال ومن خلفهم جيشٌ قوامه ألفين من الرجال الأقوياء المفعمين بالأمل.

*****

على الطريق المؤدية إلى جبل واجر الواقع على حدود المنكب، قابل مأمون قافلةً صغيرةً مكوّنةً من منة وسبعين بين رجلٍ وامرأةٍ وشيخٍ وطفلٍ أُرهقت وجوههم وظهر البؤس جليًا في قسماتها، كان على رأسهم عبدالرحمن الذي ما إن رأى صديقه التركي حتى تهللت أساريره قائلاً:

- أخيرًا التقينا مرةً أخرى أيها الذئب العثماني.

اقترب مأمون بفرسه الأسود الضخم قائلاً:

- إلى أين أنتم ذاهبون يا صديقي؟

أشار عبدالرحمن للقافلة أنْ تستريح، ليقول بعد ذلك:

- إلى بلدة مشينة...

قاطعه مأمون:

- ألمْ تكنْ ضمن قوة حصن واجر؟؟

مطّ عبدالرحمن شفتيه قبل أنْ يقول:

- نعم ولكن تمّ الاستيلاء على الحصن، من قِبَل القشتاليين وقد أُسِر القائد الزمار وابنته وسيق إلى غرناطة، وهؤلاء الناجون الوحيدون.

حرك مأمون رأسه يمينًا ويسارًا بضيقٍ قائلاً:

- حسنًا، لا داعي لذهابكم إلى مشينة، فقد هاجمتها قوات دي مندخار.

باستغرابٍ ولهفةٍ لمعرفة ما حدث سأل عبدالرحمن:

- وابن أمية؟؟

انحنى مأمون هامسًا:

- لا تقلق، أنه بخير وقد هرب مع محمد بن عبو إلى مكانٍ آمن.

كانا يتحدثان وعينان زرقاوان تراقبهما، كانت عائشة، قد حفظت أخبار انتصاراته فكلّما ذكر نصرًا ما ذَكَرَ مأمون ذلك البحار المغوار الآتي عبر بحر الروم لمعاونتهم، أخذت تتأمل تفاصيله لحيته السوداء المتناسقة مع شاربٍ زاده وسامةً، زيّه المميز عن بقية الجنود وهيئته التي زادها الفرس الأسود الجامح قوةً ورباطة جأشٍ، جعله زائر أحلامها خلال الأيام التي عسكروا فيها في الوادي قبل أن ينتقلوا

للحاق بـابن أمية وجيشه الذي كان يزداد رغم الهزائم المتلاحقة.

- كيف حالك؟

ذبح سانشو حبال أفكارها ليوقظها من حلم اليقظة الذي كانت غارقةً فيه، نظرت إليه بعينيْها الصافيتيْن ولم تُجبْ، وكز فرسه ليلحق ببغلتها قائلاً:

- أُدعى سانشو... سانشو الأشبوني، من لشبونة حاضرة الثغر الأدنى، أتعرفينها؟

قاطعه صوت مأمون:

- دع الفتاة وشأنها يا سانشو.

أحرجت الكلمات سانشو الذي ابتسم له بخجلٍ قبل أنْ يَكزَ فرسه مرةً أخرى لينطلق متقدمًا الصفوف، غلبتها فرحتها لتكسو وجهها الخمريّ حمرةً زادتها جمالاً، منعها حياؤها مِن أنْ تنظر إليه، ولكنها تغلّبت على حيائها عندما سمعته يحدّثها:

- أنتِ شقيقة عبدالرحمن، أليس كذلك؟؟

رفعت رأسها وأومأت بصمتٍ وتلاقت عيناهما، لم يرَ ذلك السحر الممتدّ بين عينيْهما سوى ثريا التي كانت تهمس في أذن صفية قائلةً:

- يبدو أنّ عائشة عشقت.

تبسّمت صفية ولمْ تُضفْ شيئًا بل تابعت ذلك اللقاء، حيث احتضنتها عيناه السوداوين وتلاطمت أمواج عينيْها الزرقاوين بتلابيب قلبه، لم يرَ مثلها بين

أقرانها من بنات حواء، انتفض وانتشل نفسه من سحر عينيْها قائلاً:

- ما إنْ نوصلكم إلى وجهتنا، سنعود أنا وأخوك إلى غرناطة.

تابعت بعينيْها عبدالرحمن الذي كان يأتي باتجاههم على صهوة جوادٍ كان يومًا ملكَ الزمار قائلاً:

- على ما يبدو أنكما تعارفتما.

ابتسم مأمون، بينما قالت عائشة:

- وهل يجهل أحدٌ الذئب العثماني؟

ألقت كلماتها وهي تحثُّ بغلتها على المضيّ أسرع، لتتركهم خلفها ومأمون يغيّر مجرى الحديث:

- علينا إنقاذ الزمار من أيدي القشتاليين.

أجابه عبدالرحمن وهو يتأمل القافلة:

- إنْ شاء الله ما إنْ نوصل القافلة إلى لوشر سنذهب على الفور إلى غرناطة.

قالها وقد سخّر جوارحه لوضع مخطط إنقاذِ أحد أبطال الثورة، بطلٍ يُدعى الزمار.

*****

٢٤ فبراير ١٥٦٩

أصبح الوضع سيئًا، حربٌ غير متكافئة لا رحمة فيها ولا شفقة، أكبر جيشين نظاميين في أوروبا بأسلحةٍ حديثةٍ ومدافعَ لمباردية بجانب مرتزقةٍ ولصوصٍ من كافة أنحاء أوروبا، كلُّ هؤلاء أمام المسلمين بأسلحتهم البالية ومتطوعين لم يتمّ تدريبهم، لم يكن أمامهم سوى حرب العصابات التي فاز في كلّ جولاتها المسلمون حيث حصدت الكمائن أرواح الفرق القشتالية، وفي غرناطة وكافة المدن المحيطة بها شرع الجنود في قتل عائلات ونساء وأطفال الثوار، زادت قسوة ديوان التفتيش من بإصدار أحكام الإعدام والتعذيب حتى على الموتى فأخرجوهم من القبور وصلبوهم في الميادين.

أمّا الأحياء، فكان يباع بعضهم ويحتفظون ببعضهم سبايا وعبيدًا. أمّا البيازين المتخاذلة، فَرَاحَ أهلها يتعرّضون لمضايقاتٍ وتحرُّشاتٍ لا حدود لها.

في تلك الأثناء تسلل الغرور إلى الماركيز دي مندخار، فظنَّ أنّه يستطيع أنْ ينهي تلك الثورة بالتفاوض مع الثوار، أرسل المبعوثين إلى الملك يحثُّه على التفاوض مع الثوار وأنّ نهايتهم سواءً عسكريًا أو سلميًا ستكون سريعةً، والأفضل الحلّ السلميّ الذي يضمن عدم إراقة دماءٍ وتعايشٍ بين الجميع على أرض حملتهم لسنين سويًا، منحت تلك المفاوضات الأندلسيين وقتًا ليستعيدوا عافيتهم من الهزائم المتتالية.

راح آلاف المتطوّعين يتوافدون على البشرات من أرجاء الأندلس حتى من مملكة

أراغون في الشمال الشرقي ومن قرطبة وجيان، وعلى الجانب الآخر فقد الماركيز القدرة على السيطرة على جنوده الذين راحوا يداهمون القرى دون أوامره يعيثون في الأرض فسادًا ونهبًا وقتلًا، ارتكبوا أفظع الجرائم من مذابحَ راح ضحيتها آلافٌ من الشيوخ والنساء والأطفال، وهنا قرر بن أمية وقف المفاوضات لينشر قواته مرةً أخرى لتُستَرَدّ قرى وجبال البشرات مرةً أخرى ويَبسُط الأندلسيون نفوذهم من جديدٍ على الجنوب الأندلسي الذي تحررت أغلب مدنه وبلداته إلا من غرناطة.

غرناطة الذابلة، هكذا صارت! أصبحت طرقاتها خاليةً، الكلُّ متوجسٌ وخائفٌ، أخبار الانتصارات الأخيرة أخافت الأندلسيين قبل القشتاليين؛ فمع انتصارات المسلمين يصبُّ القشتاليون وابلًا من الغضب على الأُسَرِ الأندلسية. زادت الإشاعات عن قدوم جيش السلطان محمد بن أمية الذي أصبح رمزًا تفخر به الأمة الأندلسية، صارت بطولاته هو ورفاقه على موائد القشتاليين قبل الأندلسيين، أصبح بن أمية وجيشه يؤرّق نومهم.

داخل مقرّ ديوان التفتيش بالقرب من قصر الحمراء سار راهبان مُتّشحان بالسواد من أعلى رأسيْهما وحتى أخمص قدميْهما، تجوّلا بهدوءٍ عبر الممر المؤدّي إلى زنزانة القائد الزمار، أمر أحدهما الجندي المكلف بحراسة الغرفة بأن يذهب للاستراحة، دلفا إلى الداخل، كان مُعلّقًا على الحائط وقد غُرِسَت أسياخٌ حديدية في ذراعيْه وقدميْه كما رُسِم على جسده خريطةٌ من الجروح والدماء التي شوّهت جسده الشاحب، وأمامه على كرسيٍّ يتوسّط بركةً من الدماء، كانت ابنته

قد فارقت الحياة وقد اخترقت الأشواك الناتئة من الكرسي لحمها، المسكينة! تركوها تلفظ أنفاسها أمام أعين والدها ليذيقوه أسوأ أنواع العذاب وليموت قهرًا وكمدًا على ابنته.

ما إنْ رآهما حتى ابتسم بتهالُك قائلاً بوهنٍ:

- هل حان الوقت لقتلي؟

جاءه الجواب من خلف الوشاح الأسود بصوتٍ عربيٍّ مألوف:

- بل لتحريرك يا أبا عبد الله.

تزامن الصوت مع وجه عبدالرحمن الذي أزاح الغطاء عن رأسه كما فعل مأمون، الذي ذهب ليقف مواربًا الباب، بينما حاول عبدالرحمن أنْ يفكّ وثاق الزمار الذي تأوّه بشدّةٍ قائلاً:

- عبدالرحمن، اتركني.

لم يبالِ عبدالرحمن بكلماته وهو يحاول جاهدًا حلّ القيود عنه، والزمار يقول باكيًا:

- أخبروني، كيف صرتم؟!

تمالك عبدالرحمن تلك الرماح التي غُرست في قلبه مع رؤيته لدموع الزمار الذي أكمل متألمًا:

- لا تهنوا ولا تحزنوا لرؤيتي هكذا، فوالله لا أندمنّ على فعلٍ فعلته في سبيل

نصرة الحق.

في تلك اللحظة أيقن عبدالرحمن بعد عدّة محاولاتٍ أنّ نزع تلك الأغلال والقضبان الحديدية شبه مستحيل، فقد يودي ذلك بحياة الزمار الذي راح يتمتم بكلماتٍ غير مفهومة، مِمّا جعل مأمون يقول:

- يبدو أنّه في سكرات الموت.

رمقه عبدالرحمن قائلاً:

- لن نتركه، بين أيديهم.

تقدّم مأمون محدّثًا الزمار الذي انتابته حالةٌ مِن اللاوعي:

- يا أبا عبدالله، لا تُلقِ بالاً فقد خلّفتَ رجالاً لا يبغون سوى ما أردت؛ النصر أو الشهادة.

حرّك الزمار رأسه بتهالُك وشبح ابتسامة، حاول أنْ يحرك شفتيه عندما تعالى وقع أقدامٍ يقترب من غرفة العذاب، تبادلا النظرات قبل أنْ يسدلا على رأسيْهما البُرنُسيْن، وبتوتُّر فتح مأمون الباب ليخرج ومن خلفه عبدالرحمن الذي ما إنْ لمح القادمين عبر الممر الضيق حتى انتابته قشعريرةٌ باردةٌ غَزَتْ أطرافه التي ثقلت فجأةً لتوقّفه عن التحرُّك، فكان أمامه آخر شخصٍ يتوقّع رؤيته في هذا العالم.

*****

وكأنّما توقّف الزمن عند لقاء عيونهم، عرفه برغم تشوّه وجهه وعرجته المستحدثة وذلك الصليب المتدلي على صدره، كان هو وليس إلّا هو؛ دون ريكاردو، عبر إلى جوارهما متفحصيْن إياه، نظر إليهما بعينيْن ثاقبتيْن ووجهٍ قبيح، كان يرتدي زيّ الرهبان البنيّ اللون، ما إنْ مرّ حتى لكزه مأمون حاثًا إياه على المضيّ قدمًا، عندما جاء صوت دون ريكاردو من خلفهما:

- هل انتهيتما من استجواب ذلك المرتد؟؟

التفت عبدالرحمن بسرعةٍ قائلًا بالقشتالية:

- نعم.

بينما ظلّ مأمون مُوليًا ظهره لهم ممّا أثار فضول الراهب ريكاردو أو هكذا صار اسمه، بعد أنْ نجا من الحريق وذلك الجرح الذي احتلّ صدره، أسماه بعضهم القديس ريكاردو لنجاته كما يقولون بقدرة الربّ ومعجزةٍ حفظتْ روح الماتموروس، الذي تشوّه جسده ووجهه، ليصبح بعد ذلك أحد رهبان محاكم التفتيش يصبُّ وابل سخطه وكرهه على المسلمين.

تقدّم ببطءٍ نحوهما وهو يتأمّلهما قبل أنْ يقول وقد أصرّ عقله على أنّ هناك شيءٌ ما:

- عرْفًا عن نفسيكما.

وكان الجواب مفاجئًا حينما استدار مأمون مُزيلًا غطاء رأسه وساحبًا سيفًا من ظهره كان قد أخفاه برداء راهب التحقيق الذي يرتديه، لوّح به في وجه ريكاردو

الذي كاد السيف يشطره نصفين والذي تفادي الضربة بأعجوبةٍ لا تتناسب مع حركته البطيئة بفضل عرج ساقه اليسرى، أمّا عبد الرحمن فقد أخرج خنجريْه بسرعةٍ من ذراعيْ ملابسه مُرسلًا إياهما إلى صدريْ حارسيْ ريكاردو الذي جحظت عيناه من فرط المفاجأة ليصرخ بقوة:

- دخلاء! مسلمون! دخلاااااااااء.

ردّدت الجدران صدى صوته، ممّا جعل مأمون يمسك ذراع عبدالرحمن بقوةٍ قائلًا:

- هيا، لا وقت لدينا.

رمق عبدالرحمن ذلك القبيح الملقى أرضًا ووجهه الشاحب يبادله النظرات المَاقتَة الخائفة، قبل أنْ يقول:

- لنا موعدٌ لن نُخلفه يا هذا.

ركضا عبر ممرات محكمة التفتيش ومن خلفهم كان وقع أقدام الجنود قويًا، حالةٌ مِن الفوضى عمّت المكان، وفي الخارج اشتبك سانشو مع فرقةٍ من الحرس هو وبضعٌ من رجاله الذين تكالبت عليهم السيوف، ليسقط سانشو متأثرًا بجراحه أمام ناظريْ مأمون وعبدالرحمن الذي حاول أن يذهب لمساعدته ولكنّ مساعدته تعني نهايتهم أيضًا، فقد سبق السيف العذل.

لم يكن ريكاردو بأفضل حالًا وغضبًا منهما فقد كان يشعر بحنقٍ وغضبٍ شديد، ففَاضَ الكُرْهُ مِن لسانه الذي راح يصرخ بالجنود الذي حملوا جسد سانشو المثخن بالجراح إلى الداخل، وقف ريكاردو في الساحة قائلًا:

- لقد أتى المسلمون لأخذ غرناطة منا، لقد أتت طلائعهم إلى داخل سجوننا، اقتلوهم وأحرِقوا قلوبهم وأملاكهم، اقتلوا المهرطقين الكفرة، قبل أنْ يأتي أعوانهم للفتك بنا.

راحت كلماته تخترق قلوبًا ملئت بحقد زاده خنجران غُرسا في صدور رجال ريكاردو، ثاروا فحملوا المشاعل ومن خلفهم جموع النصارى، واتّجهوا إلى سجن غرناطة، حيث يقبع بداخله أعيان المدينة وبعض الثوار الأسرى.

*****

في بعض الأحيان يكون الصمت فريضةً تحاول البحث فيها عن السكون ومحاولة تدبُّر الأمور، لم يكن أمام عبدالرحمن سوى أنْ يترك سانشو لمصيره فقد عاش بطلاً، ومات بطلاً! هكذا ظنّا؛ أنّه قد قضى نحبه، ولكنّ الأمر لم يكن هكذا، فقد حُمِلَ جثمانه إلى داخل غرف محاكم التفتيش وجرحه النازف يرسم خطّ سَيْر الحراس به، أرقدوه على أحد المناضد الخشبية أوثقوه إليها، جاء من يكوي جرحه بالنار ليوقف النزيف حتى يتسنى لهم بعد ذلك من استجوابه قبل أن تبدأ مراسم التعذيب المقدسة.

لم يكن مأمون بأفضل حالاً من مُرافقه فقد أبحر بعقله إلى بلاده حيث عزة المسلمين فرضٌ على القاصي والداني، هناك في إسلامبول حيث تتوافد رسل ملوك أوروبا صاغرةً تنحني للسلطان سليم ومن قبله السلطان المعظم سليمان

القانونيّ. ماذا فعل مسلمو الأندلس ليحدث معهم هذا؟؟

مَن المُتسبِّب في إضاعة مُلْك أضاء أوروبا المظلمة؟؟ آااه يا أندلس العزة والمجد! يكتب شعبك ملحمة صمود مُحاولين الإبقاء على دينهم وبلادهم، تخاذَلَ ملوكهم عن الجهاد واهتمّوا بالغناء والجواري والتنافس على أمور الدنيا، فسدت أمور دنياهم فضاعت بلادهم، هل يأتي يومٌ على الدولة العليّة وتصبح مثل الأندلس؟؟

نَفَضَ تلك الأفكار عن رأسه مع احتلال قمره لسماء قلبه، عندما يعود سيطلب يدها من أخيها، كان ينوي أنْ يفاتحه في الموضوع، ولكنّ خسارتهم لسانشو والزمار ورفاقهم لجمت لسانه وعقله، أخذ يتذكّر ضحكات الشاب الأشبوني، ذلك البطل الضاحك الذي سقط صريعًا ليسمح لهم بالهروب، لا يمرُّ يومٌ إلا ويخسر صديقًا بين شهيد ومعتقل، يا لها من دنيا قاسية! تلك التي تُسلَب منّا بسماتٍ أنارت غربتنا في أراضينا!

داخل مقرّ ديوان التفتيش، كان ريكاردو يجلس مُداعبًا لهيب أحدى الشموع بأصابعه وهو يحاول أنْ يعتصر عقله أين رأى تلك العيون؟؟ لقد رآها من قبل، نعم هي تلك العين الثاقبة للقاتل الأندلسي الذي اقتحم داره، وتسبَّب له بتلك العاهات، أطفأ ضوء الشمعة بأصابعه ليتراجع بعد ذلك مسندًا ظهره إلى كرسيه الخشبي وقد وهجت عيناه وتلك الابتسامة الصفراء ترتسم على شفتيه، فقد علم ما سيفعله بالأسير الجريح.

*****

(٥)

روحٌ جديدةٌ

«الوضع هادئ تمامًا في الداخل... فكلُّ الأندلسيين أمواتٌ.»

هكذا قال ريكاردو لخصمه القديم الماركيز دي مندخار عندما جاء إلى سجن غرناطة ليعرف ما حدث أمس، فقد قتل ما لا يقلُّ عن مائة وخمسين سجينًا من أعيان غرناطة وأهلها، لم يُبقِ ريكاردو على حياة أحد داخل السجن سوى أنطونيو دي بالور والد محمد بن أمية، أيامٌ قضتها غرناطة حزينةً كئيبةً، وسرعان ما بادر أهلُ بعض مُدُنِها بالهجوم على قوات جيش دي مندخار وكبَّدتهم خسائرَ فادحةً، وفي المقابل زاد عنف الجنود الذين فقد الماركيز السيطرة عليهم، ليرسل للملك مُقِرًا بفشله في حرب العصابات التي يشنُّها الأندلسيون على قواته التي أصابها

الجنون وراحوا يسفكون الدماء دون رادع.

أمّا المسلمون، فقد كان الموت في سبيل الله أسمى غايتهم وخيرٌ لهم من أنْ يذبحوا كالخراف على أيدي القشتاليين.

في المقابل عُزل فرج بن فرج من منصبه لما فعله عندما اقتحم أحد المعسكرات القشتالية وقام بقتل الجميع انتقامًا لما فعله القشتاليون بالأسرى في غرناطة، ولم يُرضِ ذلك السلطان محمد بن أمية، عُزل لينضمّ إلى صفوف الجنود مجاهدًا ولم يَفُتَّ هذا من عزمه وإصراره على مواصلة الثورة التي بدأها، بينما تهافتت الجموع على القدوم إلى جبال البشرات والانضمام للثورة التي وصلت معاركها إلى أسوار غرناطة الدامعة التي تنتظر فرجًا قد طال غيابه وتحترق سماؤها شوقًا لصوت أذان تُردِّده الجبال من حولها.

أيامٌ مضت منذ واقعة السجن التي كانت حديث البلاد، إلى أن جاءت رسالة السلطان سليم الثاني، قرأها الحبقي على ابن أمية والحضور الذي كان بينهم عبدالرحمن وصديقه التركي مأمون الذي كان في قمة الشوق لمعرفة ما ينوي السلطان فعله حيال الحرب الأندلسية الكبرى، ولكنّ الرسالة كانت قاسيةً على قلوب الحاضرين.

خرج المصلون من مسجد البلدة بعد الانتهاء من صلاة العشاء، تجمّع بعضهم على قارعة الطريق يتبادلون الحديث بأسًى يعزُّون أنفسهم والأسى يعتصرهم، فقد تأخر المدد وقُتل الكثير في سجن غرناطة، مرَّ عليهم فرج بن فرج مُلقيًا

السلام فردَّ عليه الجمع الذي كان من بينهم دييكو الوزير، الذي كان أخًا لزوجة محمد بن أمية، كان فرج يتحدَّث مع أحد مرافقيه عن تطورات الأمور في الثورة عندما جاء من خلفه صوت دييكو الوزير قائلاً بسخرية:

- هل أصبح السيد عبدًا عند السلطان الصغير؟!

توقَّف فرج عن السير والتفتَ رامقًا دييكو قائلاً:

- كلنا عباد الله، أرى أنك لا تَنْتَقِصُني ولكنْ تنتقص السلطان محمد بن أمية نسيبك أوَليس كذلك؟

بحنقٍ نظر إليه دييكو قائلاً:

- لا لم أقصد ذلك.

ألقاها وهو ينظر في وجوه رفاقه الذين تعجَّبوا من فعلته، بينما قال فرج:

- لن أعاتبك يا دييكو على فعلك هذا، فأنا أقدِّر ما تمرُّ به فوالله لأن أكون جنديًا بين ظهور رجال لا يعرفون الخوف خيرٌ من أنْ أكون قائدًا لا يحسن التصرف، لقد امتثلت لأمر السلطان فهو يرى الأصوب، وإنْ كان السلطان أصغرنا سنًّا فهو أكبرنا مقامًا، يكفي حسن خُلُقه وحبّ الناس له.

مضى في طريقه تاركًا خلفه دييكو الوزير ونيران الحقد تلتهم قلبه الذي كان ينبض بالكراهية لنسيبه محمد بن أمية، ذلك السلطان الذي انتشرت قصص شجاعته ورجاحة عقله، السلطان الذي يزداد مؤيدوه ومحبوه كلَّ يوم.

*****

بين البساتين الخضراء حملت عائشة الصغير معاوية وراحت تداعبه وعبق الربيع الأندلسي يملأ بنفحاته الأجواء، فالزهور تفتّحت بمختلف ألوانها وعين الماء تفيض بخريرٍ يبعث الصفاء في قلبها لتترجم شفتاها ما يفيض بداخلها في أبياتٍ دومًا ما كانت تنشدها:

أنا الذي ما لي سنيدْ

لمنْ نُعَاوِدْ قصتي

حتى بقيت وحدي فريدْ

حَنُوا الطيورْ من غربتي

لو كانَ جسمي من حديدْ

ظنيت يذوبْ من زفرتي

للصبر ما طقتُ الرجوع

ولا لهُ عندي خبَر

فاضتْ على خدّي الدموعْ

شيءْ خفيته قد ظهرْ

فارقتُ ناسي والربوعْ

الله يلهمني الصَبرْ

في القلب موضع للحبيب

إن غاب عنه أو حضر

- ما أروعها من كلمات!

انتفضت لتحتضن معاوية بقوةٍ وقد أفزعته خفقات قلبها المُتسارعة والتي سمعها الصغير عندما ضمته لصدرها، التفتَتْ وعلامات الهلع على وجهها لتجد مأمون يقف أمامها، مرتديًا قميصًا أسودَ زاد إطلالته وسامةً وابتسامةٌ ساحرةٌ رُسمت على شفتيه وهو يقول:

- اعذريني إنْ كنتُ أفزعتكِ.

بادلته الابتسامة بخجلٍ لتُشيح وجهها عنه قائلةً:

- منذ متى وأنت تستمع إلى كلماتي؟؟

مدَّ يديْه طالبًا حمل الصغير عنها قائلاً:

- منذ داعبت خُصلات شَعرِك شمس الربيع المُشرقة، وملأتِ البشرات ببشائر صوتك العذبِ.

احمرَّ وجهها خجلاً وعيناها الزرقاوان تتحاشيان النظر إليه وهو يقول:

- يبدو أنك تفتقدين ديارك، أو أنّ هناك حبيبٌ قد تقطّعت الأوصال بكما بعد الرحيل.

قالت مُحاولةً أنْ تبدِّل مجرى الحديث لتسأله عن آخر مستجدات الأمور في الحرب المشتعلة، أجابها وقد فطن لمحاولتها تغيير مجرى الحديث:

- نعم إنها مشتعلةٌ بقلبي منذ رأيت عيناكِ.

قالت بصرامة:

- مأمون، أتحدَّث عن الحرب وليس الحبّ.

ضحك قائلاً:

- وما الحبُّ سوى حربٍ يخوضها القلب من أجل الحصول على محبوبته.

رأى في عينيْها فيضًا من الخجل فتمتم مكملاً:

- لقد اشتعلت ثورة مَن يدعون أنفسهم البروتستانت في أراغون وقطالونيا، ويبدو أنّ فيليب يترنَّح من أثر حربنا، فهو الآن يخوض أكثر من معركة في هولندا وفرنسا ومع دولتنا العلية.

قاطعته:

- هل سيأتي المدد من السلطان سليم؟؟

امتقع وجهه وهو يقول:

- ليس الآن، فالأسطول الهاميوني المظفر في معارك ببحر الروم مع القبارصة الخونة، وسيتأخر المدد.

مرّت دقائقُ صمتٍ، تجوَّلا خلالها بين حقول الزيتون قبل أن يقول:

- لقد استدعى فيليب أخاه دون خوان النمساوي لقيادة الحرب، فهي حربٌ مقدسةٌ لهم، كما أنّ مرتزقةً من أنحاء أوروبا يتوافدون إلى غرناطة، ويبدو أنّ القادم أسوأ.

أطلقت تنهيدةً تعبِّر عمّا يجول في صدرها، توقَّفت بعدها وهي تقول:

- لا غالب إلا الله.

أومأ برأسه وعيناه تحاول فكّ طلاسم جمالها الساحر، مدَّت يدها إليها قائلةً:

- عليَّ أنْ أعود، فالوقت تأخَّر.

ناولها الصغير الذي كان يمسك بلحيته لا يريد أنْ يتركها، أضحكها فحملته وراحت تسرع الخطى مبتعدةً عندما جاءها صوته صائحًا:

- عائشة، هل تقبلين الزواج بي؟

خفق قلبها لتسرع الخطى دون أن تتوقف أو تلتفت وقد راحت النسمات الباردة تلفح وجهها لترطِّب لهيب الحب الذي اشتعلت ناره في جسدها، عشقته، أحبّته، وذابت في لحظاتهم عشقًا.

*****

اكتظّت الطريق المؤدية إلى ساحة باب الرملة بالمهاجرين القشتاليين الذي أتت

بهم سلطات الاحتلال لتوطينهم في غرناطة، والذين كانوا في طريقهم لحضور مراسم حرق بعض المسلمين على شرف قدوم دون خوان إلى المدينة. كان في استقباله زوجات الجنود القشتاليين متّشحات بالسواد حاملات أطفالهنّ وينادين بقتل الموريسكيين، كان الأمر عبثيًا ومثيرًا عندما توقّف أمامهنّ واعدًا إياهنّ بالانتقام لذويهم، وبعد يومين استقبل وفدًا من الأندلسيين رفضت طلباته بغطرسة وإهمال.

ليأتي يومُ خروج الدون خوان إلى الحرب بعد أن عُقِدَ مجلس الحرب الذي كان أحد أعضائه دي مندخار، الذي حاول جاهدًا دون تهجير الأندلسيين من غرناطة ولكنه فشل كما فشل من يرون أنّ الهدنة والمفاوضات هي الحل، أما ديسا فقد كان في شدّة فرحه لهذا القرار الذي بموجبه ستتمّ مصادره الديار والممتلكات، الأمر الآن بيد الملك الذي سيصادق على التهجير قريبًا.

ستبدأ المراسم بحرق بعض المتطرفين في ساحة الرملة وبحضور الأمير دون خوان، وداخل ساحة الرملة انتشر رهبان ديوان التفتيش بزيِّهم الأسود، يقفون في دائرةٍ عزلت العامة عن هؤلاء الشبان الذي كانوا مقيدين إلى صَارٍ خشبيٍّ يعتلي كومةً مِن الحطب والأخشاب الجافة، كان من بين هؤلاء الشباب البطل سانشو الأشبوني الذي بدا على وجهه شحوبٌ من أثر التعذيب الذي طاله طوال شهر على يد الدون ريكاردو ماتمورس. بدأت البيارق والرايات ذات اللونين الأحمر والأصفر في البروز مِن مفترق الطريق يتقدّمها حاملو الطبول بملابسهم الضيقة وقبعاتهم ذات الريش الأسود معلنين عن قدوم دون خوان وهو يمتطي جوادًا

ضخمًا نزل عن صهوته ليعتلي مقعده على منصة تُشرِف على الساحة حيث سيتمّ إعدام أبطال الثورة سانشو ورفاقه.

أمام نظرات دون خوان، بدأ ريكاردو في تلاوة طقوس ومراسم حفل الحرق، بينما ظلّ سانشو مبتسمًا في وجه دون خوان الذي تعجّب كيف يبتسم مَن هو مقدمٌ على الموت، أمّا بالنسبة لسانشو فكان الموت أو الإفراج سيّان، كان يتمتم ببعض آيات القرآن قبل أن يأتي صوت ريكاردو مناديًا إياه:

- سانشو بن ألفونسو بن طاهر الأشبوني، أنت متهمٌ بالهرطقة وتخريب الممتلكات والدخول إلى أراضي مملكة قشتالة دون أذنٍ، وقطع الطريق وإثارة الرعب بين سكان مملكة غرناطة و...

قاطعه سانشو قائلاً بصوتٍ قويٍّ سمعه كلّ الحضور:

- كاذبٌ.

ساد الصمت والوجوم، فلم تَعُدْ تسمع إلا همسًا بينما أكمل سانشو:

- لستُ مهرطقًا ولم أخرِّب ممتلكاتٍ كانت يومًا لأجدادي، أنتم من خرَّبتم المساجد وحوّلتموها إلى كنائسَ كما أنني لست أحتاج إلى إذنٍ لأدخل إلى أرض أجدادي وبلاد آبائي، حدود ممالكِكُم زائفةٌ، الحدود ترابٌ ولا حدود بين أرض الإسلام.

صاح ريكاردو بحنقٍ:

- اصمتْ أيها الكافر.

صاح سانشو بالمقابل في وجه ريكاردو القبيح:

- هل تظنون أنكم بحرقنا تمحون آثارنا؟ فـوالله ستبقى قصصنا وآثارنا شاهدةً على عظمتنا وأمجادنا، سنبقى رغم أنوفكم.

في تلك اللحظة، أشار دون خوان بيده، ليبدأ الجلاد في إشعال النيران أسفل كومة سانشو الذي قال بثباتٍ وقوة شهادة الحقّ للإله الواحد الفرد الصمد وأنْ صَفيَّهُ وخليله محمد نبيًا ورسولاً.

وما إنْ اشتعلت النيران راحت الجموع القشتالية تصفّق وتطلق الصيحات فرحًا بحرق ذلك البطل الذي أذاقهم مرارة الهزيمة مراتٍ ومرات، وهكذا انطوت صفحة سانشو الأشبوني فارس لشبونة والثغر الأدنى، مات لتبقى كلماته خالدةً في نفوس من حضروا نهايته.

*****

لم يخرج دون خوان للحرب بناءً على توصيات أخيه الملك فيليب، والذي كان يخاف أن يُقضى على أخيه فيفوز المسلمون فوزًا معنويًا يقوّي من عزيمتهم في المعارك وانضمام المزيد إليهم، وفي المقابل راح محمد بن أمية سلطان الأندلس يذيقهم من الخسائر أصنافًا بين معاركَ مباغتةٍ فتكون الغلبة له أو عملياتٍ خاطفة داخل المدن، فتكبّد القشتاليون مزيدًا من الخسائر، انتصاراته عمّت الربوع وجاءه

مِن المتطوعين من الثغر الأعلى حيث سرقسطة وأراغون ستمائة متطوعٍ ومن طليطلة وأحوازها جاء ألفٌ ثم تَبِعَهُم مائةٌ من جيان، أمّا غرناطة وبلداتها وقراها فقد كانوا في قلب الثورة النابضة.

وجاء من الجزائر والمغرب والأتراك بعض المجاهدين، الأخبار السيئة وحدها التي تأتي على عجلٍ، أمّا القصص السارة فتأتي مُتأنِّية، هكذا كانت أيام المجاهدين في كلّ البلدات والقرى.

انهمك عبدالرحمن في القتال وتخصّص في الحروب داخل المدن، فكان أحد رجال الحبقي في وادي أش، وكان إلى جانبه أيضًا يوم ألميرية التي حُرِّرَتْ من الاحتلال القشتالي وتبعتها رُندة مدينة الجبال. انشغل عن عائلته بالمعارك، أصبح لا يزورهم في أجيجر إلا قليلاً يقضي بعض الوقت مع معاوية الصغير ثم يخلو بثريا لبضع ساعاتٍ يُعمِّر قلبه بحبها وتتلاقى أرواحهما ثم يقبّل رأس صفية التي لا تبخل عليه بالدعوات الصالحة، تبحث عيناه عن عائشة فيجدها بين الحقول هائمةً، تحمل عيونها أحلامًا ضائعةً، وتزيِّن ذاكرتها صورة فارسها النبيل ذي الفرس الأصيل.

- مأمون، علينا التقدُّم إلى حاضرة غرناطة، فالطريق خاليةٌ وقد فرَّتْ من أمامنا فِرَقُ القشتاليين.

انتشلته كلمات ابن جهور من أحلام يقظته التي كانت هي ضيفتها، التفت مأمون إليه قائلاً:

- ماذا كنتَ تقول؟؟

عقد ابن جهور حاجبيْه مستغربًا:

- كنتُ أقول، إنه يبدو أنّ الوقت قد حان لندخل حاضرة غرناطة...

قاطعه مأمون:

- لا أظنُّ ذلك، فقد يكون فخًا. كما أنّ عددنا سبعمئة فارس فقط.

- ولكنّ الطريق خاليةٌ وكما ترى نحن في أعلى التلة وغرناطة ممتدةٌ أمامنا، لو كان هناك جيشٌ يحرسها لكنا نراه، أليس كذلك؟؟

ألقى مأمون نظره على رجاله المُرهَقين قبل أن يقول:

- الأمر بعد الله إلى السلطان ابن أمية. وبما أنه ليس هنا، فلن أخطو خطوةً دون أن أستشير رجالي.

حاول ابن جهور أن يستوعب ما قاله مأمون، فسأله:

- ولكن أنت قائد تلك السَّرِيَّة، ولك الصلاحية لتفعل ما تراه صوابًا؟؟

استدار مأمون بفرسه ليواجه الجنود محدثًا إياهم:

- يا إخوتي، فلتنصتوا لي قليلاً! إن غرناطة أمامكم وكما ترون لا حامية تحميها ولا جيش قشتالة يحيط بها ويعتلي أسوارها، إنْ كنتم تريدونها فلتتقدموا وإنْ كنتم في تعبٍ وخوفٍ مِن فخٍ قد نُصِبَ لنا فلتتأخروا، الأمر لكم أنتم.

سكت لحظات وسارت همهماتٌ بين الجنود قبل أنْ يأتي صوت أحد الجنود قائلاً:

- والله لا نريد إلا الشهادة أو نصرًا مبينًا، وفي الحالتين فُزْنا فمَن استشهد فقد فاز بالجنة ومن انتصر فقد فاز بأجر النصر وبحث في مكانٍ آخر عن الشهادة، ففي كلا الحالتين فائزين أيها الأمير.

أعجبت كلمات الجندي مأمون الذي ابتسم وهو ينظر إلى ابن جهور، ثم استدار ليواجه الجند مرةً أخرى قائلاً:

- والله إنّ صُحبتَكم هذه ليس لها مكانٌ إلا الجنة، فلنتوكل على الله نحو حاضرة غرناطة.

هنا صاح ابن جهور بصوته القويّ في الجنود:

- لا غاااااااالب إلا الله.

ردَّدها وأطلق لفرسه العنان، ومن خلفه تعالت الصيحات وتقدَّموا نحو غرناطة.

*****

جاء الصيف حارًا منافسًا للشتاء الذي رحل مُخلفًا حسرةً في قلوب القشتاليين حيث فقدوا السيطرة على مناطق مملكة غرناطة وبلداتها وأصبح للثوار قوةٌ ضاربةٌ، فقد أنزل محمد بن أمية الهزائم تباعًا على دي مندخار وبلش ذراعْ شقيق الملك دون خوان، الذي تحصَّن داخل حاضرة غرناطة وقد تصدَّت قوّاته

لفرقة مأمون منذ أشهرٍ لتمنعها من الدخول إلى أحياء المدينة.

أجواء الانتصارات عمّت البلدات والمدن المحررة، ثقتهم بالنصر أذكت روحهم المشتاقة لتحرير بقية التراب الأندلسي، لم ينهزم الأندلسيون سوى في معركة وحيدةٍ في فرجليانة أمام تلك القوات الإيطالية التي نزلت على شاطئ البشرات بقيادة دون لويس دي ركسنس، فتى الكنيسة البابوية المُدلّل، الذي كان لنصره دافعٌ قويٌّ في تهافُت المتطوّعين النصارى من فرنسا وأوروبا نحو البشرات في حربٍ صليبيةٍ جديدةٍ تهدف للقضاء على أهل الأندلس الثائرين، وجاء يوم المعركة الكبرى.

بين الجبال الشاهقة والشمس الحارقة، كان محمد بن أمية يتقدّم جيشه المكوّن من عشرة آلاف رجلٍ مُتّجهًا نحو برجة لملاقاة الماركيز بلش، ومن خلفه سارت الكتائب بعزائم قويةٍ حاملين راياتهم الخضراء والبيضاء الخفّاقة، وتلك الكلمات التي خُطّت بالدماء وردّدتها ألسنتهم دومًا «لا غالب إلا الله»، فما كان عليهم سوى المُضيّ قُدُمًا والأخذ بالأسباب وهم يعلمون أنّما النصر من عند الله.

بين الصفوف كان عبدالرحمن يمتطي فرسه وإلى جانبه كالعادة مأمون نور الدين توران، أول مَن دخل حاضرة غرناطة واشتبك مع حاميتها، طوال الطريق راح الصديقان يتبادلان الحديث عن كلّ شيءٍ حتى تطرّق مأمون إلى أمرٍ فاجأ عبدالرحمن بل كاد يُطيح به عن فرسه فرحًا، فقد طلب منه مأمون الزواج من عائشة، فما كان منه إلا أنْ قال:

- إنْ كتب الله لنا الحياة بعد تلك المعركة، أعدُك أني سأخبرها فالأمر أمرها.

ابتسم مأمون وقد راح قلبه يرقص طربًا، لم ينطق بكلمةٍ أخرى خجلاً من صديقه حتى نزل الجيش إلى أرض المعركة، في وادي برجة تواجه الجيشان، نصف ساعة مرّت استعد كلٌّ منهم، حَمَلَةُ البنادق في الصفوف الأمامية، المدافع اللمباردية خلف الجموع القشتالية، ومدفعان فقط في الجانب الآخر أحدهما على يمين ابن أمية والآخر على يساره، الفرسان الأندلسيون في الوسط بخيولهم العربية الخفيفة، وفرسان القشتاليين بدروعهم الحديدية وخيلهم المدرّع الأوروبي، الترقُّب والقلق هما مَن يسيطران على الموقف.

في البداية، ارتفعت الرايات الحمراء من الجانب القشتالي ليتقدّم حَمَلَةُ البنادق في صفَّيْن مُتتالييْن. انتظر ابن أمية ولم يأمر بتقدُّم حَمَلَةِ البنادق في جيشه، حينما قال عمّه ابن جهور:

- ما الذي يؤخِّرنا؟ لماذا لم تعطِ الأمر بالهجوم؟؟

بصرامةٍ أجاب ابن أمية:

- الصبر.

ما إنْ أصبح الجنود القشتاليون في منتصف المسافة بينهم، رفع ابن أمية يده ليدوّي صوت المدفعيْن فهبطت قذائفهما مُفرّقةً الجنود القشتاليين بين جريحٍ وقتيلٍ ومَن بقي حيًا انتابه الفزع وهو يرى رفاقه مقطّعي الأوصال، لم يمهلهم ابن أمية أيَّ وقتٍ آخر، فنادى في جيشه صائحًا:

- الرماةااااا!

يتأمّلها بصمتٍ ففرسه الجامح استكان مع لمسات أناملها الرقيقة لشعره المتطاير، انتزعها من شرودها قائلاً:

- يبدو أنه أحبّكِ.

دون أنْ تلتفت إليه وبابتسامةٍ حملت الكثير من المعاني قالت:

- مَن؟؟

التقط حجرًا مِن الأرض راح يتلقّفه بيده قبل أن يقترب منها قائلاً بصوتٍ اخترقت نبراته قلبها:

- الرئيس مأمون نور الدين توران، غرق عشقًا في بحورٍ أندلسية.

التفتَتْ لتجده خلفها، ضاعت الكلمات من شفتيها وعيناها تستقبل سهام عينيْه الكحيلتيْن، لحظاتٌ سكن الكون من حولهما وتناثرت الورود الوردية في سمائهما.

ارتفعت نبضات قلبها الذي يكاد يخترق صدرها معلنًا عن حبها الصامت له، حياؤها منعها من نطق كلمةٍ لطالما كادت تخرج من حلقها لولا هروبها الدائم، أمّا هو فقد كان يعلم ما يدور بخلدها؛ عيناها تخبره بما لم يفصح عنه قلبها، قرر المبادرة فأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- أحبُّكِ.

وكأنّ ثلوج شتاء البشرات الباردة انهمرت فوق رأسها مع إحساسها تلك القشعريرة الباردة التي اجتاحت أوصالها، تسارعت أنفاسها فتوترت وتخلّل توترها إلى الفرس

الذي صهل مُفزعًا إياها، أفاقت على صهيله لتترك لجامه من بين يديها وتركض مسرعةً، كما هو الحال في كلّ مرة.

ركضت فرحًا وخجلاً حتى وصلت الدار، وما إن أغلقت الباب خلفها حتى توقفت مُسندةً ظهرها إليه وهي تضع يدها على صدرها وكلمته تدوّي في عقلها، لم تدرِ كم من الوقت مرَّ عندما رأتها ثريا التي صاحت بها قائلةً بهلع:

- عائشة! ما بك؟؟

تقدّمت وأمسكت يد ثريا والفرح يقفز من وجهها الباسم وهي تدور بها قائلةً بمرحٍ:

- إنه يحبني يا أمَّ معاوية يحبني!

ضحكت ثريا وهي تقول:

- كُفّي أيتها المجنونة، سأُقتَلُ على يديك، كُفّي!

تعالت ضحكاتهما في الدار ولم تتوقف حتى التقت عيناهما بعينيْ صفية التي كانت تقف على باب المطبخ وعيناها الثاقبتان ترمقهما بصمتٍ قبل أن تقول:

- أجننتما؟؟ ماذا تفعلان؟؟

تبادلتا النظرات وهما تكتمان ضحكاتهما قبل أن تقول ثريا:

- لا شيء، أحاديث فتياتٍ يا خالتي.

وفي داخلهما كانت الضحكات تتردد على ما كانا يفعلانه منذ قليل.

*****

عبر أحد الجنود القشتاليين ساحة باب الرملة في وقتٍ متأخرٍ من الليل، تجوَّل بين حارات البيازين الضيقة حتى قادته قدماه إلى رصيف حدرة، توقف مُتأمِّلاً المياه الجارية فما أجمل أن يجد الإنسان ذاته ويرى أحلامه تتحقق أمام عينيه! فها هو يعود مرةً أخرى إلى حيث نشأ، أفاق من شروده ليجد نفسه جالسًا على ضفاف النهر أسفل أسوار الحمراء، أغمض عينيه مرةً أخرى مُمْعِنًا في صوت خرير الماء العَذْب وهو يجري بلطفٍ وبطءٍ حاملاً معه بعض أوراق الياسمين، ترامى إلى سمعه صوت فرقةٍ من الجنود كانت تمشّط المنطقة بالقرب من القنطرة، فهبَّ واقفًا وأخذ يمشي ببطءٍ نحو حارةٍ تحمل في جنباتها عبق التاريخ، توقف مُلتفتًا قبل أن يفتح باب أحد المنازل ويدلف إلى الداخل.

كان الحال كما هو عليه منذ أن ترك المنزل ورحل، خلع عبدالرحمن قبعته وتقدَّم إلى بركة المياه التي كان يطفو على سطحها بعض أوراق الشجر الجافة، داعب سطح المياه قبل أن تتجه أنظاره إلى باب غرفة والده، تذكَّر أقواله ونُصحه الدائم له، تذكَّر حزنه على غرناطة وأهلها البليدين، خطا ببطءٍ نحو الغرفة وقبل أنْ تلمس يداه مقبض الباب توقف مُحنيًا رأسه والوجع يكاد يقتلع قلبه من مكانه، تراجع وأخذ يتفحص أرجاء الدار التي كانت يومًا عامرةً، جلس على الأرضية الرطبة وعيناه لا تفارق أمه التي أخذت تجهز أصناف الحلوى وصفية تقوم بالركض خلف محمد الذي خرج دون إذنها إلى الحارة، فذهبت لتبحث عنه خوفًا عليه من خطف القشتاليين له.

راح في سباتٍ عميقٍ أفاق على ضوء النهار وصوت قرع طبول المنادي، لم يتبيَّن ما قاله للوهلة الأولى، أرهف السمع وكان ما جاء به صوت المنادي صادمًا وغير متوقع.

«على جميع الموريسكيون الالتحاق بالكنائس اليوم دون تأخيرٍ، ومن يتخلَّف عن ذلك سيتمّ معاقبته وفقًا لقرارات الملك المعظم فيليب الثاني.»

برتابةٍ مصاحبة لقرع الطبول ردَّد المنادي ذلك الخبر الذي راح يطرق عقل عبدالرحمن، نهض ونفض عن جسده آثار الغبار، بحث عن قبعته وارتداها وخرج بحثًا عن سبب تلك الأوامر الغريبة، تجوَّل في الأحياء التي يسكنها غالبيةٌ قشتاليةٌ وهو يسمع محادثاتهم التي مُلئت بتخميناتٍ امتزجت ببغضٍ وكُرْهٍ للأندلسيين فبعضهم قال:

«سيجمعونهم ويحرقونهم في ساحة الرملة.»

«سيقتلونهم وتعلَّق رؤوسهم على أبواب غرناطة.»

أمضى وقته يسير في الطرقات مُرهفًا السمع لذاك وذاك، لم يُثِر الشبهات فقد تكون ملامحه عربيةً ولكنّ الزي القشتالي أضاف له تلك النكهة النصرانية مع ذلك الصليب المرسوم على صدره، عَبَرَ الأزقّة باتجاه باب اللوز أحد أبواب غرناطة الذي يؤدي بدوره إلى مسجد التائبين أو هكذا كان اسمه قبل أن يتحول إلى كاتدرائية سان خوان، وأمام الكاتدرائية هاله ما رأى من الجموع التي كانت تتوافد على المكان من نساءٍ وأطفالٍ ورجالٍ، الجنود في كلّ مكانٍ ينتشرون وأعينهم

تفحص الجميع بتحفُّزٍ، أدرك أنّ وجوده في ذلك المكان قد يكون خطرًا، استدار ليعود أدراجه حينما فوجئ بأحد القساوسة يقف خلفه قائلاً:

- أيها الجندي لِمَ تقف هكذا؟؟

وبقشتالية صحيحة وبصوتٍ قويٍّ أجاب عبدالرحمن:

- أرسلني الماركيز لكي أتفقّد الأمور في البيازين.

تأمّله القسّ بنهمٍ قبل أن يقول:

- ما اسمك؟؟ وفرقتك؟؟

أجاب بثقةٍ:

- خوان غارسيا، الفرقة الرابعة المتمركزة في الحمراء لحراسة دون خوان النمساوي.

بمجرد ذكر اسم الدون أومأ القسّ برأسه بسرعةٍ من هول المفاجأة، ثم قال:

- لقدا اختار دون خوان القرار الصائب بترحيل هؤلاء الموريسكين الخونة.

ألقى كلماته ثم رحل تاركًا خلفه عبدالرحمن الذي أوقدت كلمات القسّ النيران في قلبه. إذن، فهم ينوون طردنا من ديارنا! انسحب من المكان عائدًا إلى بيته حاملاً أحزانًا فاقت أحزان أهل الأندلس جميعًا.

*****

ليلةٌ طويلةٌ قضتها ثريا بجوار العجوز المحمومة التي صار لها أكثر من يومَيْن لا تكاد تُفيق حتى تذهب مرةً أخرى إلى عالم اللاوعي، بعض التمتمات تخترق صمت الحجرة الضيقة، تحمل عائشة الصغير الذي لا يكفُّ هو الآخر عن البكاء، قليلٌ من الحديث يدور بينهما عن عبدالرحمن الغائب ومأمون الذي داوم على زيارتهم لتلبية احتياجاتهم. هو الآخر ينتظر عودة عبدالرحمن حتى يُتِمَّ العرس.

انتفض جسد صفية بقوةٍ مُصدِرَةً تأوُّهاتٍ مرتفعةٍ قبل أن تتمتم بخفوتٍ:

- أريد أن أعود إلى منزلي.

تأمّلتها ثريا بصمتٍ والدموع تغرق وجنتيها في الوقت الذي أتت فيه عائشة مهرولةً عاقدةً حاجبيها:

- ماذا هناك؟؟

حاولت ثريا أنْ تقول شيئًا عندما علا صوت صفية مرةً أخرى:

- خذوني إلى داري.

انحنت عائشة على رأسها وطَبَعَتْ قُبلةً حانيةً على جبينها قبل أن تهمس في أذنها:

- غدًا سنعود يا خالة، صبرًا.

نظرت إليها صفية بعينين زائغتين وهي تتمتم:

- لَمْ تَعُدِ الدار داري.

قد يكون قلبها سَابَقَ المكان والزمان ورأى ما حدث هناك في غرناطة، حيث اقتحم الجنود القشتاليون المنزل بعنف وراحوا يعيثون بفنائه وغُرَفه كانوا يبحثون عن شيءٍ ما وينفِّذون قرار مصادرة منازل من التحقوا بالثورة، خرجوا تاركين وراءهم منزلًا تبعثر أثاثه وبكت جدرانه على فراق أصحابه.

كان عبدالرحمن رابضًا أعلى أحد الأبراج بزيّه الأسود الذي أخفاه عن الأعين، ظلّ لساعاتٍ جالسًا يتابع تفريق جموع الأندلسيين الرجال على جانبٍ، والنساء على جانبٍ آخر، ثم عادوا ففرّقوا الرجال عن الأطفال الذين تقلّ أعمارهم عن عشر سنين، البكاء والنحيب ارتقوا إلى مسامعه وقلبه يهدر بغضبٍ قائلًا «آااه لو أنّ لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديد!»

مع بزوغ الفجر سيق الأندلسيين إلى خارج غرناطة زمرًا، كانت قوافل الأندلسيين تسيير مكسورة الأعين باكيةً والرؤوس تكاد تلامس الأرض من انحنائها، وقد تقرر بقاء بعض العمال المَهَرة ومَن تمّ استخراج تصاريحَ لازمةٍ لهم لحُسْنِ تنصيرهم، قرر أن ينقذ ما يمكن إنقاذه فاختار هدفه بعنايةٍ وراح يتتبع القافلة منتظرًا لحظته الحاسمة.

*****

سارت القافلة المكوّنة من ألفين من النساء والرجال وبعض الصبية في طريقها إلى بطليوس، لم يكن للحديث مجالٌ بين الجميع فالقلوب صارت ضامرةً يابسةً

لم تَعُدْ تضخُّ الأمل والحياة التي أصبحت والموت سيّان، كان يحرسهم مائتا جنديٍّ يعنِّفونهم إذا أبطأوا، ويسبُّونهم إذا أرادوا الراحة ويتحرشون بهم. استطاع عبدالرحمن أن يتسلل إلى القافلة وأخذ يحفّز بعض الرجال على الهرب والالتحاق بالثوار بعد أن يتخلصوا من هؤلاء الحراس، باءت محاولاته بالفشل وسط خضوع اليائسين والذين كاد أحدهم يشي به إلى الجنود، ولكنّ بعض الشباب رأى في حديثه الفرج، انتظروا حتى جاء الليل وتسلّح بعضهم بأغصانٍ جافةٍ وبعضهم الآخر بحجارة.

- أيها الجندي، لقد سقط أحدهم من فرط التعب والإجهاد.

نطقتها إحدى السيدات وهي تشير إلى ذلك الشاب الملقى أرضًا، نظر إليه الجندي بلامبالاة قائلًا:

- اتركوه وأكملوا الطريق.

سادت همهماتٌ بين الجمع والجنود يحثّونهم على إكمال المسير بغلظةٍ، بينما تقدّم الجندي إلى الفتى الملقى أرضًا وانحنى يتفحّصه وما إن لامست يداه صدر الفتى حتى فتح ذلك الأخير عينيْه وكأنّ الحياة دبّت مرةً أخرى في أوصاله وقبل أنْ يعتدل الجندي بفزعٍ ارتطم برأسه غصنٌ غليظٌ جعل الدماء تنساب من تحت خوذته المعدنية، وكانت تلك الإشارة لتبدأ الفوضى؛ بدأ الشباب في الانقضاض على الحراس الذين ما إن يسقط أحدهم حتى يستولي الشباب على سلاحه وينتقلون لغيره، ولكنّ المعركة كانت غير متكافئة؛ فعبدالرحمن لم يكن معه

سوى عشرين رجلاً يواجهون مائتي جنديٍّ مسلحين.

راح الصراخ يعلو مع سقوط أحد الأندلسيين قتيلاً وآخر جريحًا، بدأت النساء في الهجوم على الجنود الذين راحت سيوفهم تمزّق الصدور وتفجّر الجروح.

أخذ عبدالرحمن يقاتل ببسالة، يُسقِط هذا وينقضُّ على هذا حتى جاءته ضربةٌ أفقدته توازنه ليسقط أرضًا، حاول النهوض عندما عاجلته أخرى من قدم أحد الجنود ليبقيه أرضًا وهو ينظر له مبتسمًا قائلاً:

- إنها نهايتك أيها الموريسكي الحقير.

هوى بسيفه على صدر عبدالرحمن مع دويّ صوت رصاصاتٍ ساد بعدها السكون.

*****

- عائشة، ماذا تفعلين؟

نطقتها ثريا التي انتابها الذهول من مظهر عائشة التي كانت ترتدي درعًا حديديًا جعلها أشبه بفارسةٍ أسطورية، درعًا نُقِشَ على صدره هلالٌ وزُيِّنَ بمزيج من النقوش الإسلامية زادها جمالاً مع خصلات شعرها السوداء التي راحت تَعْقِدُها حتى يتسنّى لها أن ترتدي الخوذة، لم تُجِبْ على ثريا وهي تلتقط الخوذة وتضعها فوق رأسها بأحكام أمام عينيْ أمّ معاوية التي انتابها الجحوظ.

التفتت إليها بعد ذلك قائلةً:

- ما رأيك؟

فغرت ثريا فمها دون أن تنطق وعائشة تُخْرِج سيفها من غمده قائلةً:

- لقد صنعه مانويل بن عامر الحداد.

- أجُننتِ أم أصابك مَسٌّ؟؟

- يا أمّ معاوية، إنّ جيش دي بلش قادمٌ إلى بالور للقضاء علينا، فهل ننتظر حتفنا نبكي؟؟

قالت ثريا بحدّة:

- الحرب للرجال، أمّا نحن فلا حيله لنا سوى تربية الصغار وإعداد الطعام وإنْ تطلّب الأمر أنْ نتدخل فيكون الأمر إسعاف الجرحى ومداواتهم، لو رأتك صفية لماتت خوفًا. انزعي ذلك الدرع عنك يا عائشة.

تخطّتها عائشة قائلةً:

- لقد حُسِمَ الأمر، وسأشارك منذ اليوم في كلّ المعارك حتى ألتقي الأحبة.

خرجت من الغرفة تاركةً خلفها ثريا التي سُرعان ما استعادت عقلها وهرولت خلفها لتلحق بها عند الباب قائلةً:

- عائشة، هل يعلم مأمون بذلك الأمر؟؟

استدارت عائشة مبتسمةً قبل أن تفتح الباب، وعندما عادت بعينيْها لترى من القادم تجمّدت في مكانها وهي ترى أمام عينيها مأمون الذي كان يعقد حاجبيه

وهو يتأملها بصمتٍ.

*****

تحت نخلة أثمرت رطبًا وقف مأمون وعائشة صامتيْن يتأملان الوادي المؤدي إلى بالور، كل شيءٍ ساكنٌ إلا قلبيْهما وقد اختلجت فيهما المشاعر، جمعهما القدر على طريقٍ واحدٍ، أحبَّته وأحبَّها، لحظاتٌ من الصمت مرّت قبل أن يقول مأمون:

- إذن، فقد قررتِ أن تنضمي إلى صفوف المقاتلين.

أومأت برأسها دون أن تنظر إليه وهو يكمل:

- عائشة، إني لم أرَ أيامًا عصيبةً مثل التي رأيتها هنا؛ فيوم النصر تحزن القلوب وتحمل همًّا أكبر في تحرير بقية المدن والبلدات، لم أرَ أهل الإسلام ينحدر بهم الحال كما في هذه البلاد، ولم أرَ في أرض الله أجمل من بلادكم فهي جنة الله في أرضه، جناتٌ وأنهارٌ وزيتونٌ ونخيلٌ قطعةٌ من بلاد العرب في أوروبا المظلمة أضاعها أهلها بترفهم وركونهم إلى الظلم وتحالف ملوك طوائفكم مع الأعداء ليسقط بعضهم بعضًا فأصبحتم أذلاء من بعد عزة.

توقف عن الحديث وهو يرمقها وقد انسابت دموعها بصمتٍ، ثم أكمل:

- لقد ازددتِ جمالاً بهذا الزيّ.

اختلطت ابتساماتها بالدموع وهي تشيح بوجهها قائلةً:

- انتهيت من الحديث عن الأندلس والآن تغازلني!

- وكيف لي ألا أغازل أجمل أندلسية وقد تزيَّنت بلباس العزة والكرامة؟!

التفتت إليه قائلةً:

- مأمون...

أجابها بسرعةٍ ولهفة:

- أمرُك مولاتي.

ضحكت وهي تقول:

- هل تعرف بلنسية؟؟

- ومن لا يعرف أرض الجمال والعلم؟ أعرف بلنسية وشاطبة، أعرف مرسية وأعرف دانية...

نوبةٌ من الفرح انتابتها مع ذكره اسم دانية، فقاطعته وهي تقول:

- إنا من أهل دانية، اشتقت لشاطئها وقصبتها، اشتقت لحقول الزيتون ونسيم بحرها...

أيقظت بداخله شوقه لبحرٍ كان هو سيده، رائحة اليَمّ والمحروسة بأشرعتها القوية وعلم الخلافة العثمانية يعلو خفاقًا على صاريها. أفاق على كلماتها وهي تكمل:

- هل سيرسل سلطانكم المدد قريبًا؟

أجاب بتفاؤل:

- نعم قريبًا سيصل هرناندو الحبقي من الجزائر ومعه من الرجال والعتاد ما يكفي لمواصلة طريقنا لتحرير باقي المدن، وعلى رأس القادمين أخي حسين.

قالت بتعجُّب وهي تعانق عينيه السوداوين:

- أخوك؟؟

أومأ برأسه وقد احتلّ الوجوم وجهه وهو ينظر إلى الوادي الذي كانت تنبت في آخره الأعلام القشتالية الصفراء والحمراء، ألقت نظرها إلى حيث ينظر لتعرف ما جاش به صدره مع تقدُّم تلك الرايات إلى الوادي، راياتٌ جاءت إلى بالور للقضاء على سلطان الأندلس وجيشه المقاوم، راياتٌ تعلن أنه قد حان وقت المعركة، أولى معاركها التي قد تكون آخرها.

*****

انتشر الجنود بين الأشجار بحثًا عن جرحى أو قتلى، بينما جلس عبدالرحمن إلى جانب رجلٍ قويٍّ ذي لحيةٍ سوداء تكاد تنمو وعينيْن ثاقبتيْن تنمّان عن ذكاءٍ حادٍّ كان ذلك محمد بن عبو الذي كان يعرفه منذ أيام الثورة الأولى واجتماعات غرناطة السرية، سأله عن سبب تواجده في القافلة، وأخبره عبدالرحمن الذي أنقذته فرقة ابن عبو المتجهة إلى البنيول قبل أن يشقّ سيف القشتالي صدره.

تبادلا الحديث عن آخر التطورات وما حدث فانشرح صدر عبدالرحمن عندما علم أنّ مدينة سيرون قد حرَّرها جيش الناقص والأرشذوني، وأنّ حاميتها القشتالية قد أُبيدت عن آخرها، تحوَّل ابن عبو ببصره متفحصًا جنوده وهم يساعدون النساء والرجال على حمل أمتعتهم لمواصلة السير وهو يقول:

- إنّ جيش الماركيز دي بلش الذي سيهاجم بالور قد فشل؛ القائد بيدرو مندوسة الحسين نجح في إيقاف تقدُّمه.

بقلقٍ سأله عبدالرحمن عن ابن أمية وجيش البشرات المتمركز في بالور، فطمأنه ابن عبو قبل أن يكمل:

- ما حدث في سجن غرناطة جعل المتطوعين يلتحقون بنا من كلّ صوبٍ، أتعلم أنّ ربع رجال جيشي هذا أتوا من جيان ومن قرطبة؟

شرد عبدالرحمن والقلق يعتصر قلبه على عائلته التي تركها في بالور، ولكنّ ابن عبو انتشله من شروده:

- ابن المليح يفرض سيطرته على ألميرية ووادي المنصورة، انتصاراتنا جعلت أهلنا الذين هاجروا منذ زمن إلى تطوان يمدوننا بالسلاح والرجال أيضًا. إنّ النصر فوق الرؤوس يا أخي ينتظر كن فيكون، فلا تبتأس.

حرّك عبدالرحمن رأسه متمتمًا على كلمات ابن عبو الذي وضع يده على كتفه قائلًا:

- لقد استدعى فيليب الماركيز مندخار، وأظن أنّ ذلك بسبب فشله في مقاومتنا.

قال عبدالرحمن بلامبالاة:

- أعرف، كما أنّ دون خوان أبقى على حياة والد ابن أمية وأخيه.

عقد ابن عبو حاجبيه وهو يقول:

- ألمْ يقولوا إنه لم ينجُ أحدٌ من مذبحة سجن غرناطة؟؟

- لقد رأيتهم يسوقونه إلى ديوان التفتيش حيث كان يحتجز سانشو الأشبوني.

نطقها عبدالرحمن وعيناه تلتقيان بعينيْ ابن عبو الذي راح عقله يبحث عن سبب الإبقاء على حياة والد ابن أمية، سوى الضغط على السلطان وترك القتال من أجل حياة والده.

*****

بدأت قوات جيش الماركيز بلش في الانتشار حول بلدة بالور التي تحصّن بداخلها جيش محمد بن أمية، الذي أمسك بين يديه رسالةً ذُيِّلت بتوقيع والده، تفحّصها بضع مراتٍ قبل أن يلقي بها أرضًا أمام رسول القشتاليين المذهول من فعل ابن أمية الذي قال له:

- إنّ أبي عاش حياته يعلّمني أنّ النصر لا يأتي بالاستسلام وإنما بمواصلة الطريق على نهج المجاهدين والفاتحين، وإنّ ما أتى في تلك الرسالة ليس لأبي أنْ يأتي به، فوالله الذي لا إله إلا هو، لأواصلنّ القتال حتى ألقاه منصورًا أو مقتولاً. اذهب

إلى سيدك وقلْ له إننا قومٌ لا نستسلم للذل والظلم، نحن قومٌ عشتم قرونًا تحت سماحة ديننا والآن حان الوقت لأنْ تدفعوا دَيْنَكُم.

أنهى كلماته ليمتطي بعد ذلك فرسه أمام نظر مأمون وعائشة وقد رقص قلباهما طربًا لسماع تلك الكلمات، بينما كان يقف بالقرب منهما ديبكو وزير محمد بن أمية، كان ينظر إلى ذلك الأخير بنظراتٍ عرفتها عائشة جيدًا، نظراتِ بُغضٍ وكرهٍ، نظراتٍ تحمل الكثير والكثير.

خرج ابن أمية على رأس جيشه الصغير لمواجهه جيش بلش الذي يحوي مرتزقةً ولصوصًا من كافة أنحاء أوروبا جاءوا للظفر بغنيمةٍ أندلسية المذاق، تواجَهَ الجيشان في أعنف المعارك التي شهدتها الحرب منذ بدايتها، تجاور مأمون وعائشة التي راحت تشقُّ الصفوف ببسالةٍ تضاهي أعتى المحاربين قوةً وأمام عينيْ مأمون المبهورتين بما تقدِّمه حبيبته راح سيفها يخترق الصدور ويطيح بالرؤوس، كان الجحيم قد أوقد في معركةٍ إنْ خسرها المسلمون فسيخسرون الكثير ومن خلفهم عائلاتهم في بالور التي تنتظر مصيرًا لن يختلف عن بقية المدن والقرى التي سقطت بأيدي القشتاليين، فلم يتبقَّ منها سوى منازلَ خاويةٍ على عروشها ترقد في ساحاتها آلافٌ من جثث النساء والأطفال والشيوخ.

دارت رحى المعركة لتنثر الدماء فوق أرض الوادي، لم ينهزم جيش الأندلسيين ولكنه انسحب. نعم، انسحب بعد أنْ أعطى فرصةً لرحيل أكبر عدد من الأهالي لمغادرة البلدة، تاركًا إياها إلى جيش بلش الذي دخل ليلاً ليجدها فارغةً من

الجميع، رحل ابن أمية وجيشه وعائلاتهم عائدًا إلى لوشر عاصمة الثوار، عاث الجنود في البلدة فسادًا وسرقوا ما وجدوه وأحرقوا بيت ابن أمية الذي وجدوه خاويًا إلا من رسالة كُتِبَتْ على جدرانه: «ولا غالب إلا الله.»

*****

انتهى ديجو أركش من كتابة ما أملاه عليه السلطان ابن أمية الذي أمره بالانصراف بينما أخذ يراجع ما في الرسالة، خرج بعدها مسلِّمًا إياها إلى أحد جنوده الذي حملها قاصدًا وجهته.

جلس ابن أمية أرضًا رافعًا يديْه إلى السماء كان يدعو ربه تضرعًا وخفيةً، انسابت الدموع على خدّيه من فرط خشوعه، كان يعلم أنّ القادم أصعب مما فات وأنه يجب عليه أن يحرر ما تبقى من البلدات والقرى، كان يَحلُم بعودة كامل التراب الأندلسي من أربونة على حدود فرنسا شمالاً إلى شلب ولشبونة غربًا، أراد أن يطأ بقدميه قرطبة مجددًا ويعيد دولة الأمويين وأمجادهم، دعا ربه أن يطيل في عمره ويقرّ عينه بمحراب المسجد الجامع في قرطبة، أراد أن يدخل طليطلة كما فعل طارق، أن يذهب إلى حدود باريس وينتصر للغافقي، أراد أن يذكره التاريخ بالفخر وليس بالتخاذل.

خرج رسول ابن أمية من لوشر متجهًا إلى قرية البنيول حيث تستقرّ كتائب ابن عبو بعد أن انضمّ إليها أفواج الأتراك والجزائريين، لا يعلم أحدٌ مضمون الرسالة

التي أثارت فضول ديبكو الوزير الذي ما إن رأى ذلك الفارس منطلقًا إلى خارج البلدة حتى امتطى فرسه ليلحق بـالفارس، وعلى مشارف القرية قابل أركش كاتب السلطان، والذي سأله:

- إلى أين أنت ذاهبٌ أيها الوزير ديبكو؟؟

أوقف ديبكو فرسه وهو يرمق أركش بتوتر قائلاً:

- وما دَخْلُك أنت؟؟

ضحك أركش ولوّح بيده قائلاً:

- أتريد اللحاق بالرسول المتجه إلى ابن عبو؟؟

تفاجأ ديبكو من كلمات الكاتب الذي أكمل:

- أتريد أن تعرف فحواها؟؟

والتقت عينا ضبعيْن تأصّلت الخيانة في عروقهما، امتطى أركش فرسه بدوره وانطلقا سويًا للحاق بفارس السلطان وحامل رسائله، لحقا به في أجيجر وتربّصا به، قتلاه وأخفيا جثمانه بين أشجار الغابة، زوّر الكاتب الرسالة وحرّف محتوياتها مقابل أن يحصل على قدرٍ من المال والأمان من القشتاليين بعد أن يُقضى على ابن أمية ورجاله، أمّا ديبكو الوزير فأملى أركش رسالةً مضمونها:

«جرِّدْ رجالك من سلاحهم، عودا إلى بيوتكم وأعدِم كلّ المتطوعين الأتراك والمغاربة والجزائريين.»

استقبل عبدالرحمن الرسول الزائف الذي أرسله دييكو الوزير بترحاب ظنًا منه أنه رسول ابن أمية، سلّم الرسالة إلى قائده الذي ما إنْ قرأت عيناه سطورها حتى اعتصرت يد محمد بن عبو الرسالة الزائفة وقد أصدرت أسنانه صكيكًا من أثر غضبه لقراءة تلك الكلمات التي ذُيّلت بختم وتوقيع ابن أمية.

كان الغضب واضحًا على وجه ابن عبو الذي رمق الرسول بريبة قائلاً:

- من الذي أرسلك وأعطاك تلك الرسالة؟؟

أجاب الرجل بثقة وبرود:

- مولاي سلطان الأندلس حفظه الله محمد بن أمية.

بتوترٍ حوّل وجهه إلى عبدالرحمن قائلاً:

- يبدو أنّ الشائعات صادقةٌ.

سأله عبدالرحمن بقلقٍ:

- ماذا حدث؟

رمق ابن عبو الرسول قبل أن يشير له بالانصراف، وما إنْ خرج ذلك الأخير من الباب حتى ألقى ابن عبو الرسالة بعصبيةٍ إلى عبدالرحمن قائلاً:

- إنّ السلطان يخاف على حياة والده ويريد الاستسلام.

مرّ عبدالرحمن بعينه على أسطر الرسالة بسرعة، أطمأنّ قلبه لما قرأه من خبر نجاة أهل بالور من المذبحة، وتوقّف عقله أمام تلك الجملة الأخيرة التي توصي

بإعدام المتطوعين وخفض السلاح، لم يستوعب ذلك الأمر وأخذ ينظر إلى ابن عبو الذي كان يبادله النظرات بصمتٍ قبل أن يقول:

- سنذهب إلى لوشر، أخبرْ الرجال بالاستعداد، سنرحل مع الفجر.

*****

ارتقت شمس الظهيرة في السماء الصافية فوق لوشر عاصمة الثورة والثوار، تلك البلدة الصغيرة التي تقع تحت سفح جبال البشرات من جهة غرناطة، حصّنها الله بجبال البشرات التي نتأت المنازل أسفلها وداخل كهوفها التي أصبحت منازل فائقة الروعة، امتلأت بالمتطوعين من أنحاء الأندلس ومن خارجها، دخل جيش ابن عبو الممتلئ عن آخره بالمتطوعين والذين نالت منهم الإشاعات والأنباء عن خيانة محمد بن أمية للثورة، حملت وجوههم قسوةً وتحفزًا بينما راحت أعينهم ترصد كلّ من يستقبلهم.

تقدّم ابن عبو وإلى جواره ذلك الضابط التركي القادم من الجزائر حسين وإلى جوارهم كان عبدالرحمن يبحث بعينيْه عن أهله ورفاقه، لمح بين المصطفّين ثريا التي حملت معاوية، لوّح لها فبادلته والفرح يتقافز من وجهها، ترجّل عن فرسه وركض نحوها احتضنها وقبّل الصغير بشغفٍ قبل أن يحمله ويتّجه نحو ابن عبو قائلاً:

- إنه ابني معاوية.

أحنى ابن عبو رأسه محييًا الصغير قبل أنْ يمدّ يده ليداعبه قائلاً:

- نِعْمَ الاسم، ونِعْمَ الأب.

ثم أشار لجنوده بمتابعة المسير مما جعل عبدالرحمن يعطي الطفل إلى ثريا على عجلٍ وهو يقول لها:

- سأنهي شيئًا وأعود، انتظريني.

امتطى فرسه تاركًا ثريا وسط حيرتها ودهشتها، ترى إلى أين هم ذاهبون؟؟ ولماذا تحمل وجوههم الصرامة جميعًا؟؟ يبدو أنّ هناك أمرًا ما.

نزل ابن عبو عن جواده الأندلسي الأحمر بثباتٍ وهو ينظر إلى مستقبليه بنظرةٍ خاويةٍ، قبل أن يسأل دييكو الوزير:

- أين مولانا السلطان؟؟

أجاب دييكو وقد أخفى ابتسامة ظفرٍ عن وجهه:

- إنه في الداخل بانتظارك.

لم يتوقف ابن عبو فدخل إلى البيت ومن خلفه حسين وعبدالرحمن وبعضٌ من رجاله، وفي الداخل استقبلهم مأمون الذي رحّب بأخيه حسين ترحابًا حارًا، لم يَرُقْ كثيرًا لابن عبو الذي كان يتحدث مع ابن مكنون عن الانتصارات المتتالية التي حققها الأخير في ألميرية ومالقة،دقائق ودخل ابن أمية، تغيَّر كثيرًا لم يكن هو هرناندو دي قرطبة الشاب الطموح الذي عرفه عبدالرحمن منذ عامين في

بيت الشماع، القلق جعل منه كهلاً في سنّ الشباب، أثقلته المصائب، قُتلت أمه وأخوته الصغار عُذِّبت زوجته ومُثِّل بجثّتها، بحفاوةٍ احتضن ابن عبو وعبدالرحمن قبل أنْ يعرِّفه مأمون بأخيه القادم على رأس قوةٍ من المتطوعين الجدد.

أشار لهم أن يجلسوا، وهنا نظر الجميع إلى ابن عبو الذي لم يجلس وقال:

- ما جئنا لنجلس ونتسامر.

عقد ابن أمية حاجبيه وهو يستنكر لهجة ابن عبو قائلاً:

- ماذا بك يا رفيقي؟؟

هنا أخرج ابن عبو الرسالة وألقاها إلى السلطان الذي فتحها وأخذ يقرأ محتواها، رفع عينيه بذهولٍ إليهم وهو يقول:

- ليست هذه رسالتي؟؟ إنما رسالتي لكم فهي أمرٌ بالتوجه إلى ميناء مطريل لتحريره.

قاطعه ابن عبو بحدّةٍ:

- أليس ذلك خاتمك وذلك توقيعك؟!

أجاب السلطان الذي كان في موقفٍ لا يُحسَد عليه:

- نعم، ولكنْ تلك الرسالة ليست رسالتي ولا هذا مضمونها.

أخذ مأمون الرسالة وتفحّصها قبل أن يعطيها إلى ابن مكنون الذي جحظت عيناه، فصاح بهم ابن أمية:

- أقسم لكم أني لم أخنْ دين الله وأمّتي أبدًا ما حييت، أسألوا ديجو أركش كاتبي.

أرسل ابن عبو في طلب الكاتب الذي ما إنْ حضر وسأله الحاضرون عن نصّ الرسالة التي كتبها وتمّ إرسالها إلى ابن عبو، فما كان من أركش إلا أن قال:

- نعم تلك الرسالة التي أمرني أن أكتبها مولاي السلطان محمد بن أمية، وقد تعجّبتُ لما ورد فيها و...

- كاذبٌ!

قاطعه محمد بن أمية، فما كان من ابن عبو والحضور إلا أن أخرجوا سيوفهم في مواجهه سلطانهم، الذي قادوه إلى أحد الغرف ووضع على حراسته الخائنيْن ديبكو الوزير صهره وكاتبه ديجو أركش وقد امتلأت صدورهم بزهوة خيانة الوطن.

*****

اجتمع عبدالرحمن ومأمون وأخوه على مائدة أعدّتها عائشة وثريا بأمرٍ من صفية التي راحت تعطي لهم الوصفات والمقادير وهي جالسةٌ إلى جوارهم في صحن المنزل، وبين يديها كان يلهو معاوية.

- هل تظن أنّ ابن أمية باع قضيتنا؟؟

قالها عبدالرحمن موجّهًا حديثه إلى مأمون الذي كان يلوك الطعام بفمه فلم يُجِب فقط اكتفى بتحريك رأسه نافيًا، وحسين يقول:

- يبدو أنّ هناك من يريد تفرقة الثوار، وتشتيتهم في نزاعاتٍ داخلية، وذلك الأمر لا يبشّر بخيرٍ.

ابتلع مأمون ما تبقّى من الطعام الذي كان في فمه وهو يقول:

- لقد لازمت السلطان محمد بن أمية فترةً من الزمن ولم أرَه سوى رجلٍ شجاع خسر عائلته ورفاقه بين أسيرٍ يُعذَّب أو قتيلٍ، رحل تاركًا في رقبتنا أمانةً ثقيلةً.

وضع عبدالرحمن إبريق المياه جانبًا بعد أن ارتوى قائلاً:

- إنّ جيشنا الآن قرابة الثلاثين ألفٍ، ونسيطر على كلّ المدن الرئيسية وقرى البشرات كاملةً، حتى رُندة ومالقة وألميرية كلّها الآن معنا، وإذا حدث مكروهٌ للسلطان محمد فسوف نخسر الكثير والكثير.

كان يحدّثهم ويشعر أنّ هناك شيئًا ما سيحدث، لا يريد الفرقة ولا النزاع فيما بينهم فيذهب ريحهم ويكونوا من الخاسرين كأسلافهم، أما مأمون فقد كان يعلم أنّ ابن أمية بريءٌ من تلك الرسالة المحرَّفة، إنهم على وشك الاستعداد والتحضير لدخول حاضرة غرناطة، وليس هذا وقت المتاعب بينهم، اللعنة على النفس البشرية! لا أحد يتنبأ بالغيب أو يعرف ما تجيش به الصدور وإلا لاخترقها وعرف من هو الخائن الذي أوقع بالسلطان الذي يقبع في حجرته تحت الإقامة الجبرية.

ما إن انتهوا من غدائهم حتى شرع مأمون في محادثة أخيه عن عائشة مستغلاً خروج عبدالرحمن خارج الغرفة، فقال له حسين:

- وما الذي يجعلك تنتظر كلّ هذا؟؟ لماذا لم تعقد قرانك عليها؟؟

أجاب مأمون والحزن يعمُّ وجهه:

- كلّما قرّرنا موعدًا صار شيءٌ ما يؤجّل العرس.

دخل عبدالرحمن قائلاً:

- أسمعتُ كلمة عرس؟؟

ضحك الاثنان وتبعهما عبدالرحمن ضاحكًا هو الآخر قبل أن يقول:

- أمَا آن الأوان أنْ تتزوج يا مأمون؟؟

قالها وهو يبتسم وقد تبادل الأَخوان النظرات بصمتٍ قطعه حسين:

- إنّ خير البرّ عاجله، فما رأيكما بالخميس القادم إنْ أحيانا الله؟؟

قال عبدالرحمن الذي مازالت بسمته تحتل وجهه:

- إذن فالخميس القادم يكون عرس الريس مأمون نور الدين توران على أميرة الأندلس عائشة.

كان يقولها بصوتٍ عالٍ سمعته العروس وثريا التي أطلقت الزغاريد وسط ضحكات صفية، وفي الداخل كان السرور يغمر حديث الرجال الذي يستبشرون بذلك الزواج خيرًا.

*****

جاء الخميس وتزينت البلدة استعدادًا لعرس القائد العثماني على تلك الفارسة الأندلسية التي انتشرت قصصها بين قرى البشرات، تروي عن شجاعتها التي غلبت الرجال، في بيت عبدالرحمن كانت النساء يجتمعن وقد تزينّ جميعًا ورحنَ ينقشنَ أناملهنّ بالحناء بعد أن عادت العروس من الحمام، يدققنَ الدفوف وينشدنَ، وتمرح الفتيات الصغيرات ويتداولنَ الأحاديث الضاحكة، كانت صفية كالنحلة لا تتوقف عن الحركة في المنزل تحمل الحلوى وتوزعها ثم تعود حاملةً هدايا الحضور وتذهب بها إلى غرفة عائشة التي كانت ثريا تقوم بتجميلها وتهيئتها.

عرسٌ لم يعرفه أهل الأندلس منذ زمنٍ، منذ أنْ فُرِضَ عليهم التنصُّر وتَرْك كلّ ما هو إسلاميٌّ وعربيٌّ مِن عاداتٍ وتقاليدَ ولكنْ هيهات، فها هم يُحيون عرسًا أندلسيًا في عاصمة الأندلس الحرة لوشر التي كان حديث أهلها عن بشائر النصر الآتية من الوديان والجبال.

امتزجت بهجة النصر بالعرس الذي كان يأخذ شكلاً آخر حيث احتفل المتطوعون الأتراك والجزائريون بعريسهم القائد العثماني مأمون نور الدين على طريقتهم، وأيضًا احتفل الأندلسيون كما كان آباؤهم وأجدادهم بالموشحات والأشعار، ليلةٌ أضيئت فيها شوارع البلدة ذات الأرضية الرطبة والهواء العليل.

أخذت الرياح الباردة في التجول بحرية داخل الأزقة الضيقة في تلك الجهة الخاوية من البلدة حيث مقر السلطان ابن أمية، الذي كان يجلس حائرًا داخل غرفته التي جعلته جدرانها تحت الإقامة الجبرية حتى يَبُتّ القائد العام ابن عبو في أمره، كان يحثُّ عقله على محاولة معرفة الخائن الذي تسبب بتلك الوقيعة

بينه وبين جنوده، لم يجد إجابةً لكلّ ذلك، أخذه عقله إلى فرج بن فرج ولكنه نفض تلك الأفكار عن رأسه سريعًا، كيف يحدث هذا معه وهو ممّن بايعوه عن رضًا؟ كيف يصدّقون أنه خانهم وهو من ضحّى بحياته من أجل قضيتهم؟ قُتلتْ زوجته وأُحرق منزله وأُسر أبوه وأخوه وذُبحت أمه وأخواته الصغيرات وصمد، صمد من أجل الحفاظ على دينه ووطنه والآن يتهمونه بالخيانة والتآمر!

قطع نسيج أفكاره صوت صرير الباب الذي فُتح ليكشف عن وجهه ديبكو الوزير الذي كانت ابتسامته الصفراء تنمّ عن شيءٍ ما بداخله، دخل حاملاً طبقًا فيه بعض الحلوى قائلاً:

- أتيت بهذا لك، إنه من عرس ذلك الضابط التركي.

أشاح ابن أمية بوجهه قائلاً:

- لا حاجة لي بذلك الطعام.

وضعه ديبكو على المنضدة ووقف متأملاً ابن أمية الذي كان يتفحص أحد الكتب بين يديه، فاقترب منه قائلاً:

- كيف هي إقامتك الجبرية؟

حمل صوته نبرة تشفٍ واضحةً، التفت إليه محمد متفحصًا معالم وجهه قبل أن يقول:

- أتشمت بي؟؟

ابتسم ديبكو مما جعل ابن أمية يقترب منه حتى تلاقت أنفاسهما قائلاً بتحدٍّ:

- كيف تجرؤ على هذا يا ديبكو؟؟

وبصوتٍ صارم قال ديبكو:

- أجرؤ على ماذا يا هرناندو؟؟ لقد انتهى أمرك.

انقضّ محمد بن أمية ممسكًا بعنق ديبكو بقوة قائلاً بعصبية:

- اسمي هو السلطان محمد بن أمية، سلطان الأندلس وملكها.

ضحك ديبكو بسخرية مما زاد من عصبية ابن أمية الذي دفعه بقوةٍ ليرتطم بالحائط مُسقطًا أحد الأواني الفخارية ثم أنقضّ عليه مرةً أخرى ليسلب منه سيفه ويقف مشهرًا إياه فوق رأس ديبكو الملقى أرضًا ومازال يضحك، اقترب منه ابن أمية قائلاً:

- إذن أنت الخائن يا ديبكو! بكم بعت دماء أختك ودماء الشهداء؟؟

صرخ ديبكو بحدّة:

- إياك أن تذكرها فلولاك أنت وأفكارك عن عودة مُلكٍ زائلٍ لما ماتت هي...

قاطعه ابن أمية:

- لو كانت تعلم أنّ أخاها من خان وطنها وزوجها لقتلتكَ هي بيديْها.

رمقه ديبكو بغضبٍ قبل أن يبصق الدماء التي ملأت حلقه في وجه ابن أمية الذي

لم يبالِ وهو يكمل:

- لقد كانت مؤمنةً مجاهدةً وليست مثلك، لعنك الله يا دييكو! لعنك الله!

اعتدل دييكو جالسًا ومسح فمه ليقول بعد ذلك:

- عن أيِّ إله تتحدث يا هرناندو؟ إله القشتاليين أم إله تركنا نعاني ويلات العذاب؟؟ الجحيم هنا في محاكم التفتيش، لأننا كنا يومًا على دينٍ غير دين الحُكّام الجدد يقتلوننا ويعذبوننا، ليس أمامنا سوى أن نتبعهم ونكون مثلهم، لا يهمُّ تحت أيِّ دينٍ نعيش، المهم أنْ نحيا، لن يفرق لحم الخنزير عن لحم الضأن، لن يضرّنا شرب الخمر ومواقعة العاهرات، هي الحياة الجديدة التي يجب أن نعيشها. لقد رحلت الأندلس للأبد! رحـلـت! أمّا أنت فستموت ويطمس التاريخ ذكراك...

قاطعه ابن أمية قائلاً:

- ستبقى الأندلس، وستبقى ذكرانا وسنعيد الحقّ المُغتصَب، ولن يطمس التاريخ ذكرى رجالٍ صدقوا ما عاهدوا الله عليه وإن لم ننتصر فيكفينا عذرٌ أمام الله أننا حاولنا، وإنّ لَموتي في سبيل الله يحيني ويفنيكم.

تمتم دييكو وعلى وجهه تلك الابتسامة الصفراء:

- إذن، فلْتَمُتْ!

مع آخر حروفه انقضّ ديجو أركش على ابن أمية من الخلف وقد تملّك من رقبة

ذلك الأخير بشالٍ حريريٍّ أخذ يعتصر به رقبة السلطان الذي كان يقاوم بعنفٍ ويلوّح يمينًا ويسارًا محاولاً التمسك بأيّ شيءٍ بعد أن سقط سيفه أرضًا، أخذ يقاوم وقد أزرقّ عنقه ونفرت العروق، وما هي إلا بضع لحظاتٍ حتى جحظت عيناه وخمد عن الحركة أمام عينيْ دييكو الذي قال بخفوت:

- مات؟؟

أومأ أركش برأسه وهو يفلت الشال الحرير ليسقط محمد بن أمية مصطدمًا بالأرض جثةً هامدةً، فما كان منهما إلا أن تحرّكا إلى الخارج متلفّتيْن خائفيْن، تاركيْن ورائهما جسد سلطان الأندلس ملقًى داخل غرفته شهيدًا، رحل ابن أمية حاملاً أحلامه وأعذاره ليقف بها بين يدي الله، رحل تاركًا جيشًا منتصرًا قاده ببسالةٍ من نصرٍ إلى نصرٍ، وحتى في الهزائم لم يُصِبْهُ وهنٌ أو نصبٌ، رحل وهو يسيطر على قلاع الميرية ومالقة ومروج غرناطة، رحل لتقصّ قرى البشرات وبلداتها قصص بطولاته وكفاحه من أجل أمةٍ ضحّى في سبيلها بالغالي والنفيس، رحل ليلتحق بزوجته في جنان الخلد.

ونادى منادٍ «لقد قُتل السلطان محمد بن أمية.

*****

(٦)

السلطان الأخير

هبط الحزن والغمُّ على ربوع الأراضي المحررة بعد نبأ مقتل السلطان ابن أمية، كادت تزيغ قلوبهم وحاول اليأس التحصُّن بداخلهم. إنّ مقتل السلطان كان فاجعةً بكلّ المقاييس فقد خارت قوى بعضهم ومنهم ابن كنون والأرشذوني، رحلوا بعد عدة أيام إلى بلاد الإسلام وقد تملّك اليأس من كبار السن، أمّا الشباب فكان لهم رأيٌ آخر وهو مواصلة القتال وتحرير التراب الأندلسي من المحتلّ الغاشم، الذي سادت ربوع مدنه المحتلة أفراح القشتاليين بمقتل ابن أمية ظنًّا منهم أنّ الثورة قد خمدت بموته.

لم يكن حال عائشة بأفضل من أهل الثورة وخاصّتها، فقد كان حزنها عميقًا وقضت ليلة زفافها حزينةً وحيدةً برغم وجود نساء البلدة حولها، تحوّل العرس

إلى مأتم فالكلُّ يبكي السلطان الشهيد، وعندما عاد مأمون من اجتماع الثوار سكنت بين ذراعيه مغمضةً العين ناحبةً، طمأنها وقبَّل رأسها وقال لها:

- إنَّ الثوار اختاروا محمد بن عبو سلطانًا، وإنّ موافقة حاكم الجزائر على البيعة تنصِّب ابن عبو سلطانًا وقد تعهَّد بمواصلة الطريق.

أطمأنَّ قلبها في ذلك اليوم الذي تذكَّرت كلماته وهي تقف إلى جانب عبدالرحمن وأهل البلدة يستقبلون المتطوِّعين الجزائريين والأتراك الجدد القادمين برسالة تنصيب السلطان عبد الله محمد بن عبو سلطانًا للأندلس، الذي توعَّد قتلة ابن أمية بالمطاردة والعقاب، كانت تأمل أنْ تدوم الانتصارات كما كانت في عهد سابقه.

عاد الجميع إلى المنزل بعد سماعهم لخطبة ابن عبو الذي أثارت كلماته عقولهم وقلوبهم، أعدَّت ثريا الطعام وجلس الجميع إلى المائدة يتبادلون الحديث حينما دخل مأمون وعلامات السرور تملأ وجهه مما جعل عبدالرحمن يحدِّثه:

- أبهجْتنا معك يا أبا عثمان.

جلس مأمون إلى جوار زوجته التي أخذت أحد الأطباق وراحت تغرف له بعض الحساء الدافئ بينما قال مأمون:

- سوف نتحرك لتحرير أرجبة في الليل.

ابتسم عبدالرحمن وأومأ برأسه وقد غمرته السعادة بينما قالت صفية بقلق:

- إذن، فالسلطان الجديد سيلقى نفس مصير سالفِه.

تحوَّلت العيون لها بذهولٍ وهي تكمل:

- لم أقصد أنْ أعكِّر صفو فرحكم بالمعارك القادمة، ولكنْ يا أبنائي، إذا ما دخلت الخيانة إلى صفوفنا فاعلموا أنّ النصر لن يأتي. ما عليكم سوى أن تتماسكوا وتتكاتفوا وتكونوا صفًا واحدًا.

عاد عبدالرحمن إلى طبقه وهو يقول:

- لا تقلقي يا عمتي فقد جاءنا اليوم مزيدٌ من الدعم من الجزائر وقريبًا سنكون في حاضرة غرناطة مجددًا.

أنهى الجميع طعامه وسكن كلُّ خليلٍ إلى خليله، وبقيت صفية تهدهد الصغير معاوية الذي أخذ يلاعبها ويضحك بينما كانت رأسها في عالمٍ آخر، تحاول كشف القادم الذي لا يعرفه سوى علّام الغيوب.

*****

أشرقت شمس ابن عبو على قلعة أرجبة وراح جيشه المكوَّن من عشرة آلاف مقاتلٍ ينتشرون حول المدينة ليطوقوها من كلّ الجوانب ضاربين حصارًا يتمنون من الله ألا يطول، انهمك الجند في إعداد المعسكر وكان على رأسهم قائد وادي المنصورة وبسطة خيرمينو بن المليح الذي أسند إلى عبدالرحمن قيادة فِرَقِ

الاقتحام التي كان دورها تسلّق أسوار القلعة المحاصرة، تفقّد عبدالرحمن جنوده قبل أن يدخل إلى خيمته توضأ وأدّى صلاته التي ما إن أنهاها حتى وجد مأمون يجلس بالقرب منه قائلاً:

- لعلنا نصلّيها في مسجد قرطبة قريبًا.

أطلق عبدالرحمن زفرةً تحمل الكثير مما يجيش في صدره، ألقى بعد ذلك بجسده على الفراش قائلاً:

- إنها أولى معاركنا دون ابن أمية رحمه الله، حتى الأرشذوني رحل ومن بعده ابن مكنون.

بصوتٍ هادئٍ يبعث الطمأنينة قال مأمون:

- نحن نناضل ونقاتل من أجل قضية أُمّة وليس من أجل أشخاص، إن انتصرنا سيفرح من هم في جنان الخلد قبل فرحنا، ولعل الله يفرّج قلوبنا بنصرٍ قريب.

اعتدل عبدالرحمن في جلسته ليتناول كوب ماءٍ ارتشف بضع رشفاتٍ قبل أن يقول:

- أتعلم؟ والله إنّ حبَّ الأندلس يسري في عروقنا وإني أحبُّ أن أُدفن في ترابها على أن أرحل كالجبناء.

طّ مأمون شفتيه قائلاً:

- لا تلُم أحدًا فالقلوب والعقول لا تتشابه يا صديقي، ثم إنّ الفتن كثُرت وتسللت

الخيانة إلى ظهورنا، وإنْ لم نحسن الظن ببعضنا بعضًا فقد نخسر الكثير.

- الخيانة.

نطقها عبدالرحمن وهو ينظر إلى رفيقه بصمتٍ قطعه صوت ابن عبو الذي كان يقف على باب الخيمة قائلاً:

- كيف حالكما؟

انتفضا واقفيْن وهما يُحيّيان السلطان الذي تبسّم بدوره وتقدّم ليجلس مشيرًا لهما بالجلوس، دقائقُ مرّت قبل أن ينطق قائلاً:

- على بعضنا الذهاب إلى جليرة.

بدهشةٍ نطق عبدالرحمن:

- ماذا؟!

بينما أكمل ابن عبو:

- لقد تركنا لوشر دون حماية، فكما تعلمون أنّ الحبقي والشعيبي في طريقهم إلى لانجرون لقطع الطريق المؤدي إلى هنا، ولذا وجب على أهل لوشر التحصن في جليرة وقصبتها القوية.

صمت بضع لحظاتٍ لتستوعب عقولهم ما يقول ثم فاجأهم عندما أمر مأمون بأنْ يتولّى مهمة العودة إلى لوشر وإخلاء أهلها إلى جليرة، مهمةٌ ليست بالثقيلة على من صار يحفظ دروب البشرات ومُدُنَها، لم ينتظر مأمون الليل فقد امتطى جواده

الأدهم وانطلق يشقُّ طريقه عائدًا إلى لوشر عاصمة الثوار.

*****

أسبوعٌ استمرَّت خلاله محاولات جيش الأندلس الدخول إلى أرجبة التي استبسل الجنود القشتاليين في الدفاع عنها ونجح قائد حاميتها بإرسال طلب النجدة من الدون خوان النمساوي، الذي بلغ الأندلسيين خبرُ تقدُّم قواته لفكِّ الحصار عن المدينة، ولكن في لانجرون كانت المفاجأة بانتظار دوق سياسة الذي تفاجأ بتمركز قوات ابن المليح الذي كان بين تلك القوات بطلٌ يدعى عبدالرحمن عمر بن الوليد.

كان عبدالرحمن أبرز أبطال معركة لانجرون، خِفَّته ورشاقته أبهرت الجميع، تحدَّث الجنود عن اقتحامه خطوط العدو حتى صار أمام دوق سياسة الذي تفادي خنجر عبدالرحمن الذي استقر بصدر مساعده، فرَّ بعدها الدوق منسحبًا بقواته إلى مروج غرناطة مهزومًا مدحورًا، لتستسلم بعد ذلك أرجبة ويأسر ويغنم الأندلسيون الحصن والمدينة التي ما إن تحررت حتى صعد عبدالرحمن مئذنة مسجدها مُنزِلاً الصليب من أعلاه ونادى بالأذان الذي اشتاقت له جنبات المدينة وأرضها، أذانٌ دوَّت حروفه بين الحارات والبساتين، دارت الناعورة من جديد على صوته لتحمل الماء العذب من الوادي إلى الهضبة حيث أشرقت شمس الإسلام من جديد على المدينة، خرج أهلها يحتفلون ببهجةٍ ويكبِّرون بسرور.

قضى عبدالرحمن أيامًا في المدينة يساعد أهلها الذين تبدَّلت أحوالهم وصاروا أحرارًا يتنسمون عبير الحرية التي فقدوها منذ عقودٍ، عُمِّرت الأسواق ودُهنت المنازل بالأزرق والأبيض، عادت الحياة مرةً أخرى إلى الحارات الضيقة حيث يجتمع الصِّبية يهرولون بين المروج الخضراء، وعلى ضفاف البحيرة كانت تجتمع النساء يتسامرنَ بأخبار الانتصارات القادمة من مختلف أنحاء مملكة غرناطة.

توالت الانتصارات؛ فقد استطاع خريمينو بن المليح أنْ يحرِّر حصن أرية بعد معركة كبَّدت القشتاليين الكثير من الخسائر، دخل الحصن واثق الخطى ومن خلفه فرسانه بدروعهم العربية وخيولهم الموسومة وكأنه فتحٌ جديدٌ للبلاد، كان يعلم بما فعله جنود ذلك الحصن بالقرى المجاورة، فأعدم ما تبقى من الحامية وذلك لما اقترفته أيديهم بأهل القرى الأندلسية المجاورة لهم، فقد كانوا يعيثون في الأرض سلبًا ونهبًا واغتصابًا قبل قدوم جيش ابن المليح الذي وقف بالقرب من جثثهم قائلاً:

«وتلك الأيام نداولها بين الناس، انتهكتم الحرمات فكان هذا مآلكم.»

*****

تلبَّدت السماء بالغيوم الداكنة التي جاهدت أشعة الشمس في اختراقها لتضفي لونًا ذهبيًا على جدران قلعة أرجبة، حيث وقف عبدالرحمن متأملاً المروج المكسوّة بالثلوج، كان قد مرّ على تواجده في ذلك الحصن أكثر من شهرٍ وأصبح

قائد حاميته والمسئول عن خط الدفاع الأول من جهة الشرق، تأمل المشرق وتمنى أن يرى في الأفق البعيد جحافل الأندلسيين قادمين من الشرق الأندلسي، حيث راحت أخبار الثورة والانتصارات تملأ الحارات والحقول، يتحدث بها القاصي والداني، تمنى أن يرى أهل بلنسية ومرسية يأتون لمساندتهم.

أخذ يحدق في الفضاء الشاسع لحظاتٍ قبل أن ينزل الدرج المؤدّي إلى ساحة القلعة، عندما قابله أحد الجنود بابتسامةٍ عريضةٍ جعلته يتوقف أمامه قائلاً:

- أدام الله ضحكتك يا....؟؟

أجاب الجندي بسرعة:

- كارلوس العامري، أو أحمد العامري. كما تحبُّ سيدي ناداني.

اكتفى عبدالرحمن بابتسامةٍ باهتةٍ قبل أن يقول:

- مِن أين أنت يا أحمد؟؟

- جيان.

نطقها بلهفةٍ وشوقِ مَن افتقد محبوبته وظهر جليًا على وجهه علامات السرور التي اختلطت بأسًى، أحنى رأسه أمام نظرات عبدالرحمن الذي حدَّثه:

- جيان أرض الزيتون والنخيل، ارفعْ رأسك يا أخي فأنت من أرض الأبطال.

رفع الجندي عينيْه رامقًا عبدالرحمن الذي أكمل:

- هل ترى أننا نجني ثمرة الثورة يا أحمد؟

أومأ أحمد برأسه الذي أتبع حركته تلك قائلاً:

- منذ أن تولى مولاي السلطان عبد الله محمد بن عبو زمام الأمور ولم نُهزَم في معركةٍ وقد ظفرنا بأكثر الحصون مناعةً في الجنوب والغرب.

انتظر عبدالرحمن حتى أنهى أحمد، فرفع سبابته إلى السماء قائلاً:

- قلْ: الحمد لله.

- الحمد لله كامل النعم والفضل.

التفت إليه عبدالرحمن مباغتًا إياه:

- ما الذي أتى بك من جيان؟؟

صمت أحمد لحظاتٍ ساد السكون قال بعدها:

- يا سيدي لقد سقطت جيان منذ زمنٍ بعيدٍ، وعاش أهلنا فيها مدجَّنين مُكرهين على فعل كلِّ ما هو بغيض، نهارًا نعمل في الحقول التي يملكها نبلاء قشتالة وفي الليل تداهمنا قواتهم بحثًا عمّن يقولون إنهم سحرةٌ ومشعوذون، لم يسلم منهم حتى اليهود، إلى أن صدر قرار التنصير الإجباري فصرنا موريسكيون بعد أن كنا مدَّجنين، وكم أكره تلك الأسماء التي يصفوننا بها! نحن أصحاب تلك الأرض فأجدادي دخلوا الإسلام يوم طارق وموسى. أوَتعلم يا سيدي؟ لقد وجدت في تلك الثورة روح الإباء والكرامة، لقد رأيت فيها من لم تمت ضمائرهم وقاوموا الذل والمهانة.

تهللت أسارير عبدالرحمن الذي توقف عن السير والتفت مرةً أخرى إلى أحمد الذي كانت تنتابه نشوةُ سرد قصته مع الثورة، تأمله بضع لحظاتٍ وضع بعدها يديْه على كتفيْ أحمد قائلاً:

- حفظك الله يا أخي، والله لينصرنّ الله الإسلام بمَن هم مثلك، ولكنّ الطريق ليس كما تتخيله انتصاراتٌ فقط، فحتى الآن نحن في موطن قوة ونحن نحارب أقوى دولةٍ في أوروبا، دولة قامت على جثث وأشلاء أمتنا، وقريبًا سيمدّها البابا وأوروبا كلها بالمال والرجال لوأد ثورتنا.

اخترقت كلماته قلب أحمد الذي ظنّ أنّ قائده يزرع بذور اليأس بداخله فقال:

- سيدي هل تظن أننا لن ننتصر؟؟

خطا عبدالرحمن بضع خطواتٍ مبتعدًا قبل أن يقول دون أن يلتفت:

- وما النصر إلا من عند الله، وليس علينا سوى الاجتهاد ومواصلة الطريق.

مضى في طريقه إلى غرفته والقلق ينبش صدره بحثًا عن قلبه الذي كان هناك في جليرة حيث عائلته وطفله الذي يتمنى أن يكبر ويعيش في أرض الأندلس الحرة، التي لا فرق فيها بين مسلم ومسيحيٍّ أو حتى يهوديٍّ، أندلس كانت يومًا أرض الحضارة والعلوم، وأصبحت قبورًا تحوي رفات من قتلتهم محاكم التفتيش وجيوش القشتاليين التي تتأهب في غرناطة لخوض أكبر المعارك بقيادة شقيق الملك دون خوان النمساوي.

*****

خرج دون خوان من غرناطة البائسة مُتّجهًا إلى البشرات وجبالها، حاملاً معه حقدًا دفينًا يضاهي ذلك الكُره الذي كان ينبض به قلب إيزابيلا، لم يكن يريد خذلان أخيه فيليب الذي كانت الهزائم تتوالى فوق رأسه كمطرٍ منهمر.

العثمانيون جرّعوه مرارة الهزيمة في البحر والفرنسيون يناوشونه في الشمال، ثوراتٌ بروتستانتية تظهر في أقاليم الشمال، تكالبت الدنيا عليه فلم يكن أمامه سوى أن يحسم أمره فيما يزعجه في الداخل أولاً، قبل أن تبدأ بلنسية وأخواتها في الشرق الأندلسي بالانضمام إلى جيش ابن عبو، لذا أمر بخروج ثلاثة جيوش يرأس أكبرها دون خوان وثانيها يترأسه دوق سياسة والثالث والذي هو بمثابة دعمٍ يقوده القاتل انطونيو دي لونا.

- لقد نزل خوان بوادي أش.

نطقها الحبقي وهو يشعر بغصةٍ جعلت وجهه ممتقعًا وقد بدا جليًا أنّ ما رآه من أعداد كبيرةٍ تفوقهم عتادًا وتدريبًا قد تحسم الأمور لصالح القشتاليين، بينما ظل السلطان ابن عبو جامدًا، أكمل الحبقي بتوترٍ:

- ما هي إلا أيامٌ وينطلقون إلى حصن غليرة.

قاطعه عبدالرحمن الذي كان يجلس بالقرب من مجلس السلطان:

- هل سنظلُّ هكذا ننتظر قدومهم إلينا؟؟ أين دعم العثمانيين؟ ولماذا لم يصل إلى الآن؟؟

وبصوتٍ صارمٍ جاء ردّ ابن عبو:

- إنهم يحاصرون تونس لتحريرها من قوات فيليب وعملائه الحفصيين، علينا الانتظار وتنظيم الصفوف.

وقف عبدالرحمن قائلاً بعصبية:

- عذرًا مولاي، ولكنْ منذ استشهاد السلطان ابن أمية ونحن نفتقد التنظيم، ننتصر ونجلس ولا نفعل شيئًا سوى الحديث عن مستقبلٍ لم يأتِ ولن يأتيَ ونحن متفرقون، كلُّ قوّاتنا منتشرةٌ في الوديان والجبال والحصون.

عقد ابن عبو حاجبيه وتبادل النظرات مع الحبقي الذي قال:

- وماذا ترى؟؟

أخذ عبدالرحمن نفسًا عميقًا ليقول بعد ذلك:

- علينا أنْ نجمع القوات كلّها في جيشٍ واحد، فأعدادُنا غفيرةٌ وسينضمُّ إلينا المزيد. قوّتنا في أنْ نتحدَ، ونكون على قلب رجلٍ واحدٍ.

برقت العيون وتلاقت العقول، فما قاله عبدالرحمن كان عين الصواب، عليهم أنْ يتوحّدوا في جيشٍ واحدٍ قويٍّ يستردُّ أرضهم وكرامتهم المسلوبة، كان على ابن عبو أنْ يأخذ قراره، وبالفعل اتّخذه فقد أمر كاتبه بمراسلة ابن المليح وبرينارديو بن عامر وكنسالفو الشنيش بسرعةِ تجهيز رجالهم لملاقاته في سهل البدول بالبشرات.

*****

قصبة غليرة الشامخه تقف بأبراجها تعانق شمس الغروب بضوئها الأحمر الذي أرسلته بين السحب المتناثرة، لتضفي جمالاً سحريًا كان مثاليًا لزوجين عاشقين يجلسان بالقرب من حافة الجبل، أسندا ظهريهما إلى صخرةٍ متوسطة الحجم، كان يداعب خصلات شعرها الأسود الفاحم بينما أسندت هي رأسها على كتفه، مرّت ساعةٌ وأكثر وهما على هذا الوضع يتأملان روعة الخالق وجنته، ينظران إلى المنازل التي تحتلُ واجهة الجبل مكوّنةً أجمل المشاهد الخلابة حيث حوّلت أيدي الناس الكهوف المظلمة إلى منازل فائقة الجمال والروعة. فاجأها حينما قبّل رأسها وهو يقول بصوتٍ دافئٍ أنسلّ إلى خلجات قلبها:

- عندما ينتهي كلّ هذا سآخذك معي إلى بلادي.

أغمضت عينيْها وهي تقول:

- هل هي جميلة؟؟

لامس بوجهه شعرها وأخذ يتنفس عبيرها قائلاً:

- ليست بأجمل منك، بالتأكيد.

اعتدلت لتواجهه ووجهها يكتسي بحمرة الخجل قائلةً:

- أنت كاذبٌ يا مأمون، فلو أنني أجمل منها ما كنت تقول إنك ستعود إليها.

ضحك وهو يُزيح خصلاتٍ كانت قد تطايرت وحجبت عينيْها عنه قائلاً:

- أنتِ وطني وملاذي يا عائشة.

نهضت وركضت خجلاً فقام ولحق بها، أمسك يدها وواجه عينيْها متحدثًا بصوته الهادئ:

- لماذا أحببتني؟؟

أحسَّت أنه يتعمد أن يرى حمرة خديْها، حاولت التملُّص قائلةً:

- ومَن قال إني أحبك؟؟

تملَّصت منه وصارت تركض بين الحشائش العالية، أطلق صفيرًا عاليًا ليبرز من بينها جواده الفاحم وأخذ يتهادى باتجاهه، لحظاتٌ وكان الجواد يجاري عائشة في مشيتها فنظرت إليه قائلةً:

- ماذا تريد أيها العثماني؟؟

ضحك قائلاً:

- أريد أن أختطف أجمل أندلسية.

أنهى كلماته وهو يختطفها على صهوة جواده وينطلق، وجدت عائشة جسدها بين ذراعيه على صهوة جواد ينطلق بهم نحو المنزل عابرًا الحقول المحاطة بأشجار اللوز وورودها البيضاء التي تساقطت وكأنها ثلوجٌ يحملها الريح وقت الغروب.

*****

قاد عبدالرحمن فرقةً من المتطوعين الأتراك والمغاربة باتجاه وادي آش حيث سيلتقي هناك بمأمون نور الدين توران، الذي سينضمُّ بدوره إلى القوة هو ومَن معه من رجالٍ وذلك للحاق بركب الجيش الأندلسي وقوامه خمسةٌ وعشرون ألفًا من خيرة شباب الأندلس والمتطوعين من الجزائر والعثمانيين، كان يجب عليهم اللقاء في سهل البدول وقطع الطريق على جيش دون خوان المتجه نحو غليرة.

راحت الخيول تقطع الطريق بسرعةٍ ووَقْعُ أقدامها يضرب قلوب مَن هم فوق ظهورها، وذلك عندما رأوا ذلك الفرس الآتي باتجاههم وقد سكن على ظهره جسدٌ يحتضن رقبة الفرس بصعوبةٍ، التفوا حوله وأمر عبدالرحمن رجاله بإنزال ذلك الجريح الذي كان يتأوه من آثار جروحٍ أصابت ظهره وجزءًا من كتفه مع سهمٍ قشتاليٍّ غُرِس في ذراعه اليمنى، ملابسه ودرعه توحي بأنه أحد الثوار.

أنزلوه أرضًا وأخذ عبدالرحمن يتفحصه قبل أن يأتي أحد الرجال بماءٍ سكبه فوق رأس الجريح الذي أفاق بتهالُكٍ وفتح عينيْه متمتمًا ببعض الكلمات غير المفهومة، أسنده عبدالرحمن وسقاه رشفتين من الماء قبل أن يقول له:

- ماذا حدث لك؟؟

أجاب الرجل بصعوبةٍ:

- القشتاليون.

قالها وصمت وأخذت أنفاسه تتسارع، بينما عقد عبدالرحمن حاجبيْه وهو ينحني ليحدِّثه:

- ماذا بهم؟؟ تكلم يا أخي.

هذه المرة خرجت الكلمات أكثر صعوبةً وأكثر تهدجًا وأكثر قسوةً، فقد هوت على قلب عبدالرحمن ثقيلةً، أثقلت كاهله الكلمات، أحسّ بذلك النصل البارد يخترق صدره ويستقرّ بقلبه الذي عجز عن ضخّ الدماء إلى شرايينه، لسانٌ غلبه القهر، وعقلٌ يعيد عليه كلماتِ من غادرت روحه إلى السماء: يحاصرون غليرة!

قد تقف حائرًا عندما تجد أحلامك وطريقًا أسّسته ينحرف ويصطدم بصخرة عملاقةٍ تهوي فوق رأسك فتسحق ما تبقّى من عقلك حتى لا يفكر مرةً أخرى ويبحث عن حلٍّ، دُفِن المجهول الذي أبلغه عن حصار غليرة وصلّوا عليه دون حتى أن يعرفوا اسمه، مات ببساطةٍ حاملاً رسالةً مفادها المجد للمجهولين التي تزهق أرواحهم في سبيل قضيتهم، مات كآلافٍ غيره قُتلوا في معاركَ لم يخلّد التاريخ أسماءهم، على الأقل واراه التراب الأندلسي الذي دافع عنه ولم تظلّ جثته معلقةً على صليبٍ ضخمٍ داخل إحدى غرف التعذيب في ديوان التفتيش.

- ماذا سنفعل الآن؟؟

نطقها أحد جنود عبدالرحمن الذي وقف حائرًا متأملاً قمم الجبال البيضاء، أو هكذا بدا لهم، استدار ببطءٍ قائلاً:

- سنذهب إلى وادي آش.

- سيدي، ولكن ألا ننتظر الريس مأمون؟؟

رمقه عبدالرحمن بنظرةٍ صارمةٍ أتْبَعَها بكلماتٍ جاهدت للخروج عبر حنجرته التي

اختنقتْ بفِعْلِ عِلّةٍ ما في قلبه:

- لا داعي للانتظار، فلن يأتوا.

وخطا ببطءٍ نحو فرسه، امتطاه وحثّه على الركض، مُتحاشيًا النظر إلى وجوه رجاله الذين راحوا يتفحّصونه يريدون معرفة ما يجيش به قلبه، كان يخفق حزنًا على أهله ورفاقه في غليرة، أخذ يطوي الطريق باتجاه وادي آش لعلهم ينقذون غليرة.

*****

على ربوةٍ مرتفعةٍ بالقرب من غليرة وعلى صهوة جوادٍ ضخمٍ مُدرَّعٍ، كان دون خوان يراقب الاشتباكات الدامية أمام أسوار غليرة، كانت تبدو على وجهه نتيجة المعركة حين راحت سيوف الأندلسيين تحصد رقاب رجاله، لم ينتظر أن ينتهي الأندلسيون من الفوج الأول فأشار بيده إلى المدفعية لتضرب ضرباتها المتلاحقة لإرباك الأندلسيين حتى يتسنّى له إرسال الفوج الثاني.

انتهى أمر الفوج الثاني كسابقه؛ جثثٌ مُقطّعةُ الأوصال تحت أسوار غليرة الصامدة، وبداخلها كان مأمون يتفقّد الجرحى ويُواسي أهالي القتلى، أمّا عائشة فقد انهمكت مع ثريا والنساء في مداواة الجرحى والمصابين، كانت تعلم أنّه مجرد يومٍ يختبر فيه القشتاليون قوّتهم، وإنْ لم تأتِ النجدة قريبًا سيكونون في عداد الأموات فعدوُّهم غادرٌ حتى وإنْ حاولوا الاستسلام فسيكون مصيرهم السبي أو القتل، ألقت كلّ الهموم خلف ظهرها وهي تضمّد جراح طفلٍ في

الرابعة عشر مِن عمره وقد أصابه جرحٌ في ساقه، ابتسمت مُحاولةً تخفيف وجعه قائلةً:

- من أين لك بهذا الجرح أيها الصغير؟؟

عقد الطفل حاجبيه قائلاً بصرامة:

- لستُ صغيرًا.

حاولتْ أن تضحك لتُذهب عن وجهه علامات الغضب التي امتزجت بالألم لينتج وجهًا شاحبًا ولكنه صامدٌ، نادته:

- ما اسمك؟

- محمد بن سراج الدين.

ربطت الضمادة برفقٍ وهي تسأله:

- اعذرني، أوَلستَ صغيرًا على حمل السلاح؟؟

رفع رأسه بزهوٍ:

- الصغير يكبر ويدافع عن وطنه ودينه.

أفحمها بفصاحته فابتسمت قائلةً:

- استرحْ أيها المحارب حتى يطيب جرحك.

بادلها الابتسامة وتابعها بنظراته حتى رآها تقف مع القائد مأمون وتتبادل معه

الحديث، فمال برأسه على ذلك المصاب بجواره قائلاً:

- مَن تلك التي تقف مع القائد؟؟

نظر صديقه إلى حيث أشار الصغير ثم عاد ببصره إليه قائلاً:

- إنها زوجته من غرناطة.

كانت عائشة في تلك الأثناء تتحدث مع مأمون عن ضرورة الحصول على دعم الثوار، وكان ذلك أمرًا شبه مستحيل؛ فالحصار حولهم قد اكتمل، حتى مخارج الكهوف قد تودي بهم إلى قلب جيش دون خوان لذا وجب عليهم إخفاؤها جيدًا، وليس أمامهم سوى الانتظار، حتى تأتي النجدة أو يأتي الموت قبلاً.

*****

طال الحصار، وطال الانتظار.

معارك شبه يومية تكبَّد فيها دون خوان خسائرَ فادحةً، أفخاخٌ بين الأشجار عَلِق بها رجاله وصخورٌ تتساقط فوق رؤوس دورياته، حتى ذلك الخندق الذي حفره أسفل الأسوار كانت نهايته الفشل؛ فقد كانت التربة صخريةً ولم يفلح ذلك الأمر، كان يستشيط غضبًا مع صوت الأذان والتكبير الذي يشقُّ صمت الليل والنهار، يمتزج التكبير بصوت السيوف والمدافع اللمباردية التي لم تستطع أن تُحدث ثقبًا واحدًا في الجدار الصلب الذي تصدَّع ولكنه لم يتهاوَ.

أبى ألّا يتحطم كمن يتحصّنون به كلّما اشتدّ عليهم القتال زادوا صلابةً وجَلَدًا وصبرًا، لم يهنوا ولم يحزنوا. أيامٌ طالت ولم يأتِ المدد من السلطان الذي كان يبحث مع قادته تأخُر الإمدادات القادمة من الجزائر أيضًا.

ثلاثة آلاف نفسٍ تحصّنت داخل حصن غليرة بعد أن فقدوا جزءًا من القرية أسفل سفح الجبل، ثلاثة آلافٍ مُقسّمون بين رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ وبعضٍ من كبار السن، نَفَدت الحبوب والمياه حتى الأشجار القليلة لم يَعُدْ بها أوراقٌ فقد التهموها حتى يتسنى لهم العيش، لم يكن هناك سوى الاستسلام أو الاستبسال ولقد اختاروا ذلك الأخير، في ذلك اليوم ارتدت عائشة درعها الفضيّ وساعدت زوجها في ارتداء كامل زيّه العثماني وبردته الخضراء، ألبسها خوذتها وطبع قُبلةً على شفتيها قبل أن يخرجا سويًا تاركين خلفهم ثريا، صفية، والصغير معاوية، وقد توجّها إلى ذلك الممر الضيق بالقرب من الناعورة والذي يؤدّي إلى جوف الجبل في كهفٍ له مخرجٌ آخر يُشرف على الوادي.

هذه المرة كان الهجوم شديدًا حيث راحت المدافع تئنُّ من كثرة ما وُضع فيها من قذائف، استعان دون خوان بمدفعية الماركيز دي بلش الذي تمّ عزله لفشله الذريع في محاولاته البائسة لاقتحام الحصن، ولكنْ هذه المرة لم تكنْ ككُلِّ مرةٍ؛ فقد تهاوت أجزاءٌ من الجدار تحت وطأة المدافع وعلى تلك الثغرة احتشد الجميع، دقائقُ بعد انقشاع الغبار كانت كافيةً لبدء المعركة عند تلك الفتحة في السور والتي راحت الجثث من الجانبين تملأ جانبيْها بفضل الرصاص الذي كان يعلن دومًا عن بدء معركة الأسلحة البيضاء التي يبرع فيها الأندلسيون.

ساعاتٌ مرّت ولم يتوقف النِّزال، سقط الكثير من الرجال أمام الأمواج المتلاحقة للقشتاليين، انْهارَ حائط الصدِّ المكوَّن من خمسمائة رجلٍ ليستبسل خطّ الدفاع الثاني بقيادة عائشة قائدة النساء اللواتي حاربن بشجاعةٍ منقطعة النظير، كُنَّ أشدَّ بطشًا على القشتاليين، كانت تصيح فيهن:

«الله أكبر يا نساء الأندلس! الله أكبر.»

كانت مُثابرةً مُقاتلةً لم تَهُنْ ولم تَضْعُف، الموت أصبح لها سبيلاً للنجاة، فالوقوع في الأَسْرِ يعني التعذيب والمهانة، ولن تصير جاريةً مرةً أخرى فقد وُلِدت حرةً في أرض الأحرار، مِن هنا استمدّت قوّتها التي برزت في القتال الدامي، وبعد وقتٍ ليس بالقصير استطاعت القوات القشتالية التدفُّق إلى داخل الحصن ورآها، تذكَّرها وتحسَّس ساقه ببُغضٍ انهمر من عينيْه، كانت قُواها تخور حينما رأت ذلك الراهب ذا الزيّ البُنيّ يتقدّم ووجهه البشع يحمل ابتسامة ظفرٍ، إنه هو! تعرف تلك الابتسامة المقيتة جيدًا، إنه دون ريكاردو!

«لا يعود الموتى للحياة ولكنْ قد تأتي أشباحهم لتقبض روحك.»

تلقّت عائشة ضربةً قويةً أسقطتها أرضًا، فراح يدور حولها بحصانه القوي المرتفع وهو ينظر لها باشتهاء ذئبٍ لفريسته الجريحة، كانت قد سقطت عنها الخوذة فتبيَّن ملامحها متأكدًا مرةً أخرى أنها هي، كيف ينساها وينسى تلك الليلة التي أصابته بعاهته الدائمة؟ ضحك ورفع رأسه للسماء قائلاً بصوتٍ مرتفعٍ:

- الربُّ يكافئ المخلصين.

في تلك الأثناء كان مأمون يشقُّ طريقه إلى زوجته التي رآها تتلقّى ضربةً من أحد الفرسان، فقد عمامته وتلطّخ وجهه بالدماء التي بللت شعره المنسدل على وجهه، برغم أصابته البليغة تقدَّم وراح سيفه يصول ويجول بالنواصي والأعناق، جحظت عيناه عندما رأى ذلك الفارس يشهر سيفه في وجه عائشة ويرفعه عاليًا، انقبض قلبه وهو يقف وقوف العاجز والمسافة بينهم بعيدةٌ إلى حدٍّ ما، ركض نحوها و... أظلمت الدنيا!

*****

من بين شقوق الأرضية الخشبية لحجرةٍ مُجاورةٍ للناعورة التي راحت تنقل المياه التي اختلطت بالدماء، راحت ثريا تتابع الجنود القشتاليين وهم يستبيحون الحرمات ويقتلون النساء والشيوخ والأطفال، ترقرقت عيناها بالدمع مع ارتفاع صوت الصرخات المتوسلة لأحدى النساء التي تطايرت دماؤها حتى وصلت لمخبئها، شهقت بفزعٍ فسألتها صفية بتوجُّسٍ:

- ماذا ترين؟!

لم تُجبْها ثريا التي جحظت عيناها وهي ترى ذلك الجندي القشتالي الذي كان يحمل رأس طفلٍ صغيرٍ لم يتعدَّ السنتين وقد راح يثبِّت الرأس الصغير على طرف سيفه بنشوةٍ، لم تتمالك أن ترى باقي المشهد فأشاحت بوجهها الممتقع والألم يكوي قلبها وقالت بصوتٍ متهدجٍ:

- إنهم يقتلون الملائكة.

لم تفهم صفية ماذا قصدت ثريا بقولها هذا، فتحرّكت لترى ما يحدث عندما اصطدمت قدماها بإحدى الأواني الفخارية والتي سقطت مُحدِثةً صوتًا قويًا اخترق مخبأهما حتى وصل إلى آذان الجنود القشتاليين، فراحت أقدامهم تقودهم نحو مخبأ السيدتيْن صفية وثريا، لم يكن هناك متسعٌ من الوقت ولكنْ هناك من أوحى إلى أمّ معاوية بأن تخفي رضيعها بين كومةٍ من الأخشاب والقش أسفل الدرج، انتهت مع اقتراب أحد الجنود والذي توقّف أمام الباب الخشبيّ الصغير وانحنى يتأمله بشغفٍ محاولاً سبر أغوار ما أسفله عندما استقرّ نصل سيف ثريا بين عينيه لتسيل دماؤه على جسد السيف الصقيل، ما إنْ سقط ذلك القشتالي حتى خرجت ثريا ومن خلفها صفية تهرولان باتجاه القشتاليين الذين انتابتهم المفاجأة، لكنهم سرعان ما نفضوا آثارها عن رؤوسهم وانقضّوا بدورهم نحو السيدتين اللتين لم تمهلهما طلقات البنادق القشتالية.

*****

«دستووووور! مولانا السلطان محمد خان فاتح إسلامبول وقاهر الروم قائد خير جند وأشجع عسكر»

صدى الصوت كرّر الكلمات مرارًا وتكرارًا على مسامعه، فتح عينيْه ليجد العدم من حوله، كلّ شيءٍ أبيض وكأنه داخل سحابةٍ ناصعٌ بياضُها، الجوّ باردٌ! هل هو في

البرزخ؟؟ لو كان البرزخ فمَن المنادي باسم الفاتح؟؟

لا شيء حوله سوى العدم الذي سرعان ما بدأت تنقشع السحب ليظهر شابٌ في العقد الثالث من عمره، راح يقترب مبتسمًا قائلًا:

- سلامٌ عليك أيها المجاهد.

- من أنت؟؟

نطقها وتلك البرودة تسري في أطرافه.

أجابه الشاب:

- أنا محمد خان.

تمتم مأمون بذهولٍ قائلًا:

- الفاتح؟؟

- نعم.

سقط مأمون على ركبتيه وهو يحدّق في وجه الفاتح الذي قال بهدوء:

- لم تَمُتْ يا مأمون، لم تَحِنْ ساعتك، انهض وأنقذْ مَن تدافع عنهم، انهضْ وحرِّرْ الأرض المحتلة، أنقِذْ عائشة، انهضْ.

كانت تلك الكلمة الأخيرة بصوتٍ هادرٍ تتزامن مع طاقة ضوءٍ أَغْشَت عينيه اللتين ما إن فتحهما حتى رأى عتمة المكان الذي يربض تحته، كان المكان أشبه بقبرٍ

ولكنه كبير الحجم قليلًا، حاول أن ينهض ولكنه ارتطم بعارضةٍ خشبيةٍ وكأنه ينقصه ذلك الألم الذي تسببت فيه، نبش الركام مجاهدًا ضيق التنفس إلى أن ظهرت طاقة ضوءٍ صغيرةٍ سُرعان ما اتسعت لتسمح له بالخروج ليجد أمامه أبشع ما رأت عينه يومًا.

أخذ يخطو ذاهلًا متحاشيًا الخوض في برك الدماء ووطء الأشلاء، مرّ بجنوده مكبَّلين من الخلف وقد رُصُّوا في صفٍ وقد فُصِلت رؤوسهم عن أجسادهم، أجسادٌ أخرى مبعثرةٌ من نساءٍ وأطفالٍ بالقرب من المنازل. قادته قدمه إلى حيث رأى عائشة لآخر مرةٍ وقلبه يَكزُّهُ ويحذِّره من عدم الاقتراب، لم يَنْصَغْ له وترك قدميه تَجُرّانه إلى ذلك المكان، وانحنى يبحث عنها وسط الجثث والأشلاء الممزقة، لم يجدها ولم يطمئن.

قطع بحثه عندما سمع صراخ طفلٍ يأتي من بعيدٍ، راح يدنو من مصدر الصوت ببطءٍ حتى صار بالقرب من الناعورة القديمة، اقترب ليجد جسد ثريا بالقرب من مجرى المياه وقد تلطّخ ثوبها الأبيض بالدماء، انحنى ليتفحصها، أغمض عينيها وهو يستمع لبكاء الصغير، اقترب من ذلك الجسد الملقى على وجهه والذي تبيَّن صاحبته المُسنّة التي لم يرحموا ضعفها وشيبها إنها صفية، وبالقرب منها كان الباب السريّ، مازال صوت الصغير يصدح في المكان، اقترب وأزاح إحدى الجثث ليفتح بعد ذلك الباب القديم نزل درجات السلم وأخذ يبحث عن معاوية الذي كان يبكي دون توقف.

حمله، احتضنه، و...

- مأمون، أهذا أنت؟؟

جاء صوت عبدالرحمن مباغتًا مُفزعًا، التفت مأمون بسرعة ليجد خلفه عبدالرحمن وقد انتشرت فرقته بين الجثث تبحث عن ناجٍ، وقد حمل وجهه الأسى، لم ينتظر ردّ مأمون فقد أخذته عيناه إلى ثريا التي حدّق فيها جاحظًا يمنّي نفسه ألا تكون هي، حوّل نظره إلى عمته صفية التي سكن جسدها قرب مأمون، انحنى محتضنًا زوجته وعيناه لا تفارق عمته، جاهدت الدموع للخروج فكوّنت بحيرةً بعينيه، وتجمّد لسانه عن النطق أيبكي من ربّته أم يبكي أمّ طفله، أم يموت كمدًا وحسرةً على أهل غليرة القتلى في تلك المجزرة البشعة؟؟ التفت محدقًا في وجه أحد رجاله الذي جاء من خلفه ملوحًا بورقة قائلًا:

- سيدي، لقد وجدنا تلك الرسالة على باب المسجد.

دون أن يترك جسد ثريا، أمسك الرسالة وقرأ ما فيها بعينيه وأطلق صرخةً قويةً تحمل غضب الدنيا، صرخةً ردّدت الجدران صداها لتعلن أنّ من فعل هذا سيكون عرضةً لانتقامه.

*****

القهر والعجز هما ما يُهيمنان على أجواء البلدات المحررة، بعد مجزرة غليرة التي لم ينجُ منها أحدٌ، خارت القوى وانهزمت النفوس وفرح القشتاليون وأقاموا الحفلات على دماء القتلى ليالٍ صاخبةً راحت تعمّ أرجاء غرناطة المحتلة وسط

حزنٍ دفين في بعض البيوت الأندلسية الباقية التي تُهجر إلى الآن، بعضهم ممّن يريدون الاستقرار والعيش قالوا لقد قُضي على المخرّبين ومَن يدعون أنفسهم مجاهدين، والآخرون تحدّثت ألسنتهم بأيِّ ذنبٍ يَقتُلون العُزّل والنساء؟ هل أخطأوا حينما نادوا بحريتهم وحرية بلادهم؟؟

وفي البشرات كان ابن عبو يلوم نفسه على تأخره في إرسال المدد إلى المحاصرين في غليرة، ولكن لم يكن باليد حيلةٌ فقوّاته متمركزةٌ على مسافة بعيدة جدًا عن البلدة، كما أنّ الإمدادات القادمة من الجزائر توقّفت، كان عليه طلب المدد من جديد فالوضع حَرِجٌ والثورة تمرُّ بأسوأ فتراتها فقد خسروا قرابة الأربعة آلاف نفسٍ في أيامٍ قليلةٍ، لذا وجب عليه أن يُرسِل رسالةً أخيرةً إلى الدولة العثمانية العليّة، ولكنْ هذه المرة ليست للسلطان سليم الثاني المنهمك في حربه مع الممالك الكاثوليكية في البحر المتوسط صاحب الفضل في تحرير تونس من أيدي القشتاليين وعملائهم، فكّر في مراسلة مفتي الدولة العثمانية في إسلامبول، أَمَرَ كاتبه بالحضور وأملاه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، العزة لله، من عبد الله المتوكل على الله، الحيّ بفضله وقدرته، المجاهد في سبيله، أمير المؤمنين، المستمسك بشريعة الله، مُبيد الكفار وقاهر جيوش العاصين لله، مولاي عبد الله محمد بن عبو، بارك الله مسعاه، وسدّد خطاه ليستردّ عزة الأندلس، ويجدّد نهضتها، نصرها الله القدير، وهو القادر على كل شيء، إلى صديقنا وحبيبنا الخاص، السيد العظيم، والشريف الكريم، السامي المتقدم، العامل المحسن، الخائف من الله، أنعم الله عليه

بنعمة الغفران،

أمّا بعد، فسلام الله عامةً على دولتنا العليّة، ونعمته وبركاته الوفيرة. أيها الأخ العزيز، لقد بلغتنا أنباء دولتكم العلية، وشخص السلطان الكريم، وما صدر عنه العطف على التعساء البائسين، وأنه سأل عنا، مهتمًا لمعرفة ما يجري لدينا، وأنه اهتم وتألّم لِمَا أصابنا من ضنكٍ ونصبٍ على أيدي أولئك النصارى، وأنّ صاحب الجلالة والعظمة السلطان قد أرسل إلينا كتابًا مختومًا بخاتمه يَعِدُنا فيه بالنصرة بعددٍ وافرٍ من الرجال المسلمين، وبما نحتاج إليه من العون والعدد التي تسمح لنا بالحفاظ على هذه الأرض.

وبما أننا نُقاسي المتاعب الشديدة في هذه الأزمة المريرة، فإننا نلجأ من جديد إلى الباب العالي، نطلب النجدة والمعونة والنصر عن يدكم. فالنجدة النجدة، بالله القاهر فوق الناس جميعًا. ونرجو من سيادتكم إعلام السلطان القادر بأحوالنا وإخباره بأخبارنا، بالحرب الكبرى التي نخوضها، وقولوا لعظمته إنه إذا أراد أن يشملنا برعايته وعطفه فليبادر إلى إنجادنا بسرعة قبل أن نهلك، فهناك جيشان قويان يتجهان إلينا لمهاجمتنا من جهتين. وإننا إذا ما اندحرنا في المعركة، فإن الله سبحانه سيحاسبه على ذلك حسابًا عسيرًا يوم القيامة، يوم لا تنفع القوة في الحجة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حرر يوم الثلاثاء في الحادي عشر من شهر شعبان ٩٧٧ هـ.

مولاي عبد الله محمد بن عبو».

ما إنْ انتهى الكاتب حتى أمره السلطان بأخْذِ المكتوب وإرساله إلى الجزائر ليوصلوه إلى وجهته، في تلك الأثناء طلب عبدالرحمن الإذن بالدخول إلى السلطان فدلف بعد خروج الكاتب، كان وجهه ممتقعًا شاحبًا احتلّ السواد أسفل عينيه من قلة النوم، رحّب به ابن عبو وقدَّم له التعازي قبل أن يطلب منه عبدالرحمن الإذن بالذهاب في مهمةٍ خاصة جدًا، اعترض السلطان وأصرَّ أبو معاوية الذي ترك طفله في بيت ابن عبو لترعاه زوجة السلطان ورحل هو ومأمون قاصديْن غرناطة.

*****

متخفّيان بزيَّيْن لنبلاء قشتاليين وفرسيْن عظيمتيْن زُيِّنتا بأحزمةٍ جلديةٍ مُحلّاة بالفضة، انطلق عبدالرحمن ومأمون صوب غرناطة، لهدفٍ واحد؛ إنقاذ عائشة والانتقام من دون ريكاردو الذي ترك لهم رسالةً خُطَّتْ بالدماء معلقةً على باب المسجد، وقد كان مضمونها:

«تعال إليَّ أيها الموريسكي، لتحصل على ما تريد».

عرف عبدالرحمن أنّ الموضوع صار شخصيًا فريكاردو يعلم أنّ مَن حاول قتله وتسبَّب في عاهَته وسرق منه غنيمته حيٌّ يُرزَق لذا أراد التلذُّذ بالانتقام منها ومن ذلك القاتل المجهول، دخلا غرناطة كنبلاءَ من أراغون بحثًا عن خانٍ قريب من البيازين وأقاما فيه، لم تكن تلك غرناطة التي وُلِدَ وترعرع في جنباتها، أصبحت غرناطة القشتاليين وبعض مَن حَسُنَ تنصيره وارتضى بالذل وصار أحد

أتباع وخُدّام المُحتلّين.

يومان مرّا على وجودهما، يتجوّل عبدالرحمن ليلاً باحثًا عن هدفه يتلصّص هنا وهناك، يتسلّق الأسوار ويقفز فوق المنازل والأشجار حتى رأى دييجو أركش الخائن أحد قاتلي السلطان ابن أمية، كان سكيرًا يستند على غانية أسندته حتى باب منزله الذي ما إنْ فتح حتى سقط أرضًا فانحنت تفتّش جيوبه وسرعان ما رحلت مُسرعةً تاركةً إياه ملقًى أرضًا أمام باب منزله المفتوح على مصراعيه.

بخفة وسرعة تحرك عبدالرحمن، حمل أركش إلى داخل منزله بحذر، وما إنْ تأكّد من خلوّ الدار حتى عاد فحمل ذلك الأخير إلى قَبْوِ الحبوب والخزينة، أجلسه على كرسيٍّ أحكم وثاقه وكمّم فاه، أتى بوعاءٍ من الماء البارد وأطاح بالماء في وجه أركش الذي انتفض بفزعٍ وقد أفاق من أثر الخمر، ليس بفضل الماء وإنما لرؤيته عبدالرحمن الذي كان يقف حاملاً خنجره الذي، وضعه على شفتيه في إشارة إلى السكوت، وبعينين زائغتين وقلبٍ مرتجفٍ قال أركش بصوتٍ ملأه الخوف:

- أرجوك لا تقتلني، أرجوك يا عبدالرحمن.

دار عبدالرحمن حوله بضع لحظاتٍ ووقْعُ أقدامه تضرب قلب أركش المذعور الذي قال مرةً أخرى:

- أرجوووك يـ....

انحنى عبدالرحمن بجوار أذنه مقاطعًا:

- لن أقتلك.

جحظت عينا أركش الذي لم يَعُدْ يفهم ما يريده عبدالرحمن، ولكنْ أيًا كان ما يريده فسيوافق ليُحافظَ على روحه، كان عقله يدور في فَلَكٍ سرمديٍّ من التنبؤات حينما باغته عبدالرحمن قائلاً:

- أين دييكو الوزير؟؟؟

امتقع وجه أركش مرةً أخرى وهو يقول:

- لا أعلم، أقسم لك؛ لا أعلم.

وصرخ صرخةً عاليةً بفضل النصل الذي شقّ ذراعه اليمنى بجرحٍ نازفٍ، فتأمل عبدالرحمن بخوفٍ والألم يحتلُّ وجهه بينما اعتدل ذلك الأخير قائلاً:

- خائنٌ وكاذبٌ أيضًا! لن أسأل مرةً أخرى فقط ســـــ....

هنا تعالى صوت أركش:

- مدريد، لقد رحل إلى مدريد بعد أنْ قبض ثمن قَتْلِ صهره. أقسم لك أنّ هذا كلُّ ما أعرفه، أقسم لك.

تقدّم عبدالرحمن بضع خطواتٍ مُلوِّحًا بخنجره بخيلاءَ:

- وأين أجد دون ريكاردو ماتمورس؟؟؟؟

*****

عاد عبدالرحمن إلى الخان بعد أن ترك أركش سابحًا في بحيرة من الدماء ناتجة عن جرح غليظٍ في عنقه، وعبارةً على الحائط كُتبَتْ بدمائه:

«عاشت الأندلس حُرّةً، والموت للخونة»

كان الوقت متأخرًا حينما قابل مأمون الذي سأله عن سبب تأخيره، وجاءت إجابته لتُفرِح مأمون؛ لقد عرفا الآن مكان ريكاردو وليس عليهما سوى تقصّي الأمور وإعداد خطة محكمة لا مجال للفشل فيها، ولكنْ قبل هذا عليهما التأكُّد من مكان وجود عائشة.

يومان آخران مرًّا وكانت غرناطة تعجُّ بأخبار جيش دون خوان الذي يتّجه إلى سيرون لحصارها، كانت الأخبار شحيحةً والشائعات كثيرةً، الأحياء الأندلسية الباقية تتوجّس خيفةً من عواقب ما سيحدث بعد سيرون، هل ستكون مثل غليرة؟؟ أم سيُهزَم دون خوان ويعود ليصبَّ جامَّ غضبه على من تبقّى منهم بالترحيل أو بالتنكيل ومصادرة أموالهم ومنازلهم؟! أمّا الصديقان فقد أصبح هدفهما في مرمى سهامهما، فلم يَعُدْ ينقص سوى التنفيذ.

كعادته، راح عبدالرحمن يتسلّق الجدران ويقفز فوق الأسطح حتى وصل إلى منزل ريكاردو، بسرعة تخلّص من الحارس دون أدنى صوت وأخفى جسده بكومة من الشجيرات، تلفّتَ متأكدًا من خلوّ المكان، فتح النافذة بحذرٍ، عبر من خلالها إلى الداخل. الظلام الدامس هو سيّد المكان، حاول أنْ يجعل عينيه تستسيغ الظلام ولكنّ صوت صريرٍ جعله ينتفض ويستتر بإحدى الستائر.

رآه يهبط الدرج بعرجته حاملاً شمعةً أضاءت خطواته وأضفت بشاعةً أكبر على وجهه البشع، توقف أمام خزانة تحوي بعض الأطباق، وضع الشمعة أرضًا وأزاح الخزانة التي أصدرت صوتًا مزعجًا، ودلف إلى الباب السريّ.

لم يكن أمام عبدالرحمن سوى أنْ يتبعه إلى الداخل، ليجد نفسه داخل قبو عُلِّقَتْ فيه جثثٌ تحلّلت، الرائحة جعلته يشعر بالدوار، كيف يستطيع ذلك الشخص العيش وسط تلك الرائحة النتنة؟! نظر إلى الوجوه البائسة التي يبدو عليها أنها ذاقت شتى أنواع العذاب قبل أن تُترَك هكذا لتموت متأثرةً بجروحها، تمنّى ألا تكون عائشة لاقت نفس مصيرهم، مضى بضع خطواتٍ ليجد ممرًا آخر وفي آخره كانت عائشة معلقةً من ذراعيها عاريةً يحمل جسدها جروحًا وآثار حروق وكدماتٍ، أخذه الذهول إلى جزيرةٍ من الخوف أنْ تكون قد ماتت، تبدو كذلك! خطا ببطءٍ وهو يلتفّت يمينًا ويسارًا حينما فاجأه صوتُ ريكاردو من خلفه:

- كنتُ أعلم أنك ستأتي أيها الموريسكي الحقير.

لم يلتفت عبدالرحمن، ولكنه توقّف عن السير قائلاً بالعربية التي يفهمها ريكاردو جيدًا:

- وما جئت إلا لأخذ روحك إلى الجحيم.

ومع آخر حروفه استدار على عقبيْه بسرعة مُرسلاً خنجره في الهواء نحو ريكاردو الذي تفادى الخنجر ليقع أرضًا ويبرز من خلفه جلّادَيْن عاريَيْ الصدور تبرز عضلاتهما من قمصانٍ تقطّعت أكمامها وارتدوا فوق رؤوسهم قراطيسَ سوداءَ لا

يُرى منهما سوى عيونهما. انحنى أحدهما ليساعد ريكاردو بينما انقضّ الآخر على عبدالرحمن الذي أشهر سيفه وتقدّم هو الآخر نحو الجلاد الأول.

بخفة راح عبدالرحمن يتمايل يمينًا ويسارًا مُتفاديًا ضربات فأس الجلاد ذي العضلات المفتولة، كان يعرف أنّ عليه أنْ يظلّ في تحرُّك دائم ليستطيع التملّص من ذلك الضخم، ركض باتجاه الحائط وارتكز بقدمه عليه وقفز في الهواء كالسهم ليضرب صدر الجلاد الذي لم يسقط وإنما أطلق زمجرةً مخيفةً وهو يهوي بفأسه على رأس عبدالرحمن، الذي انزلق غارسًا خنجره بفخذ مقاتله الذي تهاوى بفضل الطعنة النافذة.

استغلّ عبدالرحمن تلك اللحظة ليضرب بقوة القدم السليمة للجلاد الذي فقد توازنه وسقط أرضًا، وقبل أنْ ينقضّ لذبح الجلاد الملقى أرضًا جاءه الآخر من خلفه ضاربًا إياه بقبضة قوية جعلت عبدالرحمن يسقط هو الآخر، بينما تقدّم الجلاد الثاني، الذي كان أضخم من رفيقه المصاب، بخطوات ظافرة راح يخطو باتجاه عبدالرحمن الذي ظلّ ساكنًا متربصًا للحظة قد تغيِّر مجرى الأمور.

في تلك الأثناء كانت عائشة قد استعادت جزءًا من وعيها فرأت صراع عبدالرحمن كالحلم، ظنّت أنها تهذي وتلك آثار مفارقة الحياة، ظلّت ترى المشهد مشوشًا حتى برز زوجها مأمون حاملاً سيفَيْن مصقولَيْن برق نصلاهما تحت ضوء المشاعل الخافتة، كان مأمون يدخل إلى القبو بسرعة البرق قافزًا من فوق ذلك الجريح ليطير في الهواء كنسر عملاق ويهوي بسيفَيْه على كتفيْ الجلاد الذي كان يريد

الفتك برفيقه، جحظت عينا الجلاد بألم، للحظات ظلّ واقفًا والدماء النافرة تلطّخ الجدران وسحب مأمون سيفيه ليسقط الضخم جثةً هامدةً مُحدثًا صوتًا قويًا من أثر سقوطه.

التفت ليتجه ناحية الآخر الملقى أرضًا الذي حملت عيناه رعبًا وخوفًا وهو يرفع يده ملوحًا بها في الهواء طالبًا التوسل، لكنّ مأمون أخرسه قبل أن ينطق.

اتّجها ناحية عائشة، وخلع مأمون بُردَتَه السوداء وستر جسدها العاري، بينما كانت هي في عالم آخر تظن أنها في طريقها إلى الموت، حملها وما كاد يستدير حتى وجد عبدالرحمن يقفز في الهواء ليتلقّى سهمًا غادرًا بدلاً عنه، سهمًا كان مصدره دون ريكاردو الذي كان يقف في آخر الممر ذاهلاً من تضحية عبدالرحمن الذي تلقّى الضربة التي كان هدفها مأمون. ما إنْ رأى مأمون وجه رفيقه الشاحب حتى أرقد عائشة وأمسك بيد عبدالرحمن الذي ابتسم بشحوب قائلاً:

- اهربْ! أنقذْ عائشة يا مأمون.

كان على مأمون سرعة الاختيار، نظر إليه بقلق ونقل بصره إلى زوجته الغائبة عن الوعي، الوقت يمرّ وقريبًا سيعجّ المكان بحراس ريكاردو الذي اختفى من المكان، أجلس عبدالرحمن وأسند ظهره للحائط، ترك إلى جواره سيفه العثماني دون أن ينطق وعبدالرحمن يقول بتهدُّج:

- حدِّثْ معاوية عن أبيه، وقلْ له إنّ أباه كان رجلاً لا يقبل الضيم، قل له إنّ أباه عاش حرًا و...

سكت عبدالرحمن.

*****

(٧)

الكُربات

«المدد جاء... المدد جاء!»

صاح بها أحد رجال ابن عبو من أعلى برج المراقبة، ومع صيحاته راح يتجمّع الرجال والنساء متجهين إلى البوابات التي فُتِحت على مصراعيها، وما هي إلا دقائقُ حتى عبرت البوابات قوةٌ إنكشاريةٌ قوامها ٤٠٠ جنديٍّ بزيهم الأحمر وطرابيشهم البيضاء الطويلة، في خطواتٍ متناسقة تقدَّموا حاملين الرايات الخضراء والحمراء يتقدَّمُهم قائدهم الذي بدا عليه أنه يعرف وجهته جيدًا نحو منزل ابن عبو.

استقبل ابن عبو القائد الإنكشاري الذي انحنى أمام السلطان الأندلسي قائلًا:

- حيّاك الله مولاي سلطان الأندلس عبد الله محمد بن عبو.

حيّاه ابن عبو وأعطى الأمر لرجاله بضيافة الجنود، جلسا سويًا يتبادلان أطراف الحديث عن وضع الثورة وعن الانتصار الأخير في سيرون بقيادة الحبقي وابن المليح، وأوضح له القائد العثماني عبد الله أنهم جاءوا استجابةً لطلبه وبناءً على قرار مفتي القسطنطينية والوزير الأعظم أولوج علي باشا الذي أمر بإرسال فرقة إنكشارية على أنْ يتمّ إرسال المدد الكبير لاحقًا بعد انتهاء الحرب مع قبرص. فرح ابن عبو رغم قلة المدد ولكنه كان خيرًا مِمّا فعل سلطان المغرب السعدي الذي خذل الأندلس وقضيتها وصار خنجرًا في ظهر ابن عبو الذي كان القلق يجتاحه بعد أنْ علم بحصار سيرون مرةً أخرى وفي داخلها الحبقي وابن المليح.

في تلك الأثناء كان الحبقي يجهِّز رجاله لملاقاة العدو خارج حصن سيرون، كان فيه أعدادٌ غفيرةٌ من النساء والأطفال، قرر أنْ يخرج لملاقاة دون خوان وأنْ يموت محاربًا على أن يبقى داخل الحصن حتى يأتوا إليه ويقتلوه ذليلاً، برغم انتصاراته السابقة إلا أنّ القادم كان يكوي قلبه.

خرج على رأس ستة آلافٍ من رجاله وإلى جانبه رفيق الدرب ابن المليح البطل الأسطوري الذي ذاع صيته في شتى أنحاء الأندلس، وعلى الجانب الآخر كان دون خوان النمساوي يمنّي نفسه بالثأر لنفسه بعد هزيمةٍ قاسيةٍ تلقّاها منذ شهر من هرناندو الحبقي الذي قتل الرجل الأول في جيشه، معلمه وأستاذه دون لويس كيخادا الذي يعدُّه خوان بمثابة والده، لذا وجب الانتقام والتخلُّص من ذلك الحبقي.

المعركة طاحنةٌ بكلّ المقاييس، تحوّلت الأرض إلى طِينٍ بفضل الدماء والأشلاء والجثث في كلّ مكانٍ، كانت معركة بقاء، معركةٌ سقط فيها ابن المليح شهيدًا برصاص الغدر من بندقية دون خوان الذي صرخ مع سقوط خيرمينو بن المليح صائحًا:

- المجد لقشتاااااااااااااااااااااالة.

وتوالت بعدها صيحات القشتاليين الذي انتابتهم شهوة القتل مع رؤية أحد قادة المسلمين يسقط هو وفرسه قتيليْن، في الجانب الآخر كان الحبقي مثخنًا بالجراح، وقد انتهى من مبارزة وامتطى جوادًا أبيضَ ملطخًا بالدماء كان لأحد الفرسان القشتاليين وراح يصول ويجول بين الصفوف حتى استطاع هو وقلةٌ من رجاله من العودة إلى سيرون.

*****

استطاع الحبقي النجاة بأعجوبةٍ هو وفئةٌ قليلةٌ من الرجال والنساء كانوا قد تحصّنوا بقلعة سيرون، أمّا البقية فقد كان مصيرهم القتل أو السبي. تكرّرت مجزرة غليرة ولكنْ تلك المرة بشكلٍ مُصغّرٍ في سيرون، كان الحبقي يقود قافلته الصغيرة بين الجبال الوعرة متغلبًا على جروحه البليغة التي لم تكن كجرح قلبه، وهو يبكي حسرةً على موت ابن المليح أحد قادة الثورة ورفيق نضاله، بينما أخذ عقله يحثّه على اليأس فقد كانت عيناه ترى حشود دون خوان وجيشه الكبير بعد

أنْ انضمّ جيش دوق سياسه إليه في سهل البدول.

حاول الحبقي أنْ يقلع شجيرات اليأس التي بدأت تنمو في عقله والتي راحت تحاول أن تصل بأغصانها إلى قلبه، ولكنْ بدا الأمر صعبًا عليه فإن استمرّ الحال هكذا دون سلاحٍ وعتادٍ فسيكون مصيرهم جميعًا القتل.

بينما يسير الركب متجهًا صوب الجبل الأحمر حيث يتمركز الجيش الأندلسي، وجد فرسًا يرعى بين الأعشاب فتوَخّى الحبقي الحذر فالفرس بدرعه الفضيّ وهيئته توحي بأنه مُلْكٌ لفارسٍ قشتاليٍّ، أمر رجاله بالانتشار بحذرٍ فقد كان يتوقع أنْ يكون كمينًا أو يكون لأحد الجواسيس الذي تتبعهم بعد ذلك فرق الاستطلاع ومن بعدها يأتي جيش الموت بقيادة دون خوان، ترجّل الحبقي عن فرسه ممسكًا بندقيته العثمانية المرصعة بالفضة والنقوش السلطانية، تقدم قائلاً بالقشتالية:

- أظهِرْ نفسك وإلّا أطلقنا النيران نحوك.

خرج من خلف الأشجار مأمون رافعًا يديْه التي ما إن رأت وجه الحبقي حتى أنزلها وأخفض بدوره ذلك الأخير بندقيته وهو يبتسم قائلاً:

- الريّس مأمون نور الدين، كيف جئت إلى هنا؟؟؟

ساعدت النساء عائشة التي مازالت في غيبوبتها، حملوها معهم على ظهر العربة التي سارت وسط موكب فرسان وجنود الحبقي الذي تبادل الحديث مع مأمون عمّا حدث في سيرون واستشهاد القائد ابن المليح، بدت نبرات الحبقي يائسةً وهو يذكر أعداد الجيش القشتالي المزوّد بمرتزقةٍ وقتلةٍ من مختلف أنحاء أوروبا

دفع بهم البابا لمساعدة الملك فيليب الثاني، أخبره مأمون بموت عبدالرحمن البطولي في غرناطة وكيف أنقذه من سهمٍ غادرٍ وبعد ذلك التزما الصمت طوال الطريق إلى الجبل الأحمر وفي داخل كلٍّ منهما شعورٌ متناقضٌ.

*****

مضت الأيام، وتوالت الهزائم.

تمّ تهجير ما تبقّى مِن الأُسَر الأندلسية من غرناطة وتوزيعهم على المدن القشتالية، وبرغم أنّ أعدادهم كانت كبيرةً إلا أنّ مَن وصل إلى المدن المُهَجَّر إليها عددٌ قليلٌ بينما قُتلَ الآخرون في الطريق بعد أنْ نُهبوا وسُلِبت أموالهم ومتاعهم. بعدها بأيامٍ دخل دوق سياسه إلى أندرش وقمارش وكوثر وبني مرغوشة وتمّ نقل أهلها بعد أنْ صاروا عبيدًا إلى قشتالة. خارت القوى أمام الهزائم المتتالية وأخذت العزائم تبرد والأمل في نصرٍ قريبٍ يخبو، ضاقت صدورهم بخذلان العالم الإسلامي فالعثمانيون في أوْجِ حروبهم مع قبرص ودول أوروبا، والمغرب رأى سلطانه المعادي للعثمانيين أنّ قيام دولةٍ أندلسيةٍ تابعةٍ للعثمانيين خطرٌ عليه وعلى مُلْكه البائد.

انعكست الأحداث الأخيرة على عائشة التي فقدت نَضْرتَها ولم تَعُد تلك الفتاة المبتسمة التي تملأ الأجواء عذوبةً، فقد ألقت كلّ عاتقها على تربية معاوية الذي صار يحبو ويصيح بكلماتٍ مبهمةٍ، كان هو من يهوّن عليها الحياة؛ فزوجها كثير

الغياب بين المعارك والحصون، جاءها قبل أيام ليبلغها بانتصارهم في رُندة ولم يبقَ معها سوى بضع ساعاتٍ قبل أن يرحل عائدًا إلى حصن الحصينة الذي استولى عليه المجاهدون.

كانت تقضي أيامها بين الحقول تزرع الخضروات وتجني الثمار، تعود حاملةً معاوية وما منَّ الله عليها به من الخيرات، حتى الطعام لم يَعُدْ له طعمٌ والحياة مملة قاسيةٌ، جيرانها وصديقاتها ما بين قتيلٍ وأسيرٍ، كانت ترى صفية في أحلامها وتبكي حينما تتذكر ثريا، أمّا عبدالرحمن فقد كانت تراه في معاوية، تلاعبه وتقصُّ عليه قصصًا لا يفهمها حتى يذهب للنوم فتلتحف بِبُردةٍ كانت يومًا سِترَها حينما أنقذها مأمون وترقد بجانب الصغير، تأمُل بنصرٍ قريب.

ذات يومٍ بينما كانت في الحمام، سمعت بعض النسوة تتداول ألسنتهم خبرًا:

«أنّ أحد الأندلسيين التابعين لقشتالة واسمه هرناندو برادة، اجتمع في جبل شلير بقائد الجيوش هرناندو الحبقي الذي تفاوض واقترح أن تعلن الهدنة ويحتفظ الأندلسيون بالبشرات ووادي المنصورة على أنْ يتمّ إصدار عفوٍ شاملٍ يصدر خلال عشرين يومًا على كلّ من أنزل السلاح ويعطى الأمان للمجاهدين، على أن ينظر الملك في شكاوى الأندلسيين وإصدار قوانينَ تحميهم وتعطيهم حقوقهم، ومَن يرفض الاستسلام سيُعدم سواءً أكان صبيًا أو شيخًا أو حتى امرأةً.».

خرجت عائشة تحمل من الهموم ما زاد عن حاجتها، كانت تَسُبُّ الحبقي ومَن ينحاز إليه في تلك المفاوضات المُهينة للاستسلام، كانت تقول لنفسها كيف

لهؤلاء الناس أنْ يصدِّقوا مَن نكث العهود والمواثيق كما فعل أجدادهم، اللعنة على مَن يستسلم ويقبل أنْ يكون عبدًا ينتظر فتاتًا يرميها لهم المَلك. ذهبت إلى دارها وما إنْ أغلقت الباب حتى انهارت في البكاء كما لم تبكِ من قبل.

*****

كان محمد بن عبو جالسًا يتناقش مع بريناردينو بن عامر مُساعِدَهُ المخلص، حينما اقتحم مأمون الغرفة دون استئذانٍ حاملاً ورقةً بيده قائلاً:

- ما هذا؟؟

أمسك ابن عبو الورقة وقرأها، وما إن انتهى حتى تمتم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

نظر إليه بريناردينو بقلق قائلاً:

- ما الأمر يا مولاي؟؟

نقل ابن عبو بصره إليه قائلاً:

- القشتاليون يـزوِّرون فتاوى لبعض العلماء والأئمة المسلمين تطلب من الأندلسيين خفض السلاح والامتثال للمَلك وعدم الخروج عليه.

حدّق ابن عامر بذهولٍ في وجه ابن عبو الذي تابع:

- لو أنّ لنا من السلاح والعتاد ما لهم، لما بقيت لهم في الأرض ديارٌ.

قاطعه مأمون:

- عفوًا أيها السلطان ولكنّ القشتاليين اخترقوا الهدنة أيضًا، وقتلوا وشرّدوا كلّ قرية يمرُّ بها جيش ذلك المغرور خوان النمساوي.

- الأشواك تنبت قبل الورود، علينا مواصلة القتال حتى النهاية إمّا أنْ ننتصر أو أن نكون ذكرى، وكما قال ابن أمية -رحمه الله- سيكفينا عذرنا أمام الله أننا حاولنا.

قالها ابن عبو وعقله يستعيد ما حدث في الأمس القريب عندما أرسل ردًا على رسالة صديقه الغرناطي دون ألونسو دي غرناطة ذي الأصول الأندلسية، الذي كان قد طالبه بتسليم سلاحه والبعد عن الحرب ويضمن له الأمان من المَلك، وكان ردهُ أنه لن يعود إلى ما قبل الثورة وإن أراد دون خوان التفاوض فلْيُعطِ الأمان للحبقي على أن يذهب على رأس وفد المتفاوضين والمتحدث باسم الأندلسيين.

تركه مأمون يغرق داخل بحورٍ مظلمةٍ من الأفكار، وخرج ومن خلفه خرج ابن عامر الذي ناداه قائلاً:

- مأمون، سمعتُ أنه قد وصلتك رسالةٌ من الدولة العلية.

استدار مأمون رامقًا إياه بنظرةٍ صارمةٍ قبل أن يقول:

- ألم تسمع بما جاء فيها أيضًا؟؟

بنظراتٍ متوجسةٍ قال ابن عامر محاولاً أنْ ينفض عن رأس مأمون تلك التخيُّلات

عن الشماتة:

- لقد تناول الجميع خبر تلك الرسالة ورأيتُ أنْ أسألك بما أنك أحد قادتنا.

لم يتحدّث مأمون حتى مع نفسه عن تلك الرسالة التي لم يخبر بها زوجته ولم يفصح عن محتواها لأصحابه، لكنْ كان عليه أنْ يتحدّث، كان يريد التحدث ليفيض بما في قلبه، اقترب من ابن عامر قائلاً:

- السلطان سليم الثاني يطلب عودتي إلى عاصمة الدولة العلية على وجه السرعة.

امتقع وجه بريناردينو بن عامر الذي تمتم بخفوت:

- ستتركنا وترحل؟؟

أطلق مأمون زفرةً والحيرة تتخلّل نسمات وجهه ليقول:

- لا أعلم، ولكن لن أرحل حتى أرى النصر أو أُدفَن هنا.

ربّت ابن عامر على ظهره قائلاً:

- نِعْمَ الرجال أنت يا مأمون توران.

قالها ورحل تاركًا مأمون تتقاذفه أمواج الحيرة، عليه أنْ ينفّذ قرار السلطان ولكن هل يترك الأندلس وسلطانها في محنتهم؟؟ هل ستذهب معه عائشة التي صارت غريبةً عن زوجته التي يعرفها؟ أسئلةٌ كثيرةٌ دارت بخلده وهو يقطع الطريق باتجاه بيت الحبقي الذي سيذهب معه ضمن الوفد المُفاوِض، برغم أنه لا يرى

في تلك المفاوضات سوى إهدارٍ للوقت بينما يتسنى للقشتاليين التجهيز لذبح ما تبقّى من الثوار في جبال البشرات.

*****

مع تلك الأجواء القاتمة والمفاوضات التي يبدو أنها سرمدية، مجرّد إجراءات تُزعزِع ثقة الثوار في النصر المرجوّ تحقيقه، توالت جلسات التهدئة بين الحبقي ودون خوان الذي كان بدوره يستغل تلك الهدنة في تعبئة الجيوش في سهل البدول، بينما كان الحبقي مفاوضًا بارعًا؛ فلقد أستطاع أن يجعل بعض قادة الأندلسيين يقتنعون بتلك المفاوضات بناءً على تفويض ابن عبو له، ولكنّ الحبقي أساء التصرُّف فقد اتفق مع دون خوان على:

- أن يأتي ابن عبو وقادة الثورة ويسلّموا سلاحهم إلى خوان ويطلبوا الصفح والمغفرة من الأمير الذي بدوره سيعفو عنهم باسم الملك. وبناءً على هذا سيتمّ ضمان الأرواح والممتلكات ويحميهم من الاعتداء عليهم ويتمّ السماح لهم بإقامة علاقاتهم الاجتماعية كما كانت من قبل، وتخلّي سكان البشرات وقراها من المحاربين ونسائهم وأولادهم عن أماكنهم إلى الأماكن الجديدة المخصصة لهم.

وقبِلَ الحبقي الذي رأى في ذلك انتصارًا للثورة، بتلك الشروط، وبعد أيام عاد الحبقي حاملاً راية الاستسلام ودخل إلى معسكر دون خوان ومن خلفه ثلاثمئة رجل، تقدّمهم الحبقي إلى حيث يجلس دون خوان، انحنى أمامه وسلّمه سيفه

فالتقطه القشتالي بظفر، قلّبه بين يديه قبل أن ينظر إلى الحبقي قائلاً:

- احتفظ بسيفك يا سنيور حبقي ولك الأمان أنت ورجالك ولكم الحق في السكن والتجوُّل في كافة أنحاء مملكة غرناطة، إلا البشرات.

بقلبٍ متوجّسٍ عاد الحبقي إلى البشرات ومعه مندوبو دون خوان ليتأكّدا من قبول ابن عبو للاستسلام، دخل الحبقي إلى بيت ابن عبو محيًيا إياه وذلك الأخير يرمق الرجليْن القشتاليّيْن بصمتٍ، لم يُجبْ تحية الحبقي الذي كان يرى في وجهه أثر خذلان الثورة والثوار، ولكنه كذّب ظنونه ورحّب بضيوفه ليقول بعد ذلك محدثًا الحبقي:

- لنرَ ما لديك.

أقلقت نبرة صوته الحبقي الذي بدأ في قراءة البنود وعيناه تراقب ابن عبو الذي ظلّ هادئًا حتى أنهى الحبقي بنود اتفاقه، فقال له:

- إذنْ، لم يتمّ إلغاء التنصير! ولم يتمّ أيضًا إعادة لغتنا ومساجدنا التي تمّ تحويلها إلى كنائس، لم يأتِ حقُّ مَن استشهدوا ومَن جاهدوا وتركوا ديارهم قهرًا وظلمًا، وفوق كلّ هذا وافقت يا حبقي على تهجيرنا من البشرات وجبالها!

حاول الحبقي أنْ ينطق بشيءٍ ما، فقاطعه السلطان قائلاً:

- لِمَ الجهاد إذن؟؟ ولِمَ التضحيات؟؟؟

أحنى الحبقي رأسه أمام كلمات ابن عبو التي تشبه طلقات المدافع اللمباردية

والتي لم تتوقف وابن عبو يكمل:

- عُدْ إلى ذلك المدعو دون خوان وأخبره أنّ سلطان الأندلس عبد الله بن محمد بن عبو لا يقبل تلك الشروط ولا تلك الاتفاقية الممتلئة بالخذلان لأهل الأندلس.

*****

ما إنْ عاد الحبقي إلى دون خوان حتى تنصّل من سلطانه والثورة وراح يبثُّ في معسكرات المتطوعين روح الهزيمة والاستسلام ولكنهم خذلوه وطردوه ووقفوا إلى جانب سلطانهم وثورتهم.

تسلّل الحبقي وفرقته المكونة من عشرين رجلاً إلى حيث يعسكر ابن عبو ورجاله، كان هدفه هو قتل السلطان الأخير، الذي كان ينتظر الخائن؛ تحت الظلام الذي تبدّده أضواء بعض المشاعل انتشرت فرقة الموت الخاصة بالحبقي والمكونة بالكامل من الفرسان القشتاليين. لم تكد أقدامهم تطأ الحيّ الذي يسكن فيه السلطان حتى حاصرتهم من فوق المنازل فرقةٌ من الرماة الأندلسيين بأقواسهم التي تحمل السهام المشتعلة، بينما برز مأمون في نهاية الحارة ومن خلفه فرسان الإنكشارية خاصته، ومن داخل المنازل خرجت فرقة برناردينو بن عامر الذي كان يقف مستندًا إلى أحد الجدران ملوحًا بخنجره في الهواء.

في تلك اللحظات عرف الحبقي أنه خسر دنياه فتوترت أصابعه وقبضت على السيف بقوةٍ والعرق يتصبّب على جبينه، لم يأخذ الأمر سوى دقائقَ قُتلَ

فيها رجاله وبقي هو وحيدًا في منتصف جثث فرقته القشتالية، فتقدّم مأمون وبرناردينو نحوه، بينما وقف محدقًا فيهم ذاهلاً لا يقوى على نطق كلمةٍ واحدة، اقتادوه إلى بيت ابن عبو الذي استقبلهم صامتًا والحبقي يحدّق فيه بعينيْن زائغتيْن، ألقيا به أرضًا أمام ابن عبو الذي أومأ برأسه لهم لتجحظ عينا الحبقي قائلاً:

- لا يا سلطان! لا تقتلني.

ولكنّ برناردينو قطع سيل التوسلات بضربةٍ واحدةٍ من سيفه جعلت رأسه يبتعد عن جسده، هكذا كانت نهاية الحبقي الذي أغوته الدنيا وانصاع للقشتاليين، لم يكنْ يتخيَّل أحدهم أنْ يكون هذا مصير الحبقي المجاهد، ولكنْ شتّان بين الحبقي مجاهدًا والحبقي خائنًا، حُملَ جثمانه ودُفِنَ خارج البلدة وأُخفِي أثره من الوجود.

بعد ساعاتٍ

دخل مأمون إلى منزل عائشة التي استقبلته بابتسامةٍ لم يرَها منذ زمن، أعدَّت له الطعام ونادته، أَرْقَدَ معاوية بعد أنْ قبّل رأسه والتفت إليها قائلاً:

- يشبه أباه كثيرًا.

ضاقت نفسها بذكره لعبدالرحمن فقالت لتغيِّر مجرى الحديث:

- كيف كان أمر الحبقي؟!

بالقشتالية:

- أشكرك سيدي السلطان، على كرم ضيافتك ومقابلتك لي.

حرّك ابن عبو رأسه بصمت، وذلك المبعوث يكمل:

- الأمير المعظّم دون خوان يرسل تحياته لك شخصيًا ويتمنى منك قبول هديته.

قالها وأشار لبعض مرافقيه بالتقدُّم حاملين صندوقًا فيه بعض الكتب العربية، التي رمقها ابن عبو وعقله يحدِّثه: «يُهدون ما ليس لهم!»، أعاد بصره إلى المبعوث الذي اعتدل في وِقفته قائلاً بحزم:

- يعرض عليك دون خوان الاستسلام وتسليم السلاح وراية القتال على أنْ تحصل على امتيازاتٍ لم يحصل عليها أيّ موريسكيٍّ مِن قبل، وأنْ تكون ذا مكانة وهَيْبَة في قومك، وأنْ تُرَدّ إليك ضِيَعُ وأملاكُ أجدادك، وتكون مِن المقرّبين المنعَّمين في بلاط الملك فيليب الثاني.

أنهى حديثه ليكون الصمت هو لغة الحاضرِيْن، فالتفت المبعوث يرمق الوجوه بتوجُّسٍ ظنًّا منه أنه أخطأ في شيءٍ ما، عندما فاجأه صوت ابن عبو:

- اذهبْ إلى أميرك خوان وقلْ له: إنّ عَرْضك قد يقبل به الحبقي إنْ عاد للحياة.

جحظت عينا المبعوث مع ذكر ابن عبو لموت الحبقي، والسلطان يكمل:

- أنّ الأندلس وترابها مُلْكٌ للمسلمين، ولم تكن يومًا لنورمانديين أتوا من قرًى نائية في أقصى أوروبا، الأندلس لم تكن يومًا لألفونسو أو فرناندو والشمطاء

إيزابيلا، الأندلس يا هذا مُلْكٌ لمَن عمروها وشيَّدوا قصورها وقلاعها ومزارعها التي منها تأكلون وليست مُلْكَ فيليب.

شعر المبعوث بغصة الإهانة التي يذيقه إياها ابن عبو، الذي تابع بصرامة:

- أقسم بالعزيز الجبار ربّ السماوات والأرض والبحار، أنّي لا أريد مُلكًا ولا جاهًا ولكنّ الأمة الأندلسية بايعَتْني على أنْ أكون سلطانًا لهم وأنْ آتي بحقوقهم. أَخْبِرْ أميرك أنّ السلطان عبد الله محمد بن عبو لن يستسلم ولو ظلّ وحده مجاهدًا في البشرات.

أنهى ابن عبو حديثه وأشار للمبعوث بانتهاء اللقاء، فخرج ذلك الأخير وسط دهشة الحاضرين الذين أثلجت صدورهم كلمات سلطانهم، تابعته كُلُّ العيون وهو ينهض عن كرسيه محدثًا مأمون:

- أرسلْ إلى أخي غالب في رُندة وفي وادي آش أنْ يأتوا هنا بكلّ عتادهم ورجالهم ونسائهم.

تهلّلت أسارير مأمون وقد أومأ برأسه وابن عبو ينتقل ببصره إلى أحد رجاله يُدعى كونسالفو الشنيش قائلاً:

- أرسلْ في طلب برناردينو بن عامر وقلْ له أنْ يُخلي كهوف البشرات ليأمِّنوا مداخل برشول وترفلش.

انتهى الاجتماع لينطلق كلٌّ إلى وجهته التي حدَّدها السلطان،

لبدء جولة جديدة من الثورة.

*****

سبقت السيوف القشتالية والمدافع اللمباردية رسائل السلطان ابن عبو؛ فقد قام دون خوان بمهاجمة كلّ قرى وبلدات البشرات في آنٍ واحد مستبيحًا الدماء والأعراض. التقى جيش دون خوان بجيش دوق سياسه في وادي أش وتمّت إبادة الثوار عن بكْرة أبيهم هناك، لم يسلم النساء والأطفال من القتل وتقطيع الأوصال، أنهارٌ مِن الدماء راحت تنحدر من أعلى جبال البشرات بعد مجزرة قام بها دون ريكسانس في القرى الواقعة على سفوح البشرات، وخرج جيش دون أركش إلى رُندة الباسلة فقامت قوات غالب بالاستبسال والدفاع عن المدينة وحِصْنها الذي سقط بعد أيامٍ مِن الحصار تحت انهمار قذائف المدافع التي دكّت الحصن.

انهارت النفوس وأحسّ الناجون مِن المذابح بالعجز، فاتّجهوا صوب كهوف البشرات، فلحقهم دون ريكسانس إلى هناك، وعندما فشل في اقتحامها أمر رجاله بإشعال النيران في مداخل الكهوف ليموت في الداخل آلافٌ من النساء والأطفال والرجال خنقًا، بينما جلس دون خوان يشاهد الحريق الهائل الذي امتدّ لينال من الأخضر واليابس، وتحت قدميه كان القائد الشنيش مُكبَّل الأيدي محنيّ الرأس بانكسارٍ، فنادى عليه دون خوان قائلاً:

- اسمعْ، أتريد أن تحيا أنت وأسرتك وتعود لك زوجتك وبنتيك؟؟

بوهنٍ ووجهٍ مغطّى بالغبار أومأ كنسالفو الشنيش، فقال له دون خوان بخفوتٍ وهو يميل عليه:

- ائتني برأس ابن عبو.

*****

- الأسطول الجزائري ينقل الفارّين بدينهم وأرواحهم إلى الجانب الآخر من البحر.

قالها مأمون مُحدِّثًا ابن عبو الشارد منذ أتته أخبار إحراق الكهوف بمَن فيها، كان يعلم أنّ النهاية حتميةٌ فقد انهارت قوى المجاهدين وراحت الجيوش القشتالية الأربعة تُداهِم القرى والبلدات وتعيث فيها قتلاً ونهبًا وحرقًا، مَن ينجو يباع في سوق النخاسة ويُساق بعضهم إلى محاكم التفتيش وآخرون حُكِمَ عليهم بالتجديف في الأسطول الإسباني. لم يتبقّ معه سوى بضع مئاتٍ من الرجال نصفُهم من الإنكشارية العثمانية، كان غارقًا في بحورٍ مظلمةٍ مِن اليأس يشعر بغُصّةِ ومرارةِ الهزيمة النكراء، فلولا خيانة الحبقي لكان جيشه الآن في غرناطة يُذيق دون خوان أصناف العذاب.

- آاااا!! أين فرج بن فرج وابن أمية؟

قالها بصوتٍ مرتفعٍ تعجَّب منه الحاضرون، قطع ذهولهم دخول الشنيش إلى الدار قائلاً:

- لقد سقطتْ كلُّ قلاعنا في ألميرية ومالقة.

نظر إليه مأمون بتعجُّبٍ قائلاً:

- أين كنتَ طوال تلك الفترة؟؟

تلعثم الشنيش وهو يرمق مأمون قائلاً:

- لقد... لقد تبعتني فرقةٌ قشتاليةٌ فلم أُرِدْ أنْ آتي إلى هنا فيتبعوني، ضلَّلْتُهم وأتيت بعد ذلك، و...

هنا قاطعه صوت ابن عبو:

- مأمون، تولَّ أنت والإنكشارية تأمين الجبل، لن نستسلم، فالجنة طريقها واحدٌ.

أعطى مأمون أمره للرجال بالانتشار لتأمين الجبل حيث يتمركزون، ذهب بعد ذلك إلى منزله ليجد عائشة وقد ارتدت درعها الحربيّ، فنظر إليها باستغراب قائلاً:

- أرى أنك قد اتخذتِ العزم على مواصلة الطريق كالسلطان.

شدَّت حزام السيف على خصرها وهي تقول:

- ليس هناك اختيارٌ، فإمّا أنْ نموت بكرامة أو نعيش أذلّاءَ.

اقترب منها وطبع قُبلةً على شفاهها، ابتعد بضع خطواتٍ عنها قائلاً:

- ليت أهل الأرض مثلك! يا عائشة الأندلس.

ابتسمت بخفوتٍ لتحمل معاوية وتخرج خلفه نحو الكهف الكبير حيث يجتمع النساء والعجائز وأطفالٌ قد لا يرون ضوء النهار.

*****

مع إشراق الشمس، راحت أصوات المدافع تدوّي مع ارتطامها بالصخور التي راحت تتساقط كمطرٍ منهمرٍ، وبدأت فرق القشتاليين في الصعود إلى الجبل لتتلقّاهم رصاصات الإنكشارية الصامدين بين الممرات الوعرة الضيقة. كان مأمون مُرتجِلاً يتقدّم فرقته التي اشتبكت مع القوة القشتالية بالسيوف والرماح، كان مُبارِزًا لا يُشقُّ له غبارٌ بزيِّه العثمانيّ الذي بعث في نفوس مقاتليه المجد والعزة، وفي الساحة تمركز برناردينو بن عامر حاملاً لواء الأندلسيين الأخضر والأبيض وقد كُتِبَ عليه «ولا غالب إلا الله» كانت الراية تخفق فيخفق معها قلوب الفرسان الأندلسيين. كانت مِن بينهم عائشة التي امتطت فرس زوجها القويّ وقبضت أصابعها على السيف بقوةٍ وأخذت تقول بخفوتٍ:

- سنبقى، سنبقى رغم أنوف القشتاليين.

في ذلك الوقت استطاعت فرقةٌ قشتاليةٌ الدخول إلى الساحة وبدأ الاشتباك بين فرسان برناردينو وتلك القوة القشتالية، أمّا السلطان ابن عبو فقد كان على رأس قوةٍ من رجاله في الممر الشرقيّ قرب مدخل الكهف الكبير، ومن خلفه كان يقف الشنيش رامقًا إياه بمقتٍ قائلاً:

- إنّ القشتاليين لن يأتوا من ذلك الاتجاه، إنّنا نهدر الوقت هنا وإخواننا يحتاجون إلينا هناك.

تقدّم ابن عبو نحو الحافّة بفرسه، وظلّ ينظر إلى الممر المؤدّي إليه قبل أنْ يلتفت قائلاً:

- فليذهبِ الرجال لمساندة برناردينو بن عامر، ولْتبقَ أنت وبعض رجالك هنا.

أمر كنسالفو الشنيش رجال السلطان بالذهاب كما أمره ليبقى هو وستةٌ من رجاله

خلف السلطان ابن عبو، وهناك في الساحة كانت عائشة تقاتل ببسالة عندما رأت تدفُّق القوات القشتالية باتجاه زوجها مأمون الذي كان هو الآخر منهمكًا في القتال، كان قلبها يحدّثها بأنّ النهاية وشيكةٌ؛ فقد كانت كلّما أسقطت أحدًا مهاجميها التفتَتْ لتُلقيَ بصرها على زوجها الذي كان بدوره يفعل ما تفعل، حتى أصابه سهمٌ غادرٌ استقرّ في كتفه الأيمن، مدَّ يده ليكسر السهم ولتبقى رأسه مغروسةً داخل كتفه وعيناه ترمقان عائشة بنظرةٍ مُطمئنة، بينما كانت هي تحثُّ فرسها على المضي قدمًا نحو مدخل الكهف الكبير لتَحول دون دخول القشتاليين إلى الداخل.

كانت أعداد القشتاليين أكثر بكثيرٍ من أعداد الأندلسيين الذين تبقّوا مع ابن عبو، كانت معركةً غير متكافئة، اقتحمت عائشة مدخل الكهف وهي تُسقط جنديًا قشتاليًا، وفرسها يقف على قائمتيه الخلفيتين وسط الجنود الذي أفزعهم المشهد

وراحوا يحاولون إسقاطها ولكنها استطاعت أنْ تتغلب عليهم، لتُلقي نظرةً خاطفةً على تلك المرأة التي أودعتها معاوية، وكزت فرسها لتعود إلى ساحة المعركة ومع التفافها رأت معركةً من نوعٍ آخر بالقرب من الممر الشرقي.

كان السلطان ابن عبو يبارز أحد رجال الشنيش، بينما كان ذلك الأخير يحثُّ بقية الرجال على التقدُّم لقتل السلطان، أذهلها الموقف فتقدّمت بفرسها نحوهم بسرعة لتُسقِط أحد الرجال أرضًا ممّا أعطى الفرصة لابن عبو بأنْ يتخلص من مُبارِزه الذي تفاجأ بعائشة وفرسها الأسود الجامح.

حاول أحد الرجال أنْ يتعلّق بها ليُسقِطها عندما جاء من خلفه ابن عبو المُثخن بالجراح ليطعنه فيظهر وجه ذلك الأخير باسمًا وقد استقرّ سيف الشنيش الخائن بظهره، التفت ابن عبو ومازال السيف في ظهره قائلاً:

- قالوا لي إنك خائنٌ فلمْ أصدِّقهم.

قالها وتقدَّم نحو الشنيش الذي تراجع ذاهلاً، ولكنّ طلقة رصاصٍ أطارت سيف ابن عبو لتتفجّر الدماء من يده ومازال يتقدّم نحو الشنيش الذي قال:

- سامحني، فزوجتي وأولادي لديهم...

قاطعه ابن عبو بصوتٍ مبحوح:

- أوَصدَّقْتَهم يا صديقي؟!

قالها وسقط أرضًا وسط ذهول الشنيش الذي أستلّ سيفه وانطلق داخل كومةٍ من

الجنود القشتاليين واختفى أمام عينيْ عائشة التي ألقتْ نظرةً أخيرةً على ابن عبو الذي حمل وجهه ابتسامةً غريبةً رغم أنّ روحه فارقت جسده المدميّ، لم يكن أمامها سوى التوجُّه إلى حيث كان زوجها مأمون، كان هو الآخر قد أثخنَتْه الجراح، عندما وصلت إليه قال لها:

- اذهبي وانْجي بمعاوية، سنرحل مِن هنا.

بعيونٍ ملأها الدمع ذهبت بسرعةٍ إلى الكهف لتجد النساء يقاتلن بمهارة الجنود القشتاليين، بحثت في أرجاء المكان عمّن تحتفظ بمعاوية لتجدها قتيلةً والطفل الصغير بين ذراعيها يصرخ، أكُتِبَ على هذا الصبي أنْ يبكي في أحضان الأموات؟؟

التقطته وامتطت الفرس وخرجت وهي تلوِّح بسيفها يمينًا ويسارًا لتقتل وتصيب من القشتاليين و... أوقفت الفرس عندما رأت الإنكشاريين ينسحبون إلى الساحة الغارقة في الدماء وقد زيَّنتها الأشلاء، بحثت عن مأمون بينهم فرأته يأتي نحوها مهرولاً حاملاً قوسًا وما إنْ رآها حتى وقف مُمسكًا القوس بقوةٍ وأطلق سهمه نحوها.

لوهلةٍ ظنَّتْ أنه يُطلق السهم نحو صدرها هي، ولكنّ السهم تجاوزها ليستقرّ في صدر أحد خيول القشتاليين الذي كان فارسه يرفع فأسه مستعدًا لقتل عائشة، صهل الجواد القشتاليّ بألمٍ أفزع فرس عائشة التي صهلت هي الأخرى وركضت بعيدًا ومن خلفها صوت مأمون العالي:

- أنقذيها أيتها الفرس الدهماء! أنقذي حبيبتي يا صديقتي.

تشبَّثت عائشة بالفرس وهي تحتضن معاوية الذي لم يكفّ عن الصراخ، وأمام عينيها سقط مأمون أرضًا وأظلمت الدنيا من حوله.

*****

جاء الفجر ونثر ضوءه الأحمر بين السحب التي عانقت جبال البشرات وأضفت لونًا أحمرَ مبهرًا على الوادي المهجور والمكسوّة أرضه ببعض المزروعات والورود بجانب منزلٍ صغير توارى خلف إحدى منحنيات الجبل الشامخ، خرجت عائشة حاملةً دلوًا صغيرًا ملأته من ماء البئر وعادت إلى الداخل قائلةً:

- هيا استيقظ يا معاوية.

تثاءب معاوية ذو السبع سنواتٍ وهو يتمتم بكلماتٍ غير مفهومةٍ، فضحكت وقالت:

- هيا استيقظْ وإلّا فلن آخذك معي إلى مجرى النهر.

اعتدل معاوية في فراشه قائلاً:

- لا أريد الذهاب إلى النهر، أريد أن أستمع إلى بقية القصة، عن قرطبة والخليفة الناصر.

جلستْ بجواره وهي تعدِّل ملابسه قائلةً:

- اليوم سأقصُّ عليك نبأ البشرات ورجالها، سأحكي لك عن الذئب العثمانيّ،

وسلطان المسلمين ابن أمية، سأقصُّ عليك حكاية فارسٍ أذاق القشتاليين ويلات العذاب...

قاطعها الصغير بفضول:

- مَن ذلك الفارس؟

- اسمه عبدالرحمن عمر بن الوليد... أبوك!

*****

في تلك الأثناء، في أحد شوارع قرطبة الضيقة التي لم يصلْ إليها ضوء الفجر بعد، كان دييكو الوزير يفتح باب منزله ويخرج متهاديًا في مشيته، يُطلِق صفيرًا من بين شفتيْه، أخذ يكرِّره مرارًا وتكرارًا، إلى أنْ وصل إلى ساحة مسجد قرطبة، توقَّف بضع لحظاتٍ، عندما أشارت له إحدى العاهرات من بعيدٍ، فراح يدنو منها وتَبِعَها فدلفت إلى أحد الأزقة الضيقة وراحت تُسرِع الخطى بينما راح هو يمشي وراءها مُناديًا إياها قائلاً:

- انتظري أيتها الصهباء.

قطع باقي كلماته وهو ينظر إلى ذلك الشخص المتَّشح بالسواد الذي هبط أمامه وكأنه برز من العدم، كان يعرف ذلك الرداء الأسود وتلك الحُليّ الفضية بزيّ مَن يقف أمامه، حاول أن يصرخ ولكنّ الملثم أخرسه بخنجره الذي مرّ على رقبة

دييكو الوزير ليُخرِج حشرجة ثورٍ مذبوحٍ ويسقط أرضًا ممسكًا بعنقه محاولاً منع تدفق الدماء. وأمام عينيْه الجاحظتيْن أزال الملثم وشاحه، ليكون آخر ما يراه الخائن دييكو هو وجه

حاصد الأرواح الأندلسيّ... عبدالرحمن.

تمّت بحمد الله

شكر خاص:

د/ جمال الأحمر الأنصاري

د / محمود ماهر

مصطفي يحيي

هيثم فهمي

أحمد كمال الدين

عمرو حنفي

خالد عيد

شيماء سعد

جيهان مبارك

إيمان سعيد

ريم مصطفى

مي عتمان



البُشرات

النبضة الأندلسية الأخيرة

قد يظن البعض أن الأندلس سقطت بسهولة وأهلها استسلموا للتنصير الجبريّ وديوان التفتيش الغاشم؛ ولكن لم تكنْ تلك هي الحقيقة ... بل كانت هناك في جبال البُشرات حيث انطلقت ثورة غرناطة الكبرى والتي كانت أعظم ثورات أهل الأندلس على المحتل القشتالى ...

سنَتجوَّل في هذه الرواية بين أزِقّة غرناطة وشواطئ ألميرية؛ وسنُبحر نحو مالقة ونصعد إلى مدينة الجبال "رندة"؛ وسنعيش داخل حصون البُشرات وكُهوفها ...

سنذُوب عشقاً على ضفاف الأنهار؛ وسُنسابق الخيول الأندلسية نحو مجد أمة رددت حناجرها يومًا " لا غَالِبَ إلا الله ".

....

"وممَّ أخاف يا ولدي؛ إنهم يفتشون الدُّور، وغدًا يفعلون ما هو أسوأ؛ لأن الثورة في البُشرات تُوجعهم، وكلما أوْجعتهم أكثر تزعزعوا وهاجُوا كالثور الذبيح."

بهذه الكلمات التي وردت في ثلاثية غرناطة ألهمتني الراحلة رضوي عاشور رواية البُشرات، فإليها أُهديها.

تصميم الغلاف: إيمان صلاح




9 789777 790109